

الدَّسُّوْسُ الْجَمْعِيَّةُ

الشيخ الدكتور

عبد العزيز الخطيب المحمدي

نائب شيخ الطرق الصوفية في البلاد الشاب

الدروس الجُمُعِيَّة

إعداد الشيخ

الدكتور عبد العزيز الخطيب

الحسني الدمشقي الشافعي

نائب مشيخة الطرق الصوفية في البلاد الشامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدروس الجُمُعِيَّة

حقوق الطبع محفوظة لكل مسلم

الطبعة الأولى ٢٠١٨م

تطلب النسخة من المؤلف مباشرة

هـ ١٤٤٩/٨/٣٣٠٩

تمهيد

الحمد لله الذي زين قلوب أوليائه بأنوار الوفاق، وسقى أسرار أحبائه شراباً
لذيذ المذاق، وألزم قلوب الخائفين الوجل والإشفاق، فلا يعلم الإنسان في أيّ
الدواوين كُتب، ولا في أيّ الفريقين يُساق، فإن سامح فبفضله، وإن عاقب فبعده،
ولا اعتراض على الملك الخلاق.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل
شيء قدير، إله عزّ من اعتزّ به فلا يُضام، وذللّ من تكبرّ عن أمره ولقي الآثام.
وأشهد أن سيّدنا وحبيبنا وشفيعنا محمّداً عبدُ الله ورسوله، وصفيه من خلقه
وحبيبه، خاتم أنبيائه، وسيّد أصفیائه، المخصوص بالمقام المحمود، في اليوم
المشهود، الذي جُمع فيه الأنبياء تحت لوائه.

آياتُ أحمدَ لا تحُدُّ لواصف	ولو أنّه أُملي وعاش دهوراً
بشراكم يا أمة المختار في	يوم القيامة جنة وحريراً
فُضِّلتم حقّاً بأشرف مرسل	خير البرية بادياً وحضوراً
صلى عليه الله ربي دائماً	ما دامت الدنيا وزاد كثيراً

وعلى آله وأصحابه، ومن سار على نهجه، وتمسك بسنته، واقتدى بهديه،
واتبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ونحن معهم يا أرحم الراحمين.

وبعد:

فهذه مجموعة من دروس الجمعة، ألقيتها في جامع نور الدين الشهيد بعد حلقة الذكر، تعليقاً على أحاديث «التاج الجامع للحديث» لمؤلفه: منصور ناصف، وقمتُ بتنسيقها؛ ليستفيد منها كلُّ داعية إلى الله تعالى، يريد أن ينوع بين مواضيع الدروس لي جذب القلوب إليه، سائلين الله تعالى أن يحظى بالقبول، ونسأله سبحانه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

خادم السنة الشريفة

عبد العزيز الخطيب الحسني

دمشق

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: **إِنَّكُمْ تَقْرُؤُونَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾** [المائدة: ١٠٥]، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **«إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا ظَالِمًا فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ؛ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ»**.

روى الترمذي وابن ماجه: **«لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ إِذَا عَلِمَهُ»** لذلك شرع في الإسلام وظيفة المحتسب الذي يقوم على إزالة المنكر في الأسواق وفي المساجد والحمامات.

وقال أبو أمية الشَّعْبَانِيُّ: سألت أبا ثعلبة عن **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾** الآية، فقال: **أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْهَا خَيْرًا، سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «بَلِ اتَّمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شَحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤَثَّرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ؛ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعِ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجُمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ»**، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَجْرُ خَمْسِينَ مِثْلًا أَوْ مِنْهُمْ؟ قَالَ: **«بَلِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ»** رواهما الترمذي وأبو داود.

فيكون معنى الآية: إذا فعلتم ما كُلفتم به -من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- لا يضرُّكم فعل غيركم للمعصية.

وعلى الوالدَيْنِ أن يأمرَا بالمعروفِ بالوعظ والنصح، والضرب بعد العاشرة إلى سنِّ البلوغ، فإذا بلغ الولد فلا ضرب حينئذ، وعلى الولد أن يأمر والديه بالمعروف ما لم يغضب، فإذا غضب تركه، وليس معناه رفع الصوت والقول الغليظ الخشن، ويشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون عدلاً غير فاسق ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]، ويشترط في الأمر أن يكون:

١- عالماً بما يأمر وينهى عنه.

٢- وأن يأمن ألا يؤدي إنكاره إلى منكر أكبر.

٣- وأن يغلب على ظنه أن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر مؤثر في تحصيله، زاد بعضهم: أن نهيه مزيل له.

مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

١- التعريف: هذا حرام يا ولدي.

٢- النهي بالوعظ بلطف والتخويف بالله دون أن يبغى بذلك إذلال مرتكب المنكر؛ لأنَّ هذا مرض وقع فيه.

٣- السبُّ والتعنيف بالقول الغليظ الخشن، قال سيدنا إبراهيم: ﴿أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٦٧]، وليس السب بالفحش والكذب، بل يقول: يا فاسق، يا أحمق، يا جاهل؛ ألا تخاف الله.

٤- التعيير: عليه كسر الملاهي وإراقة الخمر.

٥- التهديد والتخويف بالضرب إن كان والدًا (لأضربنَّك إن لم ترجع عن المنكر)، ولا يهدده بوعيد لا يجوز تحقيقه (لأضربنَّ عنقك).

٦- مباشرة الضرب باليد، والحبس للقاضي.

٧- أن يستعين القاضي بالأعوان على إقامة شرع الله، ويحتاج إلى إذن الحاكم، دون أن يفعله لتحريك الفتن.

وهذه المراتب لا ينتقل العبد من واحدة إلى أخرى حتَّى يستوفي التي قبلها.

* * *

أنواع الخلاف

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام:

٦٥] هو هذه الصواريخ والطائرات، قال تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا﴾ [الأنعام:

٦٥] وفيه الحديث: «ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة، كلهم في النار إلا ما عليه أنا

وأصحابي»، وهم أهل السنة والجماعة، المرضي عنهم من أهل المذاهب الأربعة.

-الخلاف العقدي: أدّى إلى حبس الإمام أحمد وتعذيبه في قضية خلق القرآن.

-الخلاف العقدي: أدّى إلى قتل مئة ألف في الطواف من قبل في عهد محمد بن

عبد الوهّاب؛ بحجة أنّهم يتبرّكون بالقبور والأولياء، الخلاف يأخذ الآن منحى

الفساد في الأرض ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧].

-الخلاف السياسي: يجرّ الولايات على الأمم والشعوب.

قال صلّى الله عليه وسلّم: «هذا أهون وأيسر»؛ لأنّ الفتن بين الخلق وعذاب

بعضهم لبعض أهون من عذاب الله تعالى؛ لأنّ عذاب الله تعالى يذهب بالمدن كاملةً

ويقلبها رأساً على عقب.

-الخلاف الفقهي: رأيي صحيح يحتمل الخطأ، ورأيي غيبي خطأ يحتمل

الصحة، لذلك اتفقوا بـ ٧٥٪ من المسائل، والخلاف في الفروع فقط ٢٥٪ لا

تقتضي حرباً ولا قتالاً.

* * *

لا شفاعة للكافرين

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ أَزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِهِ أَزَرٌ غَبَرَةٌ وَقَتَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: لَا تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَغْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ؛ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي إِلَّا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ؛ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذَبْحٍ مُنْتَضِحٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ»، رواه البخاري في بدء الخلق.

لا محسوبة لأحد في الإسلام، وعمُّ النبي أبو طالب في النار، ولو أنَّ فاطمة بنت محمد سُرقت لقطع سيِّدنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدها، موقف أبي طالب من الدعوة وقرر أخيراً عدم النطق بالشهادتين ولو سرّاً، وآثر النار على العار بزعمه، «هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ».



رؤية الله تعالى

قَالَ مَسْرُوقٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُ مُتَكِنًا عِنْدَ عَائِشَةَ، فَقَالَتْ: ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ الْفِرْيَةَ عَلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، وَكُنْتُ مُتَكِنًا فَجَلَسْتُ فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ! أَنْظِرِينِي وَلَا تُعَجِّلِينِي، أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]؟! قَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ مَنْ سَأَلَ عَنْ هَذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّمَا ذَاكَ جِبْرِيلُ مَا رَأَيْتُهُ فِي الصُّورَةِ الَّتِي خُلِقَ فِيهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُهْبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمَ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

رواه مسلمٌ عن ابن عباس: «رَأَى رَبَّهُ بِفَوَّادِهِ مَرَّتَيْنِ»، وعلى هذا يمكن الجمع بين قولِي عائشة وابن عباس، إثبات ابن عباس ونفي عائشة، يحمل نفيها على رؤية البصر، وإثباته على رؤية القلب، الرؤية حصلت له، خلقت في قلبه كما تخلق الرؤية في العين لغيره، رواية أحمد: «رَأَيْتُ نَوْرًا»، وقالت عائشة: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ الْفِرْيَةَ عَلَى اللَّهِ» فَبَأَيِّ شَيْءٍ يَدْفَعُ قَوْلَهَا؟ قَالَ: بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَأَيْتُ رَبِّي»، «فتح الباري» (٦٠٩ / ٨).

روى الترمذيُّ وعبد الرزاق: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّا بَنُو هَاشِمٍ نَقُولُ: «إِنْ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ مَرَّتَيْنِ، وَإِنَّ اللَّهَ قَسَمَ رُؤْيَيْتَهُ وَكَلَامَهُ، فَكَلَّمَ مُوسَى مَرَّتَيْنِ، وَرَأَى مُحَمَّدًا

مرّتين»، هذا سبب دخول مسروق على عائشة، وسألها فقالت: لقد قَفَّ شعري، أي: (قام من الفزع).

النووي يقول: لم تنفِ عائشة وقوع الرؤية بحديث مرفوع، ولو كان معها لذكرته، وقد خالفها غيرها من الصحابة، والصحابي إذا قال قولاً وخالفه غيره منهم لم يكن ذلك القول حجة اتفاقاً.

والمراد بالإدراك في الآية: الإحاطة، وذلك لا ينافي الرؤية، النفي لا يوجب علماً، وإنّما تأوّلت الآية، وإذا جازت الرؤية في الآخرة جازت في الدنيا؛ لتساوي الوقتين لدى المرئي.

قال مالك: إنّما لم ير سبحانه في الدنيا؛ لأنّه باقٍ، وبالباقى لا يُرى بالفاني، فإذا كان في الآخرة ورزقوا أبصاراً باقية؛ رأوا الباقي بالباقي.

روى مُسلم: «واعلموا أنّكم لن تروا ربكم حتّى تموتوا»، فإن جازت الرؤية في الدنيا عقلاً؛ فقد امتنعت سمعاً، لكن من أثبتّها للنبي صلى الله عليه وسلّم له أن يقول: إنّ المتكلم لا يدخل في عموم كلامه.

عائشة وابن مسعود: نفيا الرؤية.

روى عبد الرزّاق عن معمر عن الحسن: أنّه حلف أنّ محمّداً رأى ربّه.

كان عروة بن الزبير يشتدُّ عليه إذا ذُكر له إنكار عائشة، وجزم به جماعة، وهو قول الأشعري وغالب أتباعه.

قال ابن عباس: أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد؟! رواه النسائي.

عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور، أنى أراه؟!»، رواه مسلم في الإسرائاء، والترمذي في النجم.

رؤية الله تعالى جائزة عقلاً ونقلاً، عقلاً؛ لأن الله تعالى موجود، وكل موجود يصح أن يرى، فالله تعالى يصح أن يرى، ونقلاً: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ (٢٢) إلى ربها ناظرة ﴿[القيامة: ٢٢، ٢٣]، والسيدة عائشة كانت صغيرة في يوم المعراج؛ لذا نفت الرؤية، أما ابن عباس وغيره من الصحابة فقد أثبتوها، وما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس، والمثبت مقدم على النافي، لكن بلا كيف ولا أعضاء، بلا كيف بصورة ومقابلة وجهة، إن مولانا علق الرؤية لسيّدنا موسى بشيء جائز عقلاً؛ وهو استقرار الجبل، فقال: ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

انتبهوا: لو لم تكن الرؤية لله تعالى جائزة؛ لما سألها سيّدنا موسى؛ لأنه نبي يعلم ما يجب في حق الله تعالى، وما يجوز، وما يستحيل؛ إذ لا يجوز على أحد من الأنبياء الجهل بشيء من أحكام الألوهية.

اسمعوا الإمام مالكا ماذا يقول: لما حجب أعداءه فلم يروه ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] تجلّى لأوليائه حتى رأوه، ولو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يُعير الكافرون بالحجاب.

لا يُرى رؤيا إحاطة فنحصره بنهاياتٍ وحدود، أمّا في المنام فإنّه يُرى؛ لأنّ
الشیطان لا يتمثّل به تعالى كالأنبياء، الإمام أحمد رآه، والإمام أبو حنيفة رآه، بل
كان عليه السلام يراه كلّما راجعه ليلة المعراج، تتكرر مُشاهدة الأنوار، فكان يقتبس
النور، ففي كلّ مرّة يزداد نورًا.



خروج الدابة

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَمْ يَنْفَعْ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ: الدَّجَالُ، والدَّابَّةُ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ، أَوْ مِنَ مَغْرِبِهَا».

روى الترمذي في الصحيح: «الدجال يخرج في أرضٍ بالشرق يقال لها: خراسان، ومن قرية يقال لها: أصبهان» (على الحدود الروسية الإيرانية).

رواه مسلمٌ وأحمد: «يَتَّبِعُ الدَّجَالُ مِنْ يَهُودِ أَصْبَهَانَ سَبْعُونَ أَلْفًا عَلَيْهِمُ الطَّيَالِسَةُ»، يكون خروجه لغضبة يغضبها - (كما في مسلم) - تُطْلَقُهُ مِنْ حَبْسِهِ فِي الدَّيْرِ وَتَفْكَ قِيودَهُ، ظهر دجاجة كثيرون على الساحة الإسلامية، وعلامات الساعة ما رواه أحمد: «كَخَرَزَاتٍ مَنْظُومَاتٍ فِي سِلْكِ، فَانْقَطَعَ السِّلْكُ، فَيَتَّبِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا» الآيات كلها في ستة أشهر، عند أبي هريرة: في ثمانية أشهر.

بعد الفساد المستطير وتكشُّفِ العورات يخرج الله تعالى دابةً في الأرض وجهها وجه إنسان، لها ريش وزغب وقوائم، تخرج في الصفا أو المروة، في ليلة جمع، والناس سائرون إلى منى، رواه أحمد، والترمذي، والبيهقي - قيل: تكون الجساسة صاحبة الدجال - تكلم الناس، وتسم الوجوه؛ فيضيء وجه المؤمن منها، ويظلم وجه الكافر، تصيح في الحرم صيحة عظيمة يفرق عنها الناس، ويشتت المؤمنون، حتَّى إن الرَّجُلَ ليعوذ منها في الصلاة.

روى ابن ماجه: «معها عصا موسى وخاتم سليمان» ويصيح الخطاب منافق وكافر.

بدأت بداية النهاية نهاية العالم الذي سيكون فيه التأيد لكل مسلم محمدي، لكل مؤمن من أمة محمد، النهاية لنا، العبرة لنا، فمن كان منحرفاً عن الجادة اليوم؛ فليعد، فإن الوقت قصير، اركبوا معنا في سفينة التوحيد قبل أن تغرقوا في مستنقع لا قرار له ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨].

روى أحمد: «لا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من مغربها».



جَنَّةُ الْخُلْدِ

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصْحُوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعْمُوا فَلَا تَبْتَسُوا أَبَدًا» فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ.

الجنة دار المؤمنين ومنازل المتقين، جعلها الله محلاً لكرامته، ومنزلاً لأهل سعادته ممن مات على الإيمان والعمل الصالح.

توسع القرآن في ذكر أوصافها، وبيان فضلها، وشرح أصناف النعيم فيها؛ ترغيباً في نيلها، وشحذاً للهمم في طلبها، حتى كأنهم يرونها رأي العين، فذكر الحق درجاتها وأبوابها، وطعام أهلها وشرابهم، وأنواع مياههم وأنهارهم، وبين لباسهم وحليهم في وصف يتقاطر روعةً وجمالاً.

فما ثمن دخول الجنة؟ إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١] فما الثمن والمقابل؟ ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ [التوبة: ١١١]، وفي آية أخرى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] فالثمن هو التقوى.

عقيدتنا أن الجنة موجودة مخلوقة، والدليل: قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه: «إني رأيت الجنة» أين رآها؟ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ [النجم: ١٣ - ١٥] سدرة المنتهى: شجرة على رؤوس حملة العرش، إليها ينتهي علم الخلائق، ثم ليس لأحد وراءها علم، ولذلك سميت سدرة المنتهى؛ لانتهاه العلم إليها.

وقال الإمام مجاهد: الجنة في السماء.

اسمعوا أسماؤها وتلذذوا بها: الجنة - دار السلام - دار الخلد - جنات عدن - الفردوس - جنات النعيم - المقام الأمين - مقعد صدق، أسما ذكرها الله تعالى للتشويق إليها.

والجنة لها أبواب لأهل الايمان؛ بدليل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] وفي الحديث المتفق عليه: «إن في الجنة ثمانية أبواب».

والجنة درجات: «إن في الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والارض»، وفيها: ربض الجنة، وسط الجنة، الفردوس الأعلى.

واسمعوا أنواعها كما ذكرها القرآن: ﴿وَلَمَّا خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦] ﴿وَمِنْ دُونِهَا جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٦٢] ﴿لَهُمْ غُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ﴾ [الزمر: ٢٠] ﴿وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، وحيبك النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إن في الجنة غرفاً يرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها» فقال

أعرابي: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام».

الجنة يا إخوة ﴿فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]
﴿جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [آل عمران: ١٩٨] ﴿أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ
وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾
[محمد: ١٥] طعامهم الفاكهة واللحم ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾
[الطور: ٢٢] ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكِينٍ فِيهَا عَلَى
الْأَرَائِكِ﴾ [الكهف: ٣١].

تعالوا ندخل خيمة من خيم الجنة: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة
مجوفة، طولها ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى
بعضهم بعضاً» رواه مسلم، ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤]
أتعرفون لم سميت حوراء؟ لأن الطرف يحار في النظر؛ من رقة الجلد، وصفاء
اللون، وشدة سواد العين مع بياضها ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا بَآنٌ﴾ [الرحمن:
٥٦] أبكار لم يوطأن، ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا
مَنْثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩].

واسمع إلى غنائهم في الجنة: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي
رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥] الحبرة: اللذة والسماع، «يرفعن بأصوات لم تسمع
الخلائق بمثلها، يُغْنَيْن: نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن
الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكنا له» رواه الترمذي.

وأعلى نعيم في الجنة رؤية مولانا عز وجل، ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ إلى ربّها
نَاضِرَةٌ ﴿[القيامة: ٢٢، ٢٣] فخذوا العهد بعضكم على بعض أيها الأخوة،
وأمسكوا بعضكم بأيدي بعض، وقولوا: ليأخذ الناجي منا بيد أخيه يوم القيامة.

* * *

رؤية الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

استدل العلماء على رؤية الله تعالى بهذه الآية؛ لأنَّ الله تعالى علَّقها على شيء جائز، وهو استقرار الجبل، والاستدلال الثاني: لو كانت الرؤية ممتنعة في الدنيا لما سأها سيِّدنا موسى عليه السلام؛ لأنَّه يعلم ما يجب في حقِّ الله تعالى وما يستحيل وما يجوز؛ إذ لا يجوز على أحد من الأنبياء الجهل بشيء من أحكام الألوهية، لكنه سأها موسى، فدلَّ على أنَّها جائزة، وبمناسبة تفضيل الأنبياء بعضهم على بعض فإنَّ الراجح عند العلماء أنَّ سيِّدنا مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى رَبَّهُ بعيني رأسه وهما في محلِّهما، خلافاً لمن قال: حُولا إلى قلبه؛ لحديث ابن عباس، وكان عليه الصلاة والسلام يراه في كلِّ مرَّةٍ يراجعهُ، ومن كلام ابن وفا: إنَّما كان ترجيع موسى للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شأن الصلوات ليتكرر مشاهدة أنوار المرَّات، وأنشد يقول:

والسرُّ في قول موسى إذ يراجعهُ ليحتلي النورَ منه حيث يشهده
يبدو سنَّاه على وجه الرسول فيا لله حُسْنُ رسولٍ إذ يردُّده
فالحكمة الباطنية: اقتباس النور من وجهه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففي كلِّ مرَّةٍ يزداد نوراً، والحكمة الظاهرية: تخفيف الصلاة.

واختلف في وقوعها للأولياء على قولين للأشعري؛ أرجحهما: المنع، فمن ادعاها في الدنيا يقظةً؛ فهو ضالٌّ بإطباق المشايخ، فإن ادعاها أحدٌ من المعتبرين أمكن تأويله بتقلبات الأحوال؛ بجعل الغائب كالشاهد، وعليه يحمل كلام ابن الفارض:

وإذا سألتك أن أراك حقيقةً فاسمح ولا تجعل جوابي: لن ترى
وأباح طرفي نظرة أمّلتها فغدوت معروفًا وكنت منكراً

* * *

التفضيل بين الأنبياء

عن أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ لَطَمَ وَجْهَهُ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ مِنَ الْأَنْصَارِ لَطَمَ وَجْهِي، قَالَ: «ادْعُوهُ»، فَدَعَوْهُ، قَالَ: «لَمْ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنِّي مَرَرْتُ بِالْيَهُودِيِّ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ، فَقُلْتُ: وَعَلَى مُحَمَّدٍ؟، وَأَخَذْتَنِي غَضَبَةً، فَلَطَمْتُهُ، فَقَالَ: «لَا تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِي بِصَعْقَةِ الطُّورِ؟!» رواه الثلاثة.

رواية البخاري ومسلم: «لا تفضلوا بين أنبياء الله»، روى البخاري: «من قال: أنا خيرٌ من يُونس بن متى؛ فقد كذب» وهو محمول على تفضيلٍ يؤدي إلى تنقيص الأنبياء، وإنما قاله تواضعًا وتأدُّبًا، وهو القائل: «أنا سيِّد ولد آدم ولا فخر» رواه الترمذي، وأفضل الخلق على الإطلاق نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



فطرة التوحيد

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

في «التفسير المنير» الآية (١٧٢-١٧٤): اختلف العلماء في هذه الآية على رأيين: رأي السلف ورأي الخلف، قال السلف من المفسرين: إِنَّ الله تعالى خلق آدم فأخرج من ظهره ذريته كالذرّ، وأحياهم، وجعل لهم عقلاً وإدراكاً، وألهمهم ذلك الحديث وتلك الإجابة، وأخذ عليهم العهد بأنّه ربُّهم، فأقروا بذلك...، وكلُّ من روى ذلك لا يخلو من ضعف وانقطاع، وقال به جماعة من الصحابة.

وأما الخلف فقالوا: هذا من قبيل التمثيل والتصوير والمجاز والاستعارة؛ يعني: أَنَّ الله تعالى قد أقام الأدلة الكونية على وحدانيته وربوبيته للكون كلّ...، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم، وهذا كالإشهاد عليهم أنفسهم: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ فقالوا: بلى، وهذا اختاره بعض المفسرين؛ منهم الإمام الرازي وقال: لا طعن فيه ألبتّة.

وقال ابن كثير: نعم؛ خير الله تعالى أهل الجنة وأهل النار، أمّا الإشهاد عليهم هناك بأنّه ربُّهم؛ فهو في حديث ابن عبّاس وابن عمرو فقط، وهما موقوفان لا مرفوعان؛ ولهذا قالوا: إِنَّ هذا الإشهاد إنّما هو فطرُهم على التوحيد، والدليل أنّه قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ...﴾، ولم يقل: آدم، ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾، ولم يقل:

من ظهره، ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ جيلاً بعد جيلٍ، ﴿وَأَشْهَدُهُمْ﴾ بالحال، وبما فطروا عليه من التوحيد، شاهدين على أنفسهم، وكذلك «كُلُّ مولودٍ يولد على الفطرة، فأبواه...».

فيه تعظيمٌ للرسول بتوجيه الخطاب له، ﴿رَبُّكَ﴾ فيها تشريف وتكريم، حين ﴿أَخَذَ﴾ أي: أخرج، ﴿بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا﴾ الإِشهاد لئلا تقولوا -أيها الكُفَّار- عن هذا التوحيد: كُنَّا غافلين لا نعرفه، ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: من آدم نفسه، كما ثبت في الخبر: «استخرج من بني آدم ذريتهم أو سلالتهم، وخلقهم على فطرة التوحيد قائلاً لهم -قول إرادة وتكوين، لا قول وحي وتبليغ-: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ فقالوا بلسان الحال لا بلسان المقال: بلى أنت ربُّنا المستحق وحدك للعبادة، حتَّى لا يقولوا: إنَّك لم تنبهنَّا إليه، خلقَ الناس على فطرة التوحيد، فقرر في غير ما آية: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وفي الحديث المتفق عليه: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ...»، وروى مُسلمٌ: «خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم».

الفطرة هي دين الاسلام، والآية القرآنية تبين ذلك بوضوح، ومعناها: سدّد وجهك، واستمر على إخلاصك، واثبت على هذا الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية السمحة؛ ملة سيدنا إبراهيم التي هداك الله لها، وكمَّلها غاية الإكمال، ﴿حَنِيفًا﴾ يعني: مائلاً عن الأديان كلها إلى الإسلام، فكل مولود يولد على فطرة التوحيد، وعلى معرفة الله وأنه لا إله غيره.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] أي: لا تبدّلوا خلق الله، ولا تحرفوا الناس عن فطرتهم، والدليل: آيتان في كتاب الله:

الأولى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

والآية الثانية: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩].

فهاتان الآيتان تدلان على أن الدين الحنيف هو الفطرة التي فطر الناس عليها. قال العلماء: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: بقوا عشرة قرونٍ على الدين الحق قبل حدوث التغيير وظهور الشرك، ثم طرأ الشرك بعد ألف سنة من وجود البشرية على هذه الأرض، والله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق، تمامًا كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمسموعات والمرئيات، وبذلك الأهلية أدركت الحق.

وقد ضرب الله لنا مثلاً للفطرة السليمة بالزيت الصافي النقي الذي يشع نوراً من صفائه، فإذا أوقد به السراج؛ التقى فيه النوران، فأصبح نوراً على نور، هذا السراج هو نور الوحي، والنور الأول هو نور الفطرة.

هل أدركتم عظيم رحمة الله بنا وفضله إذ قذف في قلوبنا هذا النور، ثم أمر بنور آخر هو نور الوحي؟ ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]، ويتبع ذلك أن الله فطرهم على حب التنظيف والتطهر، وحسن الهيئة والسمت، وغير ذلك؛ لذلك

روى البخاري ومسلم عنه صلى الله عليه وسلم: «الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط»، وفي رواية مسلم: «عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء» أي: الاستنجاء، قال الراوي: والعاشر: المضمضة، والبراجم: عقد الأصابع ومفاصلها، وقيسوا عليها ما يجتمع من الوسخ في معاطف الأذن، وهو الصباخ؛ لأنه ربما أضرت كثرته بالسمع، وكذا ما يجتمع داخل الأنف.

هذه السنن التي فطر الله الناس عليها من جملة ما أنعم الله به على الإنسان، ولا يخالفها إلا من فسدت فطرته.



التوحيد

الأعراف من أطول السور المكية، بيّنت أبوة آدم، والناس من أبٍ واحد، وأثبتت التوحيد والاعتراف بحقه وحده في التشريع، والتحليل والتحريم.

* * *

عن سمرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَمَّا حَمَلَتْ حَوَاءُ طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ، وَكَانَ لَا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ، فَقَالَ: سَمِيهِ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَسَمَّيْتُهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَعَاشَ ذَلِكَ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ»، رواه الترمذي والحاكم وصححه.

(ضعيف) بدأت السورة بالتوحيد، ثم ختمت بالكلام على التوحيد، ما السبب؟ لترسيخ العقيدة بوجود الله تعالى ووحدانيته والامتناع عن الشرك.

تكلّمت الآية على ثمرة الزواج بين المرأة والرجل؛ وهو الأولاد، حلف الزوجان: ﴿لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا﴾ (ولدا صالحا) سوياً كامل الخلق؛ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، ربُّ العزة يقول: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا﴾ ما طلبا، ورزقهما ولدا صالحا سوياً كامل الخلق؛ ﴿جَعَلَا﴾ الزوجان ﴿لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ وتعاضم وتنزه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠]، وينسبون له من الولد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣].

بعض المفسرين نسبوا الآية لسيدنا آدم وحواء، ومنه هذه الرواية للترمذي والحاكم، وهو حديث لا يحتج به؛ لأنه ضعيف، وهناك إسرائيليات مثله لا ثبات لها، ولا يعول عليها، ولا تليق بالأنبياء، أمّا الآخرون من أهل التفسير؛ فقالوا: المراد بها بعض أولادهما من اليهود والمشركين، وهذا يؤيده ابن كثير والرازي، فالمراد بها ذرية آدم وحواء؛ ولهذا جاءت الآية بالجمع ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ولو كان المراد آدم وحواء لقال: فتعالى الله عما يُشْرِكُكَان، فتحصّل: أنّ ذرية آدم هم الذين أشركوا، فأهل الطبيعة ينسبون الولد إلى الطبيعة، وأهل الفلك ينسبون الولد إلى النجوم والكواكب، وعبداء الأصنام ينسبون الولد إلى الأصنام، اسمعوا ماذا سمّي قضي القرشي أولاده الأربعة: عبد مناف- عبد العزى- عبد قصي- عبد اللات.

إنّ الله تعالى ينكر على المشركين الذين عبدوا مع الله الأنداد والأصنام والملوك والأمراء؛ لا تملك سمعاً ولا بصرًا، ولا تضر ولا تنفع، ولا تنصر عابدها، إنّ ربّاً هذه صفته لا يصلح أن يكون ربّاً ولا إلهًا ولا معبودًا، إنّما الربُّ المعبود هو السميع البصير، النافع لمن يعبدّه، الضارُّ لمن يعصيه؛ لذلك من صفات الله تعالى التي يجب اعتقادها: الوحدانية...، عليك أن تعترف أنّه واحد في ذاته، واحد في صفاته، واحد في أفعاله؛ لذا كررها ربُّ العزّة في كتابه ٣٧ مرّة: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر: ٢٢].

* * *

الغنائم والأسرى

(سورة الأنفال)

هذه السورة نظمت قواعد السّلم والحرب للمسلمين، فسورة البقرة حاججت اليهود، وسورة آل عمران حاججت النصارى، والمائدة حاججت الفريقين، والنساء والتوبة جادلت المنافقين وذكرت أحكامهم.

الأنفال: غنائم الحرب...، لما قامت معركة بدر لم يكن حكم غنائم الحرب قد نزل، فلما نزل حكمها ووقعت السيف للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أعطاها لسيّدنا سعد، فسيّدنا سعد بن أبي وقاص قتل سعيد بن العاص وأخذ سيفه، واستوهبه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمنعه إياه، فلما نزلت الآية أعطاه إياه؛ لأنّ الأمر كلّهُ إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإحلال الغنائم كرامةٌ لهذه الأُمَّة المحمّدية وخصوصيّة لها: «أُعْطِيتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي»، الأنفال لله تعالى أوّلاً يحكم فيها بما يريد، ثم للرسول الكريم يقسمها بينهم كما أمر الله تعالى، فأمرها مفوضٌ لله ورسوله، وهذه الآية محكمة بيّنتها آية أخرى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ...﴾ [الأنفال: ٤١]، وبدر كانت ليلة ١٧ رمضان شاركت فيها الملائكة ﴿مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] (متتابعين) وعدهم مولانا أوّلاً بألف من الملائكة، ثم صارت ثلاثة آلاف، ثم خمسة كما في (آل عمران) كثر الله تعالى بهم المسلمين، فنزل سيّدنا جبريل على الميمنة مع سيّدنا أبي بكر في ٥٠٠ ملك،

ونزل ميكائيل بـ ٥٠٠ على الميسرة مع سيّدنا علي، نزلوا في صورة الرجال عليهم ثياب بيض، وعمايم بيض، قد أرخوا عَدَبَتَهَا بين أكتافهم، وهذا مروئي عن ابن عبّاس بأسانيد صحيحة.

وعَلَّمَ اللهُ تَعَالَى الْمَلَائِكَةَ كَيْفِيَةَ الْحَرْبِ: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢] (أي: الأطراف) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ١٣] عادوهما وخالفوهما، فكانوا هم في شق، والشرع وأتباعه في شق آخر، ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ١٣] ويعاديهما؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعَدَّ لَهُمُ الْخِزْيَ فِي الدُّنْيَا وَالْعَذَابَ الشَّدِيدَ فِي الْآخِرَةِ، ومن جهل أبي جهل أَنَّهُ دَعَا عَلَى نَفْسِهِ قَبْلَ الْمَعْرَكَةِ: اللَّهُمَّ أُولَانَا بِالْحَقِّ فَانصُرْهُ...، فهزم الله تعالى المشركين، وَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا، وَأُسِرَ سَبْعُونَ رَجُلًا مِنْهُمْ، ذكره الرازي وابن كثير، وانتبهوا إلى سبب من أسباب النصر؛ وهو الدعاء: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] حَتَّى اشْتَدَّ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، وَقَالَ لَهُ: كَفَى مَنَاشِدَتَكَ رَبِّكَ! هَذَا هُوَ الْوَرْدُ فِي هَذَا الْأُسْبُوعِ.

* * *

عذاب الأمة

عن ابن عباس رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُنْشِدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِن شِئْتَ لَمْ تُعَبِّدْ»، فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: حَسْبُكَ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونِ الدُّبْرَ﴾ [القمر: ٤٥] رواهما البخاري في غزوة بدرٍ.

عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ أَمَانَيْنِ لَأُمَّتِي: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] إِذَا مَضَيْتُ تَرَكْتُ فِيهِمُ الْإِسْتِغْفَارَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، رواه الترمذي.

عذاب عام وعذاب خاص، والمقصود من الآية العذاب الذي يستأصل الأمة عن بكرة أبيها، وما كان الله تعالى ليستأصل الأمة بالعذاب ونبيها والمؤمنون بينهم؛ بحرمة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكرامة أهل الإيمان، أمّا العذاب الخاص كالمرض والحرب والفقر؛ فهذا واقع لمعصية الأمة.

العذاب إذا نزل عمًّا، هذه الآيات يخبرنا مولانا عن حقبة من تكذيب كفار قريش وعتوهم وتمردهم وعنادهم وادعائهم الباطل؛ أَنَّ هذا القرآن أساطير الأولين، فلو كان حقًّا لأنزل عليهم حجارة أو العذاب الأليم، يريدون إنكار كونه حقًّا منزلًا من عند الله تعالى، ويفضلون الهلاك على اتباع الحق، وهم يتكلمون على

القرآن أنّه حق، وذلك غاية الجحود والإنكار، وهو مثلٌ من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم، ومثلٌ من حماقتهم حين طالبوا بتعجيل العذاب وتقديم العقوبة.

إنَّ الله تعالى يخبرنا عن سبب إمهالهم بالعذاب؛ وهو وجود سيّدنا محمّد بينهم رحمةً للعالمين، هم أهل للعذاب، ولكنَّ الله تعالى لم يوقعه بهم؛ لبركة مقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بينهم، وكذلك التمسك بالسُّنة سبب في رفع العذاب، والتمسك بالإسلام سبب في دفع العذاب.

* * *

أسارى بدر

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ بَدْرٍ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ: مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأُسَارَى؟! فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ؛ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً، فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَنَا فَضْرِبَ أَعْنَاقِهِمْ، فَتُمْكِّنَ عَلَيْنَا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمْكِّنَنِي مِنْ فُلَانٍ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أُمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا، فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قَالَ عُمَرُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ؛ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ؟! فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِلَّا تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخَذِهِمُ الْفِدَاءَ، لَقَدْ عَرَضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَذْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ»، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الْآيَاتِ الثَّلَاثَ [الأنفال: ٦٧ - ٦٩]، رواه مسلم في الجهادِ والترمذي.

اختار صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأيَ الصديق؛ لما فيه من الرأفة والرحمة اللتين جُبِلَ عليهما، وبعض العلماء وقف موقفًا خاطئًا من أسرى بدر، وبنوا عليه أَنَّ الرسول

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطِئُ وَيَصِيبُ فِي اجْتِهَادِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَقْرَهُ عَلَى خَطْئِهِ،
فَيَنْزِلُ الْوَحْيَ مُصَحِّحًا لَهُ، وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ رَدٌّ عَلَيْهَا عِلْمَاءُ الشَّامِ، وَيَبْنُونَ خَطَأً مَنْ قَالَ
ذَلِكَ، وَأَنَّ النَّبِيَّ مَعْصُومٌ عَنِ الْخَطَأِ بِعَصْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ، أُرِيدُكُمْ أَنْ تَنْتَبَهُوا إِلَى أَنَّهُ
لَيْسَ هُنَاكَ قَوْلٌ لَصَحَابِي أَوْ تَابِعِي أَوْ أَحَدِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ يَقُولُ: إِنَّ النَّبِيَّ أَخْطَأَ فِي
أَخْذِهِ الْفِدَاءِ، وَالْأَدْلَةُ كَثِيرَةٌ:

١- عمل بمشورة الصحابة تنفيذًا للآية ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

٢- جنح للفداء؛ لَأنَّه نبي الرحمة، وهو القائل: «إِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً».

٣- قضى موافقة للقضاء الإلهي من أَنَّ الغنائم ستحلُّ لهذه الأمة خاصة:
«وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ» رواه البخاري.

٤- التشريع نزل لإحلال الغنائم: ﴿فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال:
٦٩]: هذا إقرار لما فعله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتصويب لما رآه.

٥- ماذا سيكون موقف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو أَنَّهُ ضرب أعناق
الأسرى، ثم جاء الشرع بقبول الفداء من الأسرى؟ لكن الحبيب تريث في القتل،
فكان تريثه عين الحكمة، وهو الصواب؛ لذا أقرَّه الله سبحانه.

٦- لو كان أخذ الفداء خطأ؛ لما أقرَّه عليه مولانا في الغزوات التي قبلها في
رجب، لما قُتِلَ عمرو بن الحضرمي، فَإِنَّهُ فَادَى أَسِيرِينَ لِقَرِيشٍ كُلِّ وَاحِدٍ بِأَرْبَعِينَ
أَوْقِيَّةً فِي قِصَّةِ الْآيَةِ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ

تُرِيدُونَ... ﴿[الأنفال: ٦٧]﴾ فيا عتباً على من أشار على النبي بالفداء أو بأخذ الأسرى بغية عَرَضَ الحياة الدنيا؛ وهو المال.

أما سيدنا محمد فما شاء يوماً أن يبغى عرض الحياة الدنيا، فإنّها لا قيمة لها عنده، انتبهوا إلى الآية: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ إذن الأسر كان مشروعاً، ولكن بشرط الإثخان في الأرض، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَثْخَتَّمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ...﴾ [محمد: ٤] هذه الآية نزلت قبل الأنفال - في سورة محمد - فحكم الأسرى كان موجوداً، ولكن بعد الإثخان؛ وهو القتل والتخويف الشديد.

علينا أن نعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخطئ، ولو أخطأ؛ لأمره الله تعالى برد الفداء وقتل الأسرى، هذه الدعوى (أي: النبي يخطئ) يعني: أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغ الشريعة من اجتهاده الشخصي من دون وحي، وهذا باطل عقلاً ونقلاً.

الاجتهاد يعني وقوع الخطأ، والنبي واجب اتباعه، إذا لوجب علينا اتباع الخطأ، وهذا أمر باطل؛ لأنّه معصوم عن الخطأ، ولا يقال: إن الله تعالى لا يقره على الخطأ، وإنّه يبينه له سريعاً، هذا باطل، ولا يجوز في حق الرسول أن يبلغ حكماً ثم يقول للناس: إن ذلك الحكم خطأ؛ لأنّه من عندي، والصواب هو كذا... ما هذا الكلام؟!.

* * *

ترتيب القرآن

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قُلْتُ لِعُثْمَانَ رضي الله عنه: مَا حَمَلَكُمْ أَنْ عَمَدْتُمْ إِلَى الْأَنْفَالِ وَهِيَ مِنَ الثَّانِي، وَإِلَى بَرَاءَةَ وَهِيَ مِنَ الْمِثْنِ، فَقَرَنْتُمْ بَيْنَهُمَا، وَلَمْ تَكْتُبُوا بَيْنَهُمَا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَوَضَعْتُمُوهَا فِي السَّبْعِ الطُّوْلِ؟ مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟ فَقَالَ عُثْمَانُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا يَأْتِي عَلَيْهِ الزَّمَانُ وَهُوَ تَنْزِلُ عَلَيْهِ السُّورُ ذَوَاتُ الْعَدَدِ، فَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ دَعَا بَعْضُ مَنْ كَانَ يَكْتُبُ فَيَقُولُ: ضَعُوا هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، وَإِذَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ فَيَقُولُ: ضَعُوا هَذِهِ الْآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، وَكَانَتْ الْأَنْفَالُ مِنْ أَوَائِلِ مَا أُنْزِلَ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ بَرَاءَةُ مِنْ آخِرِ الْقُرْآنِ، وَكَانَتْ قِصَّتُهَا شَبِيهَةً بِقِصَّتِهَا، فَظَنَنْتُ أَنَّهَا مِنْهَا، فَقَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا أَنَّهَا مِنْهَا؛ فَلِذَلِكَ قَرَنْتُ بَيْنَهُمَا، وَلَمْ أَكْتُبْ بَيْنَهُمَا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَوَضَعْتُهَا فِي السَّبْعِ الطُّوْلِ، رواه الترمذي.

فترتيب القرآن توقيفي؛ بمعنى: أن الذي رتبهُ الوحي أو رسول الله، وهذا الترتيب كان يُقرأ كل سنة بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسَيِّدِنَا جَبْرِيلَ، حَتَّى فِي آخِرِ سَنَةِ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقُرْآنَ مَرَّتَيْنِ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ حَتَّى آخِرُ آيَةِ نَزَلَتْ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١] قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ضَعُوا هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى رَأْسِ ثَمَانِينَ وَمِئَتِي آيَةٍ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ» فترتيب السورتين هكذا في

المصحف، وقُبِضَ رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم ولم يوصل بينهما، فهما سورتان منفصلتان مستقلتان، وللتشابه بين السورتين دُعيتا القرينتين، فقد نزلتا في القتال، وفي أحكام السلم والحرب، وفي الترغيب في إنفاق المال في سبيل الله تعالى، وبيان أوضاع المنافقين، احفظوا ما يلي:

١- (سورة التوبة) آخر ما نزل من سورة القرآن في السنة التاسعة من الهجرة سنة غزوة تبوك التي خرج رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم فيها لغزو الروم، فكانت بلاءً للمؤمنين، وافتضحاً لنفاق المنافقين، روى البخاري عن البراء بن عازب: آخر سورة نزلت براءة.

٢- ترتيب القرآن توقيفي، رتبته الله تعالى، وبلغ ترتيبه رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم.

٣- أول سورة نزلت بعد الهجرة الأنفال.

* * *

القرارات الأخيرة

عن عمرو بن الأَخوصِ رضي الله عنه: أَنَّهُ شَهِدَ حَجَّةَ الْوَدَاعِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَذَكَرَ وَوَعَظَ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ يَوْمٍ أَحْرَمُ؟ أَيُّ يَوْمٍ أَحْرَمُ؟ فَقَالَ النَّاسُ: يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ؛ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، أَلَا لَا يَجْنِي جَانٍ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ، لَا يَجْنِي وَالِدٌ عَلَى وَلَدِهِ وَلَا وَلَدٌ عَلَى وَالِدِهِ، أَلَا إِنَّ الْمُسْلِمَ أَخُو الْمُسْلِمِ، فَلَيْسَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ إِلَّا مَا أَحَلَّ مِنْ نَفْسِهِ، أَلَا وَإِنَّ كُلَّ رَبَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ -لَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ- غَيْرَ رَبِّ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ، أَلَا وَإِنَّ كُلَّ دَمٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ دَمٍ وَضِعَ مِنْ دِمَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ دَمُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، كَانَ مُسْتَرَضَعًا فِي بَنِي لَيْثٍ فَقَتَلَتْهُ هَذِيلٌ، أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ، لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ، وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا، أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ؛ فَلَا يُوطِئَنَّ فُرْشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ، وَلَا يَأْذَنَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ، أَلَا وَإِنَّ حَقَّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ»، رواه الترمذي ومسلم.

رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاطبكم من خمسة عشر قرنًا من الزمان، وقف في عرفة يخاطب الأجيال والتاريخ، بعد أن أدى الأمانة ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده ثلاثة وعشرين عامًا، وتشهد عرفة لأول مرة دولة الإيمان، وهاهو ينظر من خلال هؤلاء إلى أمته؛ إلى العالم الإسلامي الذي سيملا الأرض شرقًا وغربًا، وأنصتت الدنيا لتسمع إلى سيد الخلق وحبيب الحق، أنصت كل شيء في الوجود إلى الكلمة المودعة ينطق بها فم النبوة، بعد أن أنست وسعدت به الدنيا كلها ثلاثة وستين عامًا هاهو يتوجه بنود وقرارات أخيرة يلقي بها إلى سمع العالم الإسلامي:

القرار الأول: حرمة الدم البشري، وكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كشف الله تعالى له الحجب عن أمته، فرآهم وهم يتقاتلون، ويقتل بعضهم بعضًا، فنهى عن القتل نهياً جازماً لا شك فيه.

القرار الثاني: حرمة الربا، فالله تعالى لم يتوعد أحداً بالحرب إلا آكل الربا، ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول: «الربا سبعون باباً أهونها مثل أن ينكح الرجل أمه» و«إن الدرهم الذي يصيبه الرجل من الربا أشد من ست وثلاثين زنية في الإسلام» (رواه أحمد)، وفي «صحيح البخاري»: «أكل الربا يعذب من حين يموت إلى يوم القيامة بالسباحة في النهر الأحمر الذي مثل الدم، ويلقم حجارة من نار كما ابتلع الحرام الذي جمعه في الدنيا...».

القرار الثالث: القضاء على ظلم المرأة، كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبلغ دعوته وربيعه بن أمية خلفه يبلغ الناس في عرفات، والناس منصتون كأن على رؤوسهم الطير...: المرأة أسيرة الزوج وأسيرة الأب... لا تخرج من بيتها إلا بإذن أبيها وزوجها، ولا تأذن لأحد بدخول البيت إلا بإذنه، فإذا تطاولت المرأة على زوجها وجاءت بالفاحشة -والعياذ بالله تعالى- ولم يصل الأمر إلى القاضي؛ فللزوج هجرها في الفراش... فإن استمرت على المعصية؛ ضربها ضرباً غير مبرح، فإذا أطاعت عادت لها كرامتها، وإكرام المرأة أمر من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقولوا: سمعاً وطاعة لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... ليرضى عنك رسول الله إن أحسنت إلى زوجك وأختك وابنتك... وضربها فعلٌ يكرهه رسول الله، وهو القائل: «لقد طاف الليلة بآل محمد نساء كثيرة يشكون الضرب، ألا وليس أولئك بخياركم» من يضرب زوجته ليس من خيار الرجال بشهادة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...

أيها الإخوة؛ هذه الأوامر صدرت وأفهمت علناً غير قابلة للنقض؛ لأنها محكمة، فمن كان سميعاً مطيعاً؛ فليقل: سمعاً وطاعة يا رسول الله، صلوا عليه وسلموا تسليماً.



سورة براءة

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

كان هناك عهد عام بين النبي الكريم ومشركي مكة على ألا يصدَّ عن البيت الحرام أحد من الطرفين، وعهود أخرى بين النبي الكريم وبين قبائل العرب إلى آجال معينة، فنقض كثير من المشركين عهودهم مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما اقتضى نزول البراءة من عهودهم، فأمهلهم الله تعالى أربعة أشهر يمشون في الجزيرة آمنين، ثم تنبذ عهودهم.

أمهلهم ليفكروا في هذه المدَّة في أمرهم، فيختاروا الإسلام أو القتال، ولتكون لديهم فرصة الاستعداد للقتال، وهذا منتهى التسامح والإنذار، لكن اللافت للنظر: لماذا لم يبلغها الصديق وهو أمير الحج في السَّنة التاسعة وإنَّما بلغها سيِّدنا علي؟ وحتى لا يقال: إنَّ هذا الفعل انتقاص من قدر الصديق رضي الله عنه؛ فإن (سورة براءة) تضمنت نقض العهود التي عقدها سيِّدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسه، وكانت سيرة العرب ألاَّ يحل العقد إلاَّ الذي عقده أو رجل من أهل بيته، فأراد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تقطع ألسنة العرب بالحجَّة، ويرسل ابن عمه الهاشمي من بيته فينقض العهد.

إِنَّ رَبَّ الْعِزَّةِ بَعْدَ أَنْ أَعْلَنَ بَرَاءَتَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَرَ بِإِعْلَانِ هَذِهِ الْبَرَاءَةِ لِلنَّاسِ قَاطِبَةً، فَأَنْزَلَ: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣] أَي: إِعْلَامٌ مِّنَ اللَّهِ ﴿وَرَسُولِهِ﴾ بِالْبَرَاءَةِ مِّنْ عَهْدِ الْمُشْرِكِينَ ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ كَافَّةً ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾: يَوْمَ النحر الذي تنتهي فيه فرائض الحج، وأفضل أيام المناسك ١- فالوقوف بعرفة في ليلته ٢- والرمي ٣- والحلق ٤- والنحر ٥- والطواف في صبيحته.

وَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى تَطْهِيرَ بَيْتِهِ مِنَ الرِّذَائِلِ قَبْلَ أَنْ يَحْجَّ حَبِيبُهُ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ كَانَتْ الْعَرَبُ تَطُوفُ كَمَا وُلِدُوا بِغَيْرِ الثِّيَابِ الَّتِي أَذْنَبُوا فِيهَا، كَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا بَلَغَ بَابَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ قَالَ لِقَرِيشٍ: مَنْ يَعِيرُنِي ثَوْبًا أَطُوفُ بِهِ؟ فَإِنْ أَعْطَوْهُ ثَوْبًا طَافَ بِهِ، وَإِلَّا أَلْقَى ثِيَابَهُ بِبَابِ الْمَسْجِدِ، فَأَعْطَى اللَّهُ تَعَالَى أَمْرَهُ لِنَبِيِّهِ الْكَرِيمِ: أَلَّا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عَرِيَانًا؛ لِذَا يَشْتَرِطُ لِلطَّوْفِ سِتْرُ الْعَوْرَةِ، وَ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨] وَهَكَذَا طَهَّرَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْتَهُ مِنْ رَجَسِ الْأَوْثَانِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي فَتْحِ مَكَّةَ فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ، حَتَّى إِذَا حَجَّ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ حَجَّةَ الْوَدَاعِ فِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ؛ حَجَّ وَلَمْ يَبْقَ أَيُّ أَثَرٍ مِنَ آثَارِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَصَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا...

* * *

مانع الزكاة

عن ثوبان رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤] كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أُنْزِلَ فِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ مَا أُنْزِلَ، لَوْ عَلِمْنَا أَيُّ الْمَالِ خَيْرٌ فَتَتَّخِذْهُ؟ فَقَالَ: «أَفْضَلُهُ لِسَانٌ ذَاكِرٌ، وَقَلْبٌ شَاكِرٌ، وَزَوْجَةٌ مُؤْمِنَةٌ تُعِينُهُ عَلَى إِيْمَانِهِ». ثار جدال ونقاش بين أمير أهل الشام سيّدنا معاوية وسيّدنا أبي ذرّ الغفاري حول هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] سيّدنا معاوية يقول: سياق الآية يقتضي أنّ المقصود أهل الكتاب، هم الذين يكتزون الذهب والفضة، ألا ترى أنّ الله تعالى يذم أهل الكتاب في حرصهم على الدنيا، وأخذ أموال الناس بالباطل، ووصفهم بالبخل الشديد، وحب كنز المال في صناديقهم، والامتناع عن أداء الواجبات في أموالهم، وقال سيّدنا أبو ذر: لا، بل نزلت فينا وفيهم (وهو الصحيح)، قال: لو نزلت فيهم لتابعت الآية: ويكتزون الذهب والفضة، ولم يقل: ﴿وَالَّذِينَ﴾ فلما قال: ﴿وَالَّذِينَ﴾ فقد استأنف وابتدأ معنى آخر...

كان النقاش والجدال عقيماً، وما تراجع سيّدنا أبو ذر عن رأيه، فماذا حدث؟ إذ بسيّدنا معاوية يكتب إلى الخليفة سيّدنا عثمان ويشكو أبا ذر، فأمر الخليفة بإحضار سيّد الزاهدين سيّدنا أبي ذر، وما إن قدم المدينة حتّى التف حوله الصحابة

والتابعون يقبلونه ويضمونه، ثم دخل على الخليفة، وذكر له ما جرى، فقال سيّدنا عثمان: إن شئت تنحيت وكنت قريباً -أي: من المدينة- فسكن الرَبْذَة، وهذا سبب وجوده فيها، وقال: لو أمّروا عليّ حبشياً لسمعت وأطعت، فلماذا أوجبت الآية زكاة الذهب والفضة (زكاة العين)؟ أوجبتها لإنقاص المال، لو كان تكثير المال فضيلة لما سعى الشرع في تنقيصه؛ لأن كثرة المال تورث الطغيان، ﴿كَأَلَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ [العلق: ٦، ٧]، ويكفي أنّ الله تعالى يستهزئ بالكافرين، «كل مال لا تؤدى زكاته فهو كنز ولو كان على ظهر الأرض» ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، ويقول: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] ولا يتوجه هذا العذاب إلّا لتارك الواجب.

العذاب تارة يُمثّل له ثعباناً، وتارة صفائح من نار، وتارة يكون حجارة محمّاة (رضف جهنم) فإذا حال الحول على الفضة أو الأوراق النقدية، وكان ٥٠٥ غ، أو ٢٠٠٠٠٠ ل.س، أو كانت ٧٢ ذهباً، أو ٧٠٠٠٠٠ ل.س، وجبت زكاته ٥، ٢٪، وليس في الحلي زكاة؛ لأنّه مال غير نام؛ أي: غير معدّ للنماء، بشرط عدم الكنز وعدم مجاوزة القدر المعتاد بين الناس، وقال الحنفية: إذا بلغت الحلي ١٠٠ غ وجبت زكاتها.

فماذا كان أثر هذه الآية على الصحابة الكرام؟ لما نزلت هذه الآية كبر على الصحابة ذلك، وقالوا: مَنْ منا لا يريد أن يبقى لأولاده مالاً بعده؟ فقال سيّدنا عمر: أنا لها، أنا أفرج عنكم، فانطلق، وتبعه سيّدنا ثوبان، فأتى النبي الكريم،

وقال: يا رسول الله؛ كبر على أصحابك هذه الآية، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله لم يفرض الزكاة إلَّا لطيب بها أموالكم» أي: لم يمنعكم أن تبقوا لأولادكم مالا، ولكن طيبوه بالزكاة، فكبر سيّدنا عمر، ثم قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «ألا أخبركم بخير ما يكتنز؟ المرأة الصالحة إن نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته» (أخرجه أبو داود والحاكم على شرطهما).



نصر الإسلام وأركان الهزيمة

عن أَنَسٍ رضي الله عنه: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ حَدَّثَهُ قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ فِي الْغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَنْظُرُ إِلَى قَدَمَيْهِ؛ لَأَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ؛ مَا ظَنُّكَ بِأَنْتَيْنِ اللهُ تَالِثُهُمَا؟!» رواه التِّرْمِذِيُّ والبخاريُّ.

من كان يظنُّ أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْصُرُ الْإِسْلَامَ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ سَيَنْهَزِمُ؛ فَلْيَسْمَعْ قَوْلَهُ تَعَالَى:

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ﴾ [التوبة: ٤٠].

من كان يظنُّ أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْصُرُ الشَّرِيعَةَ فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ سَتَمُحَى؛ فَلْيَسْمَعْ قَوْلَهُ تَعَالَى:

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ﴾ [التوبة: ٤٠].

من كان يظنُّ أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْصُرُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ النَّبِيَّ سَيَصَابُ بِالْهَزِيمَةِ؛ فَلْيَسْمَعْ قَوْلَهُ تَعَالَى:

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ﴾ [التوبة: ٤٠].

وإِلَيْكُمْ الدَّلِيلُ: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ [التوبة: ٤٠] هل يصدق أحد منكم أن رجلاً يطارده الأتربول الدولي والأمن الداخلي ووزارة الدفاع بجيوشها، ويقول لرجل آخر: إن عشت فسترى كيف ينصرني الله تعالى نصرًا مؤزرًا، ولست منتصرًا على كفار قريش فقط، بل على كسرى عظيم فارس.

حين أقبلت قريش بدأت المخاوف تشتد على الصديق، ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطمئنه ويهدئ من روعه، فيقول أبو بكر: أما والله ما على نفسي أخاف يا رسول الله، ولكن أخاف أن أرى فيك ما أكره! ويطمئنه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وسلّم: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ «يا أبا بكر؛ ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!»، فيقول الصديق: أنا إن قُتلت فإنما يقتل رجل، ولكن إن أصبت بمكروه إنما يذهب دين وتُحى شريعة.

قال الليث بن سعد: (ما صحب الأنبياء عليهم السلام مثل أبي بكر الصديق) ويقول: (رحم الله أبا بكر! زوّجني ابنته، وحملني إلى دار الهجرة، وأعتق بلائاً من ماله).

ولكن السؤال: لماذا تأخر نزول هذه الآية تسع سنين؟... أنزلها الله تعالى عقب آخر (غزوة تبوك) ورقمها ٢٧ في الغزوات، لقد أخرجها الله تعالى ليقول لك: إنّ الله نصر نبيه الكريم في جميع الغزوات والسرايا التي خاضها الحبيب الأعظم (٢٧) غزوة و٦٠ سرية) كان النصر فيها للمسلمين تحت قيادة القائد الأعلى للقوات الإسلامية، ولو نزلت هذه الآية بعد حادث الهجرة لقلنا: إنّ الله تعالى نصر نبيه في الهجرة فقط من مكّة إلى المدينة، أمّا وقد نزلت بعد جميع الغزوات والسرايا فليكن تفهم يا أخي أنّ مولانا عزّ وجلّ قد نصر نبيه في كلّ معركة خاضها، ولم يُهزم في معركة واحدة، حتّى في أحد كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم منصوراً.

وللدليل أسأل: متى تتحقّق الهزيمة؟ متى يقال عن الجيش: إنّّه قد هُزم؟ متى يقال عن الدولة: إنّها هُزمت؟ يحكم على الدولة بالهزيمة بأحد ثلاثة أشياء:

الأول: إذا اغتصبت الأرض كما حدث مع اليهود في (١٩٤٨-١٩٥٦ - ١٩٦٧)، إذا أخذ العدو من عدوه أرضاً حُكم على الدولة بالهزيمة، وأما في أحد

فقد ظلت المدينة المنورة كما هي...، بل كانت المعركة خارج المدينة عند جبل أحد على بُعد ميل منها، هل تأثرت حدود المدينة؟ أخذ أبو سفيان وجيشه شبرًا واحدًا، أمّا يوم النكسة فقد أخذوا سيناء والجولان والضفة الغربية ومدينة القدس والمسجد الأقصى...

الشيء الثاني: يقال عن الأمة: إِنَّهَا هُزِمَتْ عندما تغير عقيدتها... والمسلمون عندما نزلوا إلى المعركة يوم أحد كانوا يؤمنون ويرفعون لا إله إلا الله، هل كانوا مسلمين وانقلبوا كافرين بعد المعركة؟ لا، إن الله تعالى يقول: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤] هل غيَّروا العقيدة؟ هل دخلوا مسلمين وعادوا بعد المعركة ماركسيين؟ هل دخلوا المعركة بلا إله إلا الله، وعادوا بعد المعركة يقولون: لا إله، والكون مادّة؟ لقد كانت عقيدة الصحابة كالجبال لا تتزعزع عن قلوبهم الطاهرة.

الشيء الثالث: القضاء على الجيش، فإذا قُضي على الجيش كانت الهزيمة، فهل قُضي على جيش الحبيب الأعظم في أي معركة خاضها؟ لم يحدث...، وخاصة في أحد؛ لأن عدد المسلمين كانوا في أحد ٧٠٠، وكان عدد القتلى ٧٠ شهيدًا، فهل تُعدّ سبعون من سبعمئة هزيمة؟ لا، أو يُقال عن جيش قائده سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم: إِنَّهُمْ هَزَمُوا؟ لا؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٥١]، ألم يكن النبي صلى الله عليه وسلم مؤمنًا...؟! لم

تؤخذ الأرض، ولم يضر المبدأ، ولم يقض على الجيش، فمن أين تأتي الهزيمة؟! إنَّ
الهزائم لا تنزل على المؤمنين الصادقين، إنّما تنزل على المعاندين الكافرين، تنزل على
المنافقين الذين يجاربون الله ورسوله.

احفظوا القواعد العسكرية: إنّ الله تعالى قال بعد كلّ الغزوات: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ
فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠]، افهموا القواعد العسكرية، وصلُّوا على الحقيقة
المحمَّديّة.

* * *

ظاهرة النفاق

عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما قال: لما تُوفيَّ عبدُ الله بنُ أبي سُلَولٍ؛ جاء ابنُه عبدُ الله إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فسأله أن يُعطيه قميصه يُكفّنُ فيه أباهُ، فأعطاهُ، ثُمَّ سأله أن يُصليَ عليه، فقام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ليُصليَ عليه، فقام عمرُ، فأخذ بثوبِ النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسولَ الله؛ تُصليَ عليه وقد نَهاكَ ربُّكَ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: إِنَّمَا خَيْرِنِي اللهُ فَقَالَ: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] وَسَازِيدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ، قَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ، قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤] رواه الشيخان والترمذي.

ظاهرة النفاق من أخطر الظواهر التي ظهرت إبان الهجرة النبوية؛ لأنها تعني أن صاحبها يخفي كفرًا ويظهر إسلامًا، ويطعن الإسلام في ظهره، ويحذرون أن تنزل عليهم سورة تفضحهم: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤] ولكن أنزل الله فيهم سورة كاملة (سورة المنافقين) ليفضحهم الله تعالى بين الناس:

١- ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

٢- ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩].

٣- ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣].

٤- ﴿كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤].

٥- ﴿هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ [المنافقون: ٤].

٦- ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون:

٦].

٧- ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

٨- ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

فضيحة عظيمة للتحذير من ظاهرة النفاق!! لماذا؟ لأنها كما قال سيّد الخلق:
ستؤدي بالعصور الإسلامية إلى خروج فرقة اسمها الخوارج.

لما قال له ذو الخويصرة التميمي: ما عدلت؟ قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله يُخرج من نسله قومًا يمرقون من الدين مروق السهم من الرميّة» فجاءت الخوارج، وجاءت الوهابية وداعش، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يا شباب! عقوبة المنافقين أشد من عقوبة الكافرين يوم القيامة؛ لأنّهم يهدمون الإسلام خفية؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، وإنّ النفاق ظاهرة منتشرة في كلّ العصور، لما مات أحد زعماء الإلحاد في الشام قام أحد الشيوخ يريد أن يصليّ عليه، فقال أحد المسلمين: لكنه ملحد، لا يؤمن بإله، وطوال عمره ما قال: لا إله إلا الله، ووصّى بأن يضعوا له مغنيًا في التعزية بدلًا من شيخ مقرئ... فقال الشيخ: لعلة أسلم!!! نفاق وزندقة!! النفاق

هو الزندقة، يا منافق؛ تعال اسمع القرآن: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤] لن تنفعهم صلاتك عليهم، لن تنفعهم أن تكفنهم ولو بثوب الكعبة أو بثوب سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم احفظوا يا شباب: لن ينفعكم إلا دينكم وعقيدتكم وإيمانكم وأخلاقكم وصلاتكم.

تلك كرامة لسيدنا عمر، قال لسيدنا النبي صلى الله عليه وسلم: أتصلي على حقير المنافقين ابن أبي ابن سلول؟ لكن الرحمة المهداة صلى عليه وكفنه بثوبه مؤوِّلاً أنّه سيستغفر لهم أكثر من سبعين مرة، ولكن الله تعالى لم يرض، وأيد سيدنا عمر، وأظهر فضله، وأضاء نوره؛ لذلك سيدنا عمر اليوم لا يحبُّ المنافقون، ولا يطيقون سماع اسمه؛ لأنَّه فضحهم فضيحةً كبرى، فكان الفاروق الذي فرق الله به بين الحقِّ والباطل.

ومن ذلك قصة المنافق واليهودي لما احتكما إلى رسول الله، فحكم لليهودي، فلم يرضَ المنافق حكم رسول الله، وقال: تعال نحتكم إلى عمر -وهو يعلم أنه يكره اليهود- فطرق الباب عليه، وخرج عمر، وحكى له اليهودي القصة، فقال عمر: أحقَّ ما قال اليهودي؟ قال المنافق: نعم، فدخل عمر، وأحضر سيفه، وقطع رأسَ المنافق، وقال: هذا حكم من لم يرضَ بحكم رسول الله!!.

اللهم اشهد بأننا نحب سيدنا عمر وصحابة نبيك وآل بيته... وتلك عقيدتنا: حبُّ القرابة واحترام الصحابة، فصلوا على نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم.

* * *

مسجد الضرار

قال الله تعالى: ﴿لَسَجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَهْلِ قُبَاءٍ، كَانُوا يَسْتَنْجُونَ بِالْمَاءِ، فَنَزَلَتْ فِيهِمْ» رواه الترمذي والبخاري.

امتدت ظاهرة النفاق عبر سنوات ما بعد الهجرة النبوية، وحاولت أن تتخذ لها مقراً، فماذا اختارت؟ اختارت مقراً لها مسجداً بنته؛ ليكون من خارجه مظهراً إسلامياً، ومن داخله مركزاً للطعن بالإسلام، كما هي فكرة النفاق نفسها تماماً...

ولأبدأ معكم من البداية مختصراً ما أمكن: لما بنى سيدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسجد قباء، وبدأ أهل الإيمان يتوافدون للصلاة فيه؛ كان المنافقون يجدون حرجاً في الصلاة مع المؤمنين، فاتفقوا على أن يبنوا مسجداً لهم خاصاً يمرحون فيه بعيداً عن أهل الإيمان... واسمعوا إلى مولانا عز وجل يصف هذه المؤامرة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

أسمعتم إلى هذه المؤامرة على الإسلام؟! ﴿مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾: لإيقاع الضرر على أهل مسجد قباء، ﴿وَكُفْرًا﴾: ليكون معقلاً للكفر الاعتقادي، كفر الزندقة هو مقر القيادة العامة للتأمر على الإسلام، مركزاً للفتنة وبيتاً للنفاق ومأوى للمنافقين؛

للتهرب من الصلاة، وهذا كفر اعتقادي وعملي منافٍ للإيمان، ﴿وَتَفَرِّقًا﴾: بين المؤمنين الذين يصلُّون بقباء، ﴿وَإِرْصَادًا﴾: ترصد وانتظار؛ لاتخاذ مقررًا لمن عادى الله ورسوله.

هؤلاء المنافقون كشفهم الله تعالى وبيَّن عداوتهم للإسلام، وأرسل أمرًا لحبيه ومصطفاه: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨] أي: لا تصلِّ فيه أبدًا...، فأرسل رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم إلى أهل قباء أمرًا بهدم مسجد الضَّرار وحرقه... فأين يصلي رسول الله؟ ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾: من أول يوم بناه رسول الله لما كان بقباء بناه على الإيمان، فهو مسجد قباء كما في «البخاري»، ولا مانع من الرواية الثانية أنَّه مسجد المدينة؛ لأنَّهما أُسِّسا على التقوى من أول يوم، هذا المسجد أحقُّ وأجدر أن تصلي فيه...، ﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾: الأنصار ﴿يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨] مدحهم وأثنى عليهم؛ لأنَّهم كانوا بعد الاستنجاء يغسلون المحلَّ بالماء...، وهذا ترغيب وتشويق للنظافة...، وأعطاهم النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم مكافأة ليست لأحد من المساجد، فقال: «صلاةٌ في مسجد قباء كعمرة» كما في الصحيح.

اسمعوا يا شباب: كلُّ شيء ابتداءً بنية تقوى الله تعالى، وقصد وجهه الكريم؛ فهو الذي يبقى، ويسعد صاحبه، ويصعد إلى الله، ويرفع إليه عمله، فدققوا في نياتكم، وصلُّوا على نبيكم صَلَّى الله عليه وسلَّم.

* * *

لا شفاعة للكافرين

عن عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَجُلًا يَسْتَغْفِرُ لِأَبَوَيْهِ وَهُمَا مُشْرِكَانِ، فَقُلْتُ لَهُ: أَتَسْتَغْفِرُ لِأَبَوَيْكَ وَهُمَا مُشْرِكَانِ؟! فَقَالَ: أَوْلَيْسَ اسْتَغْفَرَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَهُوَ مُشْرِكٌ؟! فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَزَلَّتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] رواه الترمذي وأحمد والحاكم.

أبو طالب كان يقول في شعره:

ولقد علمت بأنَّ دينَ مُحَمَّدٍ
من خير أديان البرية دينا
أبو طالب دافع عن ابن أخيه دفاعًا عظيمًا، وقد جاءت إليه صناديد قريش لتطلب من ابن أخيه التخلي عن دعوته ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [الصف: ٨] فأجابهم بما تحفظونه جميعًا: «والله يا عم؛ لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر؛ ما تركته أو أهلك دونه»، فماذا كان موقف عمه أبي طالب؟ قال: اذهب يا ابن أخي، فوالله لا أسلمك لشيء أبدًا.

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسد في التراب دفينا
هل نسي له سيّدنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جميله؟ لا، ذهب إليه وهو على فراش الموت، وقال: «يا عم؛ قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله»، وكما علمتم كان عنده رَجُلَانِ من رؤوس الشرك والكفر؛ أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية يقولان له: لقد عرفناك طوال حياتك رَجُلًا، أَتَغَيَّرَ دينك ودين آباءك؟ لا تسمع لمحمد، ورسول الله يحاول مع عمه: «قلها ولو بأذني»، وشمسُ العمر توشك أن

تدخل في مجال كسوفها، ويوشك أبو طالب أن يُدرَج في أكفان القبر، ولم يحرك لسانه بلا إله إلا الله، ويدخل ملك الموت ليستلم الأمانة، ورسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم يلحّ على عمه؛ لسمع منه كلمة التوحيد، وأبو جهل يمنعه، وملك الموت يسرع الخطأ حثيثاً إلى أبي طالب، ويوشك الستار أن ينسدل على عُمرِ أبي طالب، وتنفض سوق أيامه... ورسول الله ينادي: يا عمّاه، يا عمّاه... لكن أبا طالب رفض أخيراً أن يقولها، واعتذر من ابن أخيه، وقال:

لولا الملامةُ أو حذارُ مسبّةٍ لوجدتني سمحاً بذاك مُبيناً
أبى أن ينطق بالشهادتين، وآثر النار على العار بزعمه!! ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩] وأسلم أبو طالب روحه، فما الذي حدث؟ انتبهوا يا سادة، لا محسوبة في الإسلام للكفار، ولا شفاعة للكافرين، ولا وساطة لهم في دخول الجنة، ولو كتب على نعوته: المغفور له...أو: المرحوم فلان...، فماذا صنع الحبيب الأعظم؟ قال: يا عمّي؛ أما إنّي سأستغفر الله لك ما لم أنّه عن ذلك، فماذا كان ردُّ الإله الواحد؟ إنّ مولانا أرسل كبير أمناءٍ وحي السماء وسفير الأنبياء، وهبط بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ...﴾ [التوبة: ١١٣] إنّها علّة لا تفرّق بين الأقارب والأباعد، يحرم الدعاء لمن مات كافراً، وقطع الموالاة مع الكُفّار حيّهم وميتهم، والدليل موقف أبي طالب، مع أنّ قلبه أسلم، فهو في ضحضاح من النار تبلغ كعبيه، ولولا النبي صَلَّى الله عليه وسلّم لكان في الدرك الأسفل من النار... وذلك حكمُ الآبي الذي رفض النطق بالشهادتين... وأما أولاد

المسلمين فيسري إليهم الإسلام عن طريق آبائهم، فهنيئاً لنا أن جعلنا الله من
المسلمين، ومن أتباع سيّد المرسلين، صلُّوا عليه وسلّموا تسليماً.

* * *

الصدق في التوبة

عن كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطُّ إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي قَدْ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَلَمْ يُعَاتِبِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهُ، إِنَّمَا خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ، حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَيَبْنَ عَدُوَّهُمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاقَفْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرُ فِي النَّاسِ مِنْهَا، وَكَانَ مِنْ خَبَرِي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، وَاللَّهُ مَا جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، فَغَزَاهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا، وَاسْتَقْبَلَ عَدَدًا كَثِيرًا، فَجَلَا لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرُهُمْ؛ لِيَتَأَهَّبُوا أَهْبَةً غَزَوْهُمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثِيرٌ، وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ، فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَيَّبَ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ سَيُخْفِي مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ حِينَ طَابَتِ الثَّمَارُ وَالظَّلَالُ، فَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعُرُ، فَتَجَهَّزَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَطَفِئْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ، فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَرَدْتُ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتِمَّادِي بِي حَتَّى اسْتَمَرَّ بِالنَّاسِ الْحِدُّ، فَأَصْبَحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَادِيًا وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، ثُمَّ

غَدَوْتُ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتِمَادِي بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ
 الْغَزْوُ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْحَلَ فَأُذِرْكَهُمْ، وَيَا لَيْتَنِي فَعَلْتُ! ثُمَّ لَمْ يُقَدِّرْ ذَلِكَ لِي، فَطَفِقْتُ
 إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخْرِئُنِي أَنِّي لَا أَرَى لِي
 أُسْوَةً إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ فِي النَّفَاقِ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ، وَلَمْ
 يَذْكُرْنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ: «مَا
 فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَالنَّظَرُ
 فِي عِطْفِيهِ، فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ! وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا
 خَيْرًا، فَسَكَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ رَأَى رَجُلًا مُبِيسًا يَزُولُ
 بِهِ السَّرَابُ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ»، فَإِذَا هُوَ أَبُو خَيْثَمَةَ
 الْأَنْصَارِيُّ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ، فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ؛ حَضَرَنِي بَنِي، فَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ،
 وَأَقُولُ: بِمِ أَخْرَجَ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا؟ وَأُسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ كُلِّ رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ
 لِي: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا؛ زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، حَتَّى
 عَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَنْجُو مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وَصَبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ، فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ
 لِلنَّاسِ، فَجَاءَ الْمُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَدِرُونَ إِلَيْهِ وَيَخْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضَعَّةٍ وَتَمَانِينَ
 رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنْهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَانِيَتَهُمْ، وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ،
 وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ، حَتَّى جِئْتُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْغَضَبِ، ثُمَّ قَالَ:
 «تَعَالَ»، فَجِئْتُ أُمِشِّي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: «مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ

ابْتَعَتْ ظَهْرَكَ؟»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا؛ لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدًّا، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي؛ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسَخِّطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ؛ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عُقْبَى اللَّهِ، وَاللَّهُ مَا كَانَ لِي عُذْرٌ، وَاللَّهُ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ»، فَقُمْتُ، وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ، فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا: وَاللَّهُ مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنِبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، لَقَدْ عَجَزْتَ فِي آلَا تَكُونُ اعْتَذَرْتَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ، فَقَدْ كَانَ كَافِيكَ ذَنْبَكَ اسْتَغْفَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكَ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِيَ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ؛ لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلَانِ، قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ، قُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مَرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَامِرِيُّ وَهَلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسُوءَ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي، وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا -أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ- مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبْنَا النَّاسَ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا، حَتَّى تَنَكَّرْتُ لِي فِي نَفْسِي الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلِشْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكْنَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَكْلُمْنِي أَحَدٌ، وَآتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْلَمَ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ

الصَّلَاةَ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ أَمْ لَا؟ ثُمَّ أَصِلِّي قَرِيبًا مِنْهُ،
 وَأَسَارِفُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرُ إِلَيَّ، وَإِذَا التَّعْتُ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي،
 حَتَّى إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ؛ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي
 قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ، فَقُلْتُ لَهُ:
 يَا أَبَا قَتَادَةَ؛ أَنَشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمَنَّ أَنِّي أَحَبُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؟! فَسَكَتَ فَعُدْتُ
 فَنَاشَدْتُهُ، فَسَكَتَ فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ
 وَعُدْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ؛ إِذَا نَبْطِيٌّ مِنْ نَبْطِ أَهْلِ
 الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ، يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ
 النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ حَتَّى جَاءَنِي، فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ عَسَّانَ، وَكُنْتُ كَاتِبًا،
 فَفَرَّأْتُهُ فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَّغْنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ
 هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ، فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُهَا: وَهَذِهِ أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ،
 فَنِيَامَتْ بِهَا التَّنُورُ، فَسَجَرْتُهَا بِهَا، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ مِنَ الْخُمْسِينَ، وَاسْتَلْبَثَ
 الْوَحْيُ؛ إِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزَلَ امْرَأَتَكَ، فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا، بَلِ
 اعْتَزْلُهَا، فَلَا تَقْرَبْنَهَا، وَأَرْسَلَ إِلَيَّ صَاحِبِي بِمِثْلِ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: الْحَقِّي
 بِأَهْلِكَ، فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، قَالَ: فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ
 أُمَيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّ هِلَالَ شَيْخٍ ضَائِعٍ
 لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: «لَا وَلَكِنْ لَا يَقْرَبَنَّكَ»، فَقَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ
 مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا،

قَالَ: فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي امْرَأَتِكَ،
 فَقَدْ أَذِنَ لِمَرْأَةِ هَلَالٍ أَنْ تَخْدُمَهُ، فَقُلْتُ: لَا اسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا يُدْرِينِي مَا
 يَقُولُ لِي إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا، وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ، قَالَ: فَلَبِثْتُ بِذَلِكَ عَشَرَ لَيَالٍ، فَكُمَلْنَا
 خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَيْ عَنْ كَلَامِنَا، ثُمَّ صَلَّيْتُ الْفَجَرَ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ
 بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ مِنَّا، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي،
 وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ؛ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى سَلْعٍ يَقُولُ بِأَعْلَى
 صَوْتِهِ: يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ؛ أَبْشِرْ، فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنَّ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، فَأَذَنَ
 رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ،
 فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، فَذَهَبَ قَبْلَ صَاحِبِي مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا،
 وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي، وَأَوْفَى الْجَبَلِ، فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فَلَمَّا
 جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي؛ فَزَعْتُ لَهُ ثَوْبِي فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبِشَارَتِهِ، وَاللَّهُ مَا
 أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، فَاَنْطَلَقْتُ أَتَايَمُّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَيِّئُونَنِي بِالتَّوْبَةِ، وَيَقُولُونَ: لَتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ
 عَلَيْكَ، حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ،
 وَحَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهُ يُهْرُولُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَانِي، وَاللَّهُ مَا قَامَ
 رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، فَكُنْتُ لَا أَنْسَاهَا لَهُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ؛ قَالَ: أَبْشِرْ بِخَيْرٍ يَوْمَ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ
 أُمُّكَ، فَقُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»،
 وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا سَرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ، كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا

نَعْرِفُ ذَلِكَ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلَعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَقَالَ: «أَمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، فَقُلْتُ: إِنِّي أَمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرٍ، وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصَّدَقِ، وَإِنْ مِنْ تَوْبَتِي إِلَّا أُحْدِثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيْتُ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ أَنْ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ - مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى يَوْمِي هَذَا - أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي اللَّهُ بِهِ، وَاللَّهُ مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى يَوْمِي هَذَا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيَ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٩] قَالَ كَعْبٌ: وَاللَّهُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ إِذْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ فِيهِمْ بِشَرِّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ، قَالَ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦]، رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَالتِّرْمِذِيُّ.

وفي رواية: «فاجْتَنَبَ النَّاسُ كَلَامَنَا، فَلَبِثْتُ كَذَلِكَ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ الْأَمْرُ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَهَمُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمُوتَ فَلَا يُصَلِّيَ عَلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ يَمُوتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَكُونَ مِنَ النَّاسِ بِتِلْكَ الْمُنْزِلَةِ، فَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَلَا يُصَلِّيَ عَلَيَّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَوْبَتَنَا عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ بَقِيَ الثُّلُثُ الْآخِرُ مِنَ اللَّيْلِ، وَهُوَ عِنْدَ أُمِّ سَلَمَةَ، وَكَانَتْ مُحْسِنَةً فِي شَأْنِي، مَعْنِيَّةً فِي أَمْرِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ؛ تَيْبَ عَلَى كَعْبٍ»، قَالَتْ: أَفَلَا أُرْسِلُ إِلَيْهِ فَأُبَشِّرُهُ؟ قَالَ: إِذَا يَخْطُبُكُمْ النَّاسُ، فَيَمْنَعُونَكُمْ النَّوْمَ سَائِرَ اللَّيْلَةِ، حَتَّى إِذَا صَلَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الْفَجْرِ؛ أَذَنَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا، وَكَانَ إِذَا اسْتَبَشَرَ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنَ الْقَمَرِ.

﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] فالصدق في العبودية، والقيام بحقوق الرُّبُوبِيَّةِ، كونوا مع الصادقين الذين صدقوا يوم الميثاق: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢] صدقوه ما عاهدوا عليه: أَلَّا يَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ولا يشركوا به شيئاً من مقاصد الدنيا والآخرة، ويتجردوا لله، والصدق يرجع إلى الإخلاص؛ بَأَلَّا يَكُونَ لِلْعَبْدِ أَصْلٌ بَاعَثَ فِي الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، فَإِنْ مَازَجَهُ شَوْبٌ مِنْ حَظْوِظِ النَّفْسِ بَطَلَ الصَّدَق...الصادق صديق مخلص لله تعالى...وَرُبَّ عَبْدٍ صَدَقَ اللَّهُ فِي عَشْرَةِ أَيَّامٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَدًا فِي عَمْرِهِ الطَّوِيلِ...وهؤلاء بنو إسرائيل كان الواحد منهم يعيش ألفاً ونحوها، ولم يتحصَّلْ له شيء مما تحصَّلْ لهذه الأُمَّة مع قَلَّةِ أعمارها!! رُبَّ عَمْرٍ اتَّسَعَتْ أَمَادُهُ وَقَلَّتْ أَمْدَادُهُ! وَرُبَّ عَمْرٍ قَلِيلَةُ أَمَادِهِ كَثِيرَةُ أَمْدَادِهِ!! وَرُبَّ رَجُلٍ وَصَلَ إِلَى اللَّهِ بِلَمْحَةٍ!!!

الإمام الغزالي في «منهاج العابدين» يقول: إنَّ من العباد من يقطع سبعين سنة؛ ليصل إلى الله، ومنهم من يقطعها في عشرين سنة، ومنهم من يقطعها في عشر سنين، ومنهم من يقطعها في سنة، ومنهم في شهر، بل في جمعة، أو في ساعة؛ كسحرة فرعون في أول النهار كانوا سَحَرَةً فَجَرَةً، ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]، وفي المساء ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠]!!

وهل أتاكم نبأ السيِّدة رابعة العدويَّة؟! كانت أمةً كبيرة يُطاف بها في سوق البصرة، ولا يرغب فيها أحدٌ لكبرِ سنِّها، فرحمها بعض التجار، فاشتراها بنحو مئة درهم، فأعتقها، فاختارت طريق الصدق مع الله، فأقبلت على العبادة، فما تَمَّت لها سنة حتَّى زارها علماء البصرة وقرأوها؛ لعظم منزلتها.

وهؤلاء الثلاثة من الصحابة كانوا صادقين، صدقوا الله عزَّ وجلَّ في موقف واحد مع سيِّدنا النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فذكرهم الله في القرآن، وأعلن قبولَ توبتهم مرتين، وأمر أهل الإيمان أن يتبعوا سبيلهم في الصدق مع الله ونبيه، وأيُّ درس أعظم في الصدق من جيش العُسرة يوم اجتمع عليهم الحر والصحراء، وعسرة الركوب، وعسرة الزاد، وعسرة الماء؟! كان العشرة يتعاقبون على بعير واحد، ويقسم الاثنان التمرة الواحدة، وكان الطريق إلى تبوك ٧٠٠ كم ذهابًا، و٧٠٠ كم إيابًا... إنَّه درسٌ في الصدق لا مثيل له!!

العاقل المتقي يلازم الصدق في الأقوال، والإخلاص في الأفعال، والصفاء في الأحوال، ومن اتصف بذلك صار مع الأبرار، وحظي برضا الإله الغفار، لكن المصنف دلنا على موقفين آخرين في الصدق يجب أن ننتبه إليهما جيداً:

الموقف الأول: لسيدنا أبي ذرٍّ، حين بطاً به بغيره، فلم يرجع ويقول: عذرتني ربي، بل كان صادقاً مع الله...، فحمل متاعه على ظهره، واتبع أثر سيدنا رسول الله ماشياً، وينظر الناس من بعيد، فيرون سواد رجل، فقال صلى الله عليه وسلم: «كُنْ أبا ذرٍّ» فانتظر الناس قدوم الرجل، فلما رأوه قالوا: هو أبو ذر يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم: «رحم الله أبا ذرٍّ! يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده»، بالصدق مع الله تبعث وحدك يوم القيامة، فمن مثلك يا أبا ذرٍّ؟! نحن ندعو الناس لأنفسنا، وننسى الصدق مع الله تعالى!!

والموقف الثاني أعجب: موقف الصحابي أبي خيثمة الأنصاري، بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء، وقد فرشت له في الظل، وبسطت له الحصير، وقربت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظل ظليل، ورطب يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله في الحر والريح!! ما هذا بخير، فمن شدة صدقه مع الله قام، ورحل ناقته، وأخذ سيفه ورمحه، ومَرَّ كالريح... فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه إلى الطريق، فإذا براكبٍ بعيد غيَّبه السراب، فقال: كن أبا خيثمة، فكان، وفرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستغفر له، لذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] وصلُّوا على نبيه الأمين...

* * *

الجنة ونعيمها

عن صُهَيْبٍ رضي الله عنه، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ نَادَىٰ مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، قَالُوا: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَتُنْجِنَا مِنَ النَّارِ، وَتَدْخِلَنَا الْجَنَّةَ؟! قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ».

ليست الجنة بخمرها ولبنها وعسلها وقصورها وحورها، إنما الجنة بلذة النظر إلى وجه ربنا جلَّ جلاله، القصد هو الله...؛ لذا العباد ينقسمون إلى أقسام: ١- منهم من يعبد الله لتقضى لهم الحاجات وتصرف عنهم المكروهات، وأعلى منهم: ٢- من يعبده خوفاً من ناره ورغبة في جنته، وأعلى منهم: ٣- من يعبده لأنه أحقُّ بالعبادة ممن سواه، وهذا منتهى الغايات؛ لذا يؤمر يوم القيامة بأناسٍ إلى الجنة، فيقولون: يا رب؛ ما عبدناك رغبةً في جنتك، ولكن عبدناك لأنك أحقُّ أن تعبد من سواك، فيقول مولانا عزَّ وجلَّ: سوقوهم إلى الجنة بالسلاسل، كذا ورد الحديث: «عَجِبَ رَبُّكَ لَأَنَاسٍ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلَاسِلِ!» لا شيء يعدل رضا الله عنك، إِنَّ مَنْ أَهْلُ الْجَنَّةِ أَنَاسًا إِذَا حُجِّبُوا عَنِ اللَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ؛ اسْتَغَاثُوا مِنَ الْجَنَّةِ كَمَا يَسْتَغِيثُ أَهْلُ النَّارِ مِنَ النَّارِ!!.

أنتم أيها الذاكرون؛ لو تعلمون أنكم جُلساء الله عند الذكر؛ لما فترتم عنه، أيها الذاكرون؛ لا تنشدوا مع المنشدين، بل اذكروا مع الذاكرين؛ لأنَّ ذكر الله أرفعُ

وأعلى مقامًا عنده، ما اسمك؟ عبد الله، لو ناديتك: يا عبد؛ ألا تحزن؟ لقد نسبتك إلى الأرض، وتركت نسبتك إلى رب السماء! فهناك فرق كبير بين (عبد) و(عبد الله) وأعظم ثناء لله عز وجلّ لنبيه الكريم: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] بعضكم عندما يذكر يقول: (إه-إه) بدل (الله الله) فيحرم الذكر بالاسم المفرد، لو قلت: (هو هو) أفضل من قولك: (إه-إه) للآية: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣].

عند الشاذلية: لا يوجد إلا ذكران: (هو هو، الله الله) مثل الجنة تمامًا، الجنة درجات: ربض الجنة، ووسط الجنة، ثم الفردوس الأعلى، وأعلى من الفردوس النظر إلى وجه الله تعالى، وذكرك للأسماء يتفاوت، وأعظم ذكرٍ تذكره عند الشاذلية: (الله الله)، اسألوا أهل الخلوة ما ذكرهم فيها؟ (إه-إه) أم (الله الله)؟ ذكركم يا أهل الذكر (الله الله)، وفي الآخرة رؤية وجه الله تعالى، فصلوا على سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

* * *

تنزيه الله عن المكائبة

عن أَبِي رَزِينٍ رضي الله عنه قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ؟ قَالَ: كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ، وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ، وَخَلَقَ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ.

هذا الحديث عمدة في تنزيه المولى عز وجل عن أن يكون فوق العرش، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، كان الله ولا شيء غيره، ثم خلق العرش والكرسي، عقيدته باطلة من يقول: إِنَّ الله فوق العرش، فالله ليس فوق، ولا فوق له، ولا تحت، ولا جهة، هذه من صفات المخلوقين، وأين كان قبل خلق العرش؟؟ ومن الخطأ البين تفسير قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] أنه فوق العرش، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، والمعنى: استوى منزهاً عن الحلول والانتقال والجهة، فلا العرش يحمله، ولا الكرسي يسنده، بل العرش وحملته والكرسي وعظمته محمول بلطف قدرته، مقهور بجلال قبضته، كان الله ولا شيء غيره، وهو على ما عليه كان، لم يتغير عمًا كان، علم ما كان وما يكون، وما لا يكون لو كان كيف كان يكون؟ فـ(الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة)؛ كما قال الإمام مالك، وكل معنى في القرآن يوهم تشبيه الله بخلقه يجب صرف معناه الظاهري المحال إلى معنى يليق بذاته وصفاته وأفعاله جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وَكُلُّ نَصٍّ أَوْهَمَ التَّشْبِيهَا أَوَّلُهُ أَوْ فَوْضٌ وَرُمَ تَنْزِيهَا

وانتبهوا إلى الآية الكريمة: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] لم يقل: الله على العرش استوى، فإنه استوى برحمانيته وكبريائه وعظمته على العرش؛ من نحو قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقد فهم اليهود من مثل هذه الآية في التوراة أن المراد هو الاستقرار الحسي، قالوا: إن الله تعب من خلق السماوات والأرض في ستة أيام، فلما فرغ؛ استلقى يوم السبت على العرش!!! فاتخذوه عيداً، وهذا من سوء فهمهم!! وبعض المتأخرين من الحنابلة وقعوا في ورطة التجسيم والتشبيه بقولهم: إن الله فوق العرش! فيا ليتهم قلدوا إمامهم الإمام أحمد، وقد سئل عن الآية، فقال: (الاستواء كما يقول، لا كما يخطر في العقول) وسئل الإمام الشافعي عن الآية، فقال: (آمنت بالله، واهتمت نفسي) فكلُّ أجاب بالتسليم، وهو مذهب السلف، وهو أسلم.

احفظوا القاعدة التوحيدية النبوية: «كان الله ولا شيء غيره» وفي رواية: «كان الله ولا شيء قبله» كلاهما في «البخاري» عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فصلوا عليه وسلموا تسليماً...



التوبة

عن أَبِي الْيَسْرِ رضي الله عنه قَالَ: أَتَيْتُ امْرَأَةً تَبْتَاعُ تَمْرًا، فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ فِي الْبَيْتِ تَمْرًا أَطْيَبَ مِنْهُ، فَدَخَلْتُ مَعِيَ، فَمِلْتُ عَلَيْهَا فَقَبَّلْتُهَا، فَسَأَلْتُ أَبَا بَكْرٍ، فَقَالَ: اسْتُرْ عَلَى نَفْسِكَ، وَلَا تُخْبِرْ أَحَدًا، وَتُبْ إِلَى اللَّهِ، فَلَمْ أَصْبِرْ، وَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «أَخْلَفْتَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي أَهْلِهِ بِمِثْلِ هَذَا؟!» حَتَّى تَمَتَّى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَسْلَمَ إِلَّا تِلْكَ السَّاعَةَ، حَتَّى ظَنَّ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَأَطْرَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَوِيلًا حَتَّى أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤] الْآيَةَ، فَقَرَأَهَا عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَلِهَذَا خَاصَّةٌ أَمْ لِلنَّاسِ عَامَّةٌ؟ قَالَ: بَلْ لِلنَّاسِ عَامَّةٌ رواه الترمذي بسندٍ حسنٍ، نسأل الله الستر وحسن الحال والمآل، آمين.

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ﴾: استغرق جميع الأوقات بالعبادات، فَإِنَّ إِخْلَالَكَ لِحِظَةً مِنَ الزَّمَانِ بِفَرْضٍ تُوَدِّيهِ أَوْ نَفْلٍ تَأْتِيهِ حَسْرَةٌ عَظِيمَةٌ وَخَسْرَانٌ مُبِينٌ.

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾: الحسنات ما يجود به الحقُّ جلَّ جلاله، والسيئات ما يذنبها العبد، فإذا دخلت حسناته سبحانه على قبائح العبد؛ محتها وأبطلتها؛ ولذا قيل: حسنات القربة تذهب بسيئات الزلة، حسنات الندم تذهب بسيئات الجرم، حسنات الاستغفار تذهب بسيئات الإصرار، حسنات العناية

تذهب بسيئات الجناية، حسنات العفو عن الإخوان تذهب بسيئات الحقد عليهم، حسنات الكرم تذهب بسيئات الخدم، حسنات الإخلاص تذهب بسيئات الرياء.

إذا كثرت منك الذنوب فداوها بمد يد في الليل والليل مظلم
ولا تقنطن من رحمة الله إنما قنوطك منها من خطاياك أعظم

﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، سأل أعرابي سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يلي حساب الخلق؟ فقال: «الله تبارك وتعالى»، قال: هو بنفسه؟ قال: «نعم» فتبسم الأعرابي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ممّ ضحكت يا أعرابي؟!» فقال: إن الكريم إذا قدر عفا، وإذا حاسب سامح، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا لا كريم أكرم من الله، هو أكرم الأكرمين».

ومن الرقائق في التوبة: أنه لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وحشي - وقد قتل عمه حمزة - يدعوه إلى الإسلام؛ أرسل إليه يقول: كيف تدعوني إلى الإسلام وأنت تزعم أنه من قتل نفساً أو أشرك أو زنى؛ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً، وإنّي فعلت ذلك كله، فهل تجدي من رخصة؟! فأنزل مولانا عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠]، فبعث بها إلى وحشي وأصحابه، فقال وحشي: هذا شرط شديد، لعل لا أقدر عليه. ثلاثة شروط: ﴿تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فبعث بها إلى وحشي، فقال: أراني بعد في شبهة، فلا أدري أيغفر لي أم لا؟ فهل غير ذلك؟ فأرسل الله أمين وحي

السماء إلى أمين وحي الأرض بآية فيها الشدة وفيها المغفرة، وفيها العفو العام: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، فبعث بها إلى وحشي، فأقبل وأسلم بين يدي الحبيب الأعظم، فقال الصحابة: يا رسول الله؛ هذه له خاصة أم للمسلمين عامة؟ فقال: «بل للمسلمين عامة».

فيا أخي المسلم؛ لو أراد الله عقوبة المؤمن في جهنم وتخليده؛ لما ألهمه معرفته وتوحيده.

فيا من أساء فيما مضى ثم اعترف كن محسنًا فيما بقي تُعْطَ الشرف

وَابْشِرْ بِقَوْلِ اللَّهِ فِي تَنْزِيلِهِ ﴿إِنْ يَتَنَّهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ

* * *

براءة سيدنا يوسف

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣] قال عكرمة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بالحواريّة: هَلُمَّ، وقال ابنُ جُبَيْرٍ: (تعاله)، رواه البخاري.

دفع الله تعالى التهمة عن نبيه سيّدنا يوسف الصديق، ورفع عنه المظنة، وأنطق عُدَّاه، وأظهر براءته في مواقف عدة من كتابه الكريم، حتّى من ناحية اللغة هو بريء، فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ [يوسف: ٢٤] قسمٌ بأنّها فعلت، مولانا يحلف بعظمته، فاللام رابطة لجواب القسم، وأيّده بـ(قد) التي هي للتحقيق.

﴿وَهُمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ليس لنا أن نقف عند قوله تعالى: ﴿وَهُمَّ بِهَا﴾ لأنّها مخالفة للعقيدة؛ لأنّ الذي يجب أن نعتقده أنّ الأنبياء معصومون من ارتكاب الكبائر والصغائر قبل النبوة وبعدها، فالله تعالى عصمه من الهَمِّ، فالوقوفُ عند قوله: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾، قِفْ، إمّا أن تقف عند قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ قِفْ، أو تقف ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾، ومن دَرَس العربية يفهم القرآن، فإنّ الآية واضحة الدلالة اللغوية على براءة سيّدنا يوسف: ﴿وَهُمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أو تقول: لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ هَمَّ بِهَا؛ كما تقول: (لولا المطر لهلك الزرع)؛ أي: لولا وجود المطر لهلك الزرع، وهنا تقول: لولا أن رأى برهان ربه هَمَّ بها؛ أي: لولا وجود العصمة لهمَّ بها، فإنّنا امتنع الهَمُّ لوجود العصمة من ارتكاب المعاصي، فليس هناك همٌّ أبداً، بل تلك براءة من ناحية اللغة.

وأما سيّدنا يوسف فشهِدت براءته كلّ الآيات المتعلقة بالقضية، وكل أطراف القضية:

١- شهد الله له بالبراءة حينما قال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] صرف عنه السوء حتّى لم يوجد منهم العزم على فعل ذلك.

٢- وشهد براءته الشيطانُ عندما قال لمولانا عزَّ وجلَّ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ [ص: ٨٢، ٨٣].

٣- وشهد براءته الشاهد من أهل العزيز، إذ قال: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ [يوسف: ٢٦، ٢٧].

٤- وشهد براءته النسوة اللاتي قطعن أيديهنَّ بقولهنَّ: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١].

٥- وشهدت براءته امرأة العزيز بقولها: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١] فلا مفرَّ من الإقرار بالحق؛ وهو براءته الناصعة عليه الصلاة والسلام.

فليُنظر الشباب ماذا يجب عليهم أن يفعلوا تجاه عروض الإغراء والفساد المتفشى الذي ينتشر في مجتمعاتنا؟ وليُنظروا إلى هذا الجواب البديع الشريف الذي

رَدَّ بِهِ سَيِّدُنَا يُوسُفُ عَلَى عَرَضِ الْإِغْرَاءِ: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾
[يوسف: ٢٣] فَصَلُّوا عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

* * *

الفرج بعد الكرب

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

كأنَّ هذه الآية تنطبق علينا اليوم!! الآن المسلمون في حالة يأس من الحُكَّام والملوك ومجلس الأمن، ومن كل قوة على وجه الأرض، يئسوا منهم أن يردوا القدس وفلسطين، أغلقت جميع الأبواب الآن، وما دُمنَّا كذلك فأبشركم أنا أنَّها علامة الفرَج، عَجِيبٌ! أَمِنَ اليأس يأتي الفرَج؟! نعم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠] لم يبقَ لنا إلَّا الله أن نلجأ إليه، لن نلجأ إلى أمريكا ولا إلى روسية، ولا إلى الوسائل المادية ولا العسكرية، بل إلى الله تعالى.

انظروا إلى اليهود ومن ورائهم دول أوربة وأمريكة، يمدونهم بالسلاح والعتاد، هل تصدقون أن هذا في القرآن؟ وأنَّ الله أخبرنا أننا سننتصر عليهم؟! قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴿٤﴾ أَي: اللوح المحفوظ ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤] هناك فسادان، وعلوُّ واحد في الفساد الأول: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ هم أصحاب رسول الله، جاسوا في بني قينقاع وبني النضير في المدينة، ثم في خيبر، وقضوا على نفوذ اليهود السياسي والاقتصادي، ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٥،

٦] رددنا لكم الكرة على أحفاد الذين جاسوا خلال الديار؛ وهم المسلمون،
فاليهود ستصير لهم دولة وقوة، انظروا: ﴿وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ
نَفِيرًا﴾ أكثر قوة عسكرية؛ من طائرات وصواريخ ذرة، كل العالم يدعم اليهود
اليوم، وسيأتي الله باليهود من كل أقاصي الأرض، بعد أن قطعهم أمماً كل طائفة
ببيلد: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤] ملتقيين جماعات
جماعات إلى بلدٍ ما، والمرئي أنها فلسطين، وهناك سيكون حتفهم وقتلهم وفناؤهم.

اسمعوا: النصر عليهم من القرآن، لا من غيره: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾
الفساد الثاني لهم؛ ﴿لَيَسُوءُوا وَجُوهَكُمْ﴾ ليدمر المسلمون دولة يهود وعلوم قوتهم
﴿وَلَيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧] مع
كل قوى العالم التي تدعم اليهود سننتصر عليهم بلا شك ولا ريب، وتلك بشارة
من الله؛ أَنَّ الغلبة ستكون لنا: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠] ﴿لَيَسُوءُوا
وَجُوهَكُمْ وَلَيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾ لا تخافوا على الأقصى فلن
يهدم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ وإذا هُدم المسجد فلا مسجد،
واسمعوا البشارة الأخيرة: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ هُمُ
الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

* * *

سورة الرعد

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أَقْبَلْتُ يَهُودُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ؛ أَخْبِرْنَا عَنِ الرَّعْدِ مَا هُوَ؟ قَالَ: «مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ مَعَهُ مَخَارِيقُ مِنْ نَارٍ، يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ» قَالُوا: فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي نَسْمَعُ؟ قَالَ: «زَجْرُهُ بِالسَّحَابِ إِذَا زَجَرَهُ، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى حَيْثُ أُمِرَ» قَالُوا: صَدَقْتَ، رَوَاهُمَا التِّرْمِذِيُّ بِسَنَدَيْنِ حَسَنَيْنِ، نَسَأَلُ اللَّهَ حُسْنَ الرِّوَايَةِ آمِينَ.

في سورة الرعد مواضع يجب لفث نظر المسلم إليها:

منها: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢] استوى على ملكه استواء قدرة وتدبير، والعرش هو الملك، يقال: اندك عرش فلان؛ إذا زال ملكه.

ومنها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ [الرعد: ١١]، غيروا أحوالكم مع الله إلى الطاعة؛ ليغيّر ما بكم من البلاء والمحن والشدائد، «عبدني كن لي كما أريد أكن لك كما تريد»، وإذا أراد الله بقوم سوءًا وبلاءً وفتنةً مما تعلق به المشيئة؛ يجري لا محالة، إذا أراد الله بقوم سوءًا أعمى أعينهم حتى يعملوا أو يختاروا ما فيه بلاؤهم، فهم يمشون إلى هلاكهم بأقدامهم، ويسعون في الحقيقة في دمهم:

إلى حَتْفِي مَشَى قَدَمِي إِذَا قَدَمِي أَرَأَقَ دَمِي

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] فَمَنْ كَانَ يَعاين من أزمات نفسية؛ فليلجأ إلى الله تعالى بذكره، فإنه القادر على إنزال الطمأنينة وإثباتها في قلوبهم.

ومن الآيات: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] المعقبات: الملائكة الذين يتعاقبون على حفظ العبد وحمايته؛ لأنه مطيع عابد مجتنب للمعاصي، فيقول للملائكة: إِنِّي كُتبت على عبدي بلاء، وأنتم ترونه عندما ينزل، فإذا نزل بلائي؛ فامنعوا منه عبدي...، فالله سبحانه يحمي عبده من أمره هو، ومن بلائه هو، لم تحدد الآية عدد الملائكة الحفاظ، وربما تجاوزوا أربعة إلى سبعين ألفاً، وعكس الصورة: عبد مهمل عاصٍ تارك للصلاة، عاقٍ لوالديه، تقول له: صلّ، وهو لا يصلي، يعرف أنّ الصلاة فرض ولا يصلي، يتعامى عنها، اسمعوا الآية: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] ﴿نقيض﴾: نحن؛ يعني الله تعالى، نخلق له شيطاناً فيدخل فيه، ويكون ضلاله بحسب هذا الشيطان إن كان نصرانياً أو يهودياً...، فلا يأمره إلا بمعصية...

* * *

سؤال القبر

عن البراء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]» رواه البخاري وأبو داود والترمذي، ولفظه: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال: «في القبر إذا قيل له: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟».

فأهل الإيمان يثبتهم الله تعالى بالقول الثابت عندما يوضعون في قبورهم، والقول الثابت هو لا إله إلا الله محمد رسول الله، عندما يسأله الملكان: من ربك؟ ليس هناك أثبت من لا إله إلا الله محمد رسول الله، هناك في ذلك المرقد تذوب جميع الشعارات التي كان المنافقون والملحدون ينادون بها في الدنيا، ولا يبقى هنالك إلا شعار واحد؛ هو لا إله إلا الله... هناك من نادى بالشيوعية فتح له باب إلى جهنم، ومن نادى بالماركسية فتح له باب إلى السعير، أمّا من ينادي بلا إله إلا الله محمد رسول الله؛ فإنهم ينطقون بلا خوفٍ ولا وجلٍ؛ لذلك ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، ولذا قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه مُسْلِمٌ: «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وكان يدعو لمن مات بالثبات، الثبات الثبات، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فتنة القبر فتنة عظيمة، يقول فيها النبي الكريم: «ما من شيء لم أكن أريته إلا رأيتَه في مقامي هذا، حتّى الجنة والنار، فأُوحِي إليّ أنكم تفتنون في قبوركم مثل فتنة المسيح الدجال»، وكان صلى الله عليه وسلم

يستعيد في كل صلاة من عذاب القبر فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المسيح الدجال»، وفي الحديث: «أهل لا إله إلا الله ليس عليهم وحشة في قبورهم»، والنبي الكريم صلى الله عليه وسلم يقول: «وكأني أنظر إلى أهل لا إله إلا الله وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن» رواه الطبراني والبيهقي، ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿[الواقعة: ٨٨، ٨٩].

واسمعوا إلى المدرّس بمدرسة سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم؛ وهو سيّدنا أبو هريرة يروي عن معلّمه: «أخبرني جبريل عليه السلام أنّ لا إله إلا الله أنس للمسلم عند موته، وفي قبره، وحين يخرج من قبره، يا محمّد؛ لو تراه حين يخرجون من قبورهم ينفضون رؤوسهم، هذا يقول: لا إله إلا الله والحمد لله، فتبيض وجوههم، وهذا ينادي: ﴿يَا حَسْرَتًا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] فتسود وجوههم» في حديث رواه البيهقي، وتجهز الركائب والسيارات الأخروية لأهل الإيمان؛ منهم من يركب بمفرده، ومنهم من يردف خلفه حبيباً أو عزيزاً له، وفي الحديث المتفق عليه: «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة طرائق راغبين وراهبين: اثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النار، يحشر المؤمنون راكبين يعرفون بنورهم الذي يشع بين أيديهم: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَآغْفِرْ لَنَا﴾ [التحریم: ٨] إلى أين يحشرون؟ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ

وَفَدَا ﴿ [مريم: ٨٥] إِلَى اللَّهِ... إِلَى اللَّهِ...، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ: قَرَّبُوا أَهْلَ لَا إِلَهَ إِلَّا
اللَّهُ فِي ظِلِّ عَرْشِي، فَإِنِّي أَحِبُّهُمْ...»

* * *

حرمة دخول أماكن المعصية

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ؛ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ؛ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ».

مضى ردحٌ طويل من الزمن وقرونٌ متطاولة حتى جاء عهد رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم، فرأى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وقد نزل بهم العذاب الشديد، فاستأصلهم عن بكرة أبيهم، ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨] نادى في جيش أصحابه: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، أَخْشَى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ، وَلَا تَشْرَبُوا مِنْ مِيَاهِهِمْ» ثم تقنّع وأسرع، وسار مع جيشه حتى بلغ بئر ناقة صالح التي كانت تشرب منها، فأمرهم بالشرب من هذه البئر، فإذا ببعض أفراد الجيش يستقي من آبار ثمود، فعجنوا ونصبوا القدور، فنادى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم: «الصلاة جامعة» جمعهم وقال لهم: «ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم؟!» وأمرهم أن يهرقوا القدور، وأن يطعموا العجيين الإبل، حديث متفق عليه.

فما الدلالة التي نستفيد منها اليوم؟ أَنَّ أماكن المعصية مقرّ غضب الرب، يحرم دخولها ولو تقادمت عليها العهود، كل مكان تقام فيه المعاصي، أو تراق فيه الخمر، أو تنتهك فيه الأعراض؛ يحرم دخوله، وكل شخص يدعو إلى دخولها يجب ألا يطاع، وهذه الفنادق الفخمة التي فيها قاعاتٌ تقام فيها حفلات عقد

قران، وفوقها قاعة تدار فيها القمار، وتحتها قاعة تراق فيها الخمر، وبجوارها أخرى تنتهك فيها الأعراض، وفيها النساء المومسات، وبعد حفلة المولد حفلة أغاني صاخبة من الأغاني المحرمة، كلها يحرم دخولها؛ لأنها مقر غضب الرب، وأنا الفقير أسأل: لماذا استبدلنا بالمساجد أماكن فيها أقوام يعصون الله تعالى؟ قاعات زينت جدرانها بأصناف الحجارة الكريمة يمنية ويسرة، والقاعة نفسها بعد المولد يقيمون فيها حفلة ماجنة في الليل!! أهذا من الدين؟!

لا يُستبدل بالمسجد بيت الليل الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعلنوا هذا النكاح، واجعلوه في المساجد» ولا يستبدل به قاعات الدنيا ولو فُرشت أرضها بالأزهار، ويجب على كل إنسان يدعي التدين ألا يدخلها...، العربي يأبى ذلك فكيف بالمسلم؟! عندما أحب أبرهة بناء كعبة في الحبشة ليصرف وجوه الناس إليها؛ لم يرض العرب أن يستبدلوا ببيتهم الحرام كعبة أبرهة، ونحن لا نستبدل بمساجدنا قاعة من قاعات اللهو الضخمة التي تدار فيها المعاصي واحدة تلو واحدة.

لقد أخرجنا البركة من بيوتنا بترك حفلات الموالد فيها ونقلها إلى تلك القاعات، ثم إن علينا أن ننزه ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أماكن المعصية؛ لأن ذكره طاهر مطهر، فلا ينبغي أن يجري ذكره في هذه الأماكن المشبوهة النجسة.

علينا أن نفعل كما فعلت أمُّ المؤمنين أم حبيبة الصديقة حين دخل عليها أبوها أبو سفيان وكان مشرّكاً، فأراد أن يجلس على فراش رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنزعته من تحته وقالت: إِنَّكَ مشرِكٌ نجسٌ، وهذا فراش رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا هو الدِّين، وأولئك هم المؤمنون حقاً، إِنَّ قومَ ثمودَ أدَّى بهم قتل الناقة إلى دمارهم وهلاكهم، فما بالُك بمن يقتل المسلمين كل يوم؟! واذكروا «في جهنم باب خاص لمن سلَّ السيف على أمةٍ محمّدة» كما رواه الترمذي، وأنَّ انتقام مولانا قادم اليوم أو غداً، فليحذر المنتهكون لحرّمة الله تعالى، فليحذروا انتقام مولانا، ﴿وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [هود: ١٢٢].

* * *

سورة الفاتحة

عن أَبِي بِنِ كَعْبٍ رضي الله عنه عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ مِثْلَ أُمِّ الْقُرْآنِ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَهِيَ مَقْسُومَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» رواه الترمذي.

أعظم سورة في القرآن فيها ٢٥ كلمة ١١٣ حرفاً، ولها ٢١ اسماً تدلُّ على شرفها؛ لأنَّ كثرة الأسماء تدل على شرف المسمَّى، منها: (أم القرآن، أم الكتاب، الشافية، والوافية، والواقية، والكافية، وسورة الحمد، والصلاة، والرقية، وأساس القرآن) ولقد انطوت تحتها جميع أغراض القرآن الكريم، وما فيه من العلوم والحكم، حتَّى كتب بها الرازي في «تفسيره» مجلداً كاملاً، وهل انتبهتم للحديث: «ما أنزلت في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها»، بل إليكم هذا الحدث المهم الذي ينقله سيّدنا جبريل عندما كان قاعداً عند النبي الكريم: صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمع صوتاً من السماء كأنه صوت باب قد فُتِحَ، فرفع رأسه، فقال: «هذا بابٌ في السماء فُتِحَ اليوم، لم يفتح قطُّ إلا اليوم، وهذا ملكٌ نزل إلى الأرض، لم ينزل قطُّ إلا اليوم، فسَلِّمْ وقال: أبشِر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك؛ فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته» رواه مُسَلِّمٌ.

هل تعرفون معنى «لن تقرأ بحرفٍ منهما إلا أعطيته» معناه: وأنت تقرؤها تستيقن وتجزم أن الله يستجيب لك، معناه: عندما تقرأ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

[الفاتحة: ٦]، فهذا يعني: أن الله سيهديك إلى الطريق الصحيح في حياتك وعملك، ويهديك لاتخاذ القرارات المناسبة في شؤون حياتك، ليست الهداية الدينية فحسب، بل كل أنواع الهداية ستتحقق لك، ستجد نفسك أنك تتخذ القرار الصحيح، وعندما تقرأ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فأنت توصل رسالة إلى عقلك الباطن؛ مفادها: أن العبادة لا تكون إلا لله، وأن الاستعانة لا تكون إلا بالله، ومع تكرار هذه الرسالة الإيجابية تكون قد غذيت دماغك بقناعة مهمة؛ وهي أن الله معك، وهذا سيمنحك الإحساس بالقوة بأن لديك معيناً قوياً قادراً على قضاء حوائجك، إنه قادر مقتدر، تستطيع أن تطلب منه أي شيء في أي موقف تتعرض له، فهل هناك أجل من هذا الإحساس؟! وكلمة: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣] تجعلك تحس بقوة غريبة؛ لأن الرحمن معك، وسوف تحس بقربه منك، وأنه سيكون معك في أصعب المواقف، وهذا سيعطيك شعوراً كبيراً بالراحة النفسية، وأنت تأوي إلى ركن شديد يزيل عنك الاضطرابات مهما كان نوعها، فإذا قلت: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] فأنت توصل رسالة إلى عقلك الباطن سيبقى أثرها أياماً، رسالة تقول لك: لا داعي لأن تحمل همّاً ما دام الله تعالى سيعوّضك خيراً، وما دام سيحاسبك كلاً على أخطائه، ولن يظلم أحداً.

إلى ديّان يوم الحشر نمضي وعند الله تجتمع الخصوم
 هذه رسالة الفاتحة إليك، فإذا ضمنت إلى ذلك أنها سبب في الشفاء باسمها (الشفافية) تم المقصود؛ كما حدث من سيدنا أبي سعيد لما رقى بها مريضاً أربعاً أو

سبعًا، فشفّي وأعطاه ثلاثين شاة، فأخبر الصحابةُ سيّدنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بما فعل، فقال: «وما يدريك أنها رقية؟!» فبارك عمله ورضيه.

يا شباب؛ في سورة الفاتحة أسرار خفية، ولغة لا نفهمها نحن، ولكنّ خلايا جسدنا تفهمها وتتفاعل معها، اجعلوها مع وردكم كل يوم سبعًا، تقيكم شر شياطين الإنس والجن، فهي (الواقية)، وتذكروا أننا -شئنا أم أبينا- نعيش عالمًا كاملاً من الجن والشياطين، وهذه المخلوقات لها قوانينها، ومن ضمن قوانين الشياطين أنّها لا تستسيغ سماع القرآن، وتنفر نفورًا شديدًا من أي بيت يقرأ فيه القرآن.

* * *

استشهاد سيدنا حمزة

عن أَبِي بِن كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أَحَدٍ أُصِيبَ مِنَ الْأَنْصَارِ أَرْبَعَةٌ وَسِتُونَ رَجُلًا، وَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ، فِيهِمْ حَمْزَةٌ، فَمَثَلُوا بِهِمْ، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: لَيْتَ أَصَبْنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِثْلَ هَذَا؛ لَنُرَبِّينَ عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ؛ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] فَقَالَ رَجُلٌ: لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُفُّوا عَنِ الْقَوْمِ إِلَّا أَرْبَعَةً»، رواه الترمذي بسندٍ حسنٍ.

أنعي إليكم اليوم استشهاد عمي حمزة أبي عُمارة، أسد الله وأسد رسوله، سيّد الشهداء، عن عمر ٥٧ سنة، هو عمُّ النبي الكريم وأخوه من الرضاعة، وأحد وزرائه الأربعة عشر، قال فيه رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم: «خير إخوتي علي، وخير أعمامي حمزة» وكان أسلم في السّنة الثانية للبعثة، أنعيه إليكم بعد أن قتل واحدًا وثلاثين نفسًا قبل أن يستشهد، واستشهد يوم أحد سبعون من خيرة الصحابة، فمَثَلُوا بِهِمْ بقطع أنف أو أذن، أو شقّ بطن، أو استخراج كبد، كان منظرًا تقشعر له الأبدان، وأقبل الناس على قتلاهم، فرأى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم ما فَعَلَ بشهداء أحد وخاصة عمه سيّدنا حمزة، فقال: «رحمك الله! فلقد كنت وَصُولًا للرحم، فَعَوَّلًا للخيرات، لن أَصَابَ بمثلِكَ أبدًا، ما وقفتُ موقفًا قطُّ أَغِظَ إِلَيَّ من هذا! والله لئن أَظْهَرَنَا الله عليهم يومًا من الدهر لأمثَلَنَّهُم مثله لم يمثّلها أحد من العرب».

فماذا كان ردُّ ربك على ناشر الهدى وواسع الندى؟ لقد أرسل الأمين جبريل
سفير الأنبياء وكبير أمناء وحي السماء، أرسله برقية عزاء عطرة في سيِّدنا حمزة،
اسمعوا نصّها كما نزلت: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ
خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا
يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٦ - ١٢٨]،
ونزلت هذه البرقية على قلب سيِّدنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بردًا وسلامًا، فقال:
«بل أرضى وأصبر يا رب» فعفا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصبر، ونهى عن
المثلة.

أيها الإخوة؛ يُشوّه الإعلامُ تاريخنا الناصع، فيصوِّرون لنا ما ورد في ضعيف
الآثار، ويتركون الصحيح منها، في قضية مقتل عمي سيِّدنا حمزة، يصورون أن
هندًا بنت عتبة زوجة أبي سفيان هي التي فعلت ما فعلت به، وهذه الروايات
ضعيفة الإسناد أو مرسلة أو رواها كذّاب؛ كالواقدي في «مغازيه» (١/ ٢٨٦)، أو
منقطعة لا تقوى على الاستشهاد بها؛ كما في «دلائل النبوة» (٣/ ٢٨٢) و«مسند
أحمد» (٤٤١٤) أنّه ضعيف منقطع، وقال ابن إسحاق: لا يصح، كما في «التهذيب»
(٣٩٩/ ٤) فما الراجح والصحيح في هذه المسألة؟

الحقُّ ما رواه الإمام البيهقي (٦٧٩٩)، والطبراني في الكبير (١٦٧): أن سيِّدنا
رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال يوم أحد: «من رأى مقتل حمزة؟» فقال رجلٌ
أعزل: أنا رأيت مقتله، قال: «فانطلق فأرنا» فخرج حتّى وقف على سيِّدنا حمزة،

فَرَّاهُ وَقَدْ شَقَّ بَطْنَهُ وَمُثِّلَ بِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ قَدْ مُثِّلَ بِهِ وَاللَّهِ، فَكَرِهَ رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، ثُمَّ وَقَفَ بَيْنَ ظَهْرِي الْقَتْلَى، فَقَالَ: «أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ، لُفُّوهُمْ فِي دِمَائِهِمْ، فَإِنَّهُ لَيْسَ جَرِيحٌ يَجْرَحُ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدْمَى، لَوْنُهُ لَوْنُ الدَّمِ وَرِيحُهُ رِيحُ الْمَسْكِ» ذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (١١٩/٦)، وَرَجَالُهُ رَجَالُ الصَّحِيحِ، وَلَوْ كَانَتْ هِنْدُ هِيَ الَّتِي فَعَلَتْ ذَلِكَ؛ لَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قَالَ لَوْحَشِيٍّ قَاتِلِ سَيِّدَنَا حَمْزَةَ لَمَّا أَسْلَمَ، قَالَ لَهُ: «غَيَّبَ عَنِّي وَجْهَكَ»؛ حَتَّى لَا يَتَذَكَّرَ مَقْتَلَ عَمِّهِ، وَلَكِنْ قَالَ لَهْنَدَ لَمَّا أَسْلَمَتْ: غَيَّبِي عَنِّي وَجْهَكَ!! وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ، فَهِيَ بَرِيئَةٌ مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهَا.

* * *

الإسراء والمعراج

عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَمَّا كَذَّبْتَنِي قُرَيْشٌ حِينَ أُسْرِيَ بِي إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ؛ قُمْتُ فِي الْحَجَرِ، فَجَلَّى اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، فَطَفَقْتُ أَخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ».

اعلموا أن الله ليس في السماء ولا في الأرض، ولا في مكان، ولا تحويه جهة، ولا يحتاج إلى محل، لا؛ وربُّ الضحى والليل إذا سجدى، بل هو خالق الأكوان، كان الله ولا شيء غيره، وهو الآن على ما عليه كان، ولكن أراد تشريف الملكوت وعالم السماء بنظرهم إلى حبيبهم العظيم الشأن، فأسرى به وعرج في ليلة واحدة، بل قالوا: في ثلث ليلة، يقظة لا منامًا، بالروح والجسد معًا، قبل الهجرة بسنة، ليلة السابع والعشرين من رجب الحرام، وغير ذلك ضعيف.

وآية الإسراء توضح ذلك بجلاء، فكلمة: ﴿سُبْحَانَ﴾ [الإسراء: ١] تقال لأمر عجيب وعظيم، فأنت تتعجب من جلال الله تعالى لحادثة الإسراء، ولو كان منامًا أو بالروح فقط؛ لما اقتضى هذا التعجب!

وكلمة: ﴿أُسْرَى﴾ لا تقال في النوم، بل هي للسير الحسي كما هو معهود.

وكلمة: ﴿بِعَبْدِهِ﴾ نصُّ قاطع في الموضوع، فهي لا تُطلق فيما تعرفه العرب إلا على الشخص بجملة، المكوّن من الروح والجسد: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [العلق: ٩، ١٠].

وقال تعالى: ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾: وفي (سورة النجم): ﴿أَفْتَأُورُنْهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٣ - ١٨]، فقال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾؛ أي: رأى سيّدنا محمّد سيّدنا جبريل على هيئته التي خَلَقَهُ اللهُ عليها، له ست مئة ألف جناح، وهذه إشارة قوية إلى حادثة المعراج إلى السماء، وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة: أنّه عرج به بعد الإسراء، أليس في هذا أكبر دليل لكل من له ذوق وإنصاف بأنه أسري به إلى بيت المقدس، ثم عرج به إلى الملأ الأعلى بجسمه وروحه؟؟ ولقد رأى سيّدنا جبريل عند سدرّة المنتهى التي عندها الجنة، ولما رجع إلى مكة، وأخبر قريشاً؛ صدّقه سيّدنا أبو بكر والصحابّة، وكذّبه أبو جهل وغيره...، وهل في الرؤيا المنامية مجادلة أو تكذيب؟ ثم قالوا مستبعدين: إِنَّا لَنَضْرِبُ أَكْبَادَ الْإِبِلِ شَهْرًا مُصْعِدًا وَشَهْرًا مُنْحَدِرًا، ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّكَ سَرَيْتَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانِنَا؟!

أما من الناحية العقلية فلم يعد الصعود إلى الفضاء صعباً، وقضية عرش بلقيس أكبر شاهد على ذلك، جاء عرشها من اليمن إلى فلسطين بلمح البصر: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠] فيجب الإيذان بذلك، ومَن أنكر الإسراء كفر، ومَن أنكر المعراج فسَقَ وخُشِيَ عليه، ويرحم الله تعالى البوصيري حين قال:

سريتُ من حرمٍ ليلاً إلى حرم كما سرى البدرُ في داجٍ من الظلم
وبتَّ ترقى إلى أن نلتَ منزلةً من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم

وقال أحمد شوقي:

والرسل في المسجد الأقصى على قدم	أسرى بك الله ليلاً إذ ملائكته
كالشهب بالبدر أو كالجندي بالعلم	لما خطرت به التقوا بسيدهم
ومن يفز بحبيب الله ياتم	صلّى وراءك منهم كل ذي خطر

* * *

أهل الفترة

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿[الإسراء: ١٥، ١٦].

ما الذي قاله علماء العقيدة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾؟ ومثلها في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [القصص: ٥٩]؟ قالوا: إنَّ أهل الفترة - وهم الذين عاشوا بين أزمنة بعث الرسل - غير معذبين؛ لأنَّهم لم تقم عليهم حجة الله تعالى بالرسول، فهم ناجون وإن بدَّلوا وغيَّروا وعبدوا الأصنام في زمن الفترة...

احفظوا هذا جيدًا: أهل الفترة هم الأقوام الذين كانوا بين أزمنة الرسل، ولم يرسل إليهم رسول؛ كالفترة بين سيِّدنا إسماعيل نبي العرب الأوَّل وسيِّدنا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبي العرب الثاني.

يقول مجدد القرن العاشر الهجري سيِّدنا الإمام السيوطي: لما دلت القواطع على أنَّه لا تعذيب حتَّى تقوم الحجة؛ علمنا أنَّ أهل الفترة غير معذبين؛ يعني: تواترت النصوص على أنَّه سبحانه لا يعذب أحدًا إلَّا بعد قيام الحجة عليه، فإذا علمنا أنَّ أهل الفترة ناجون على الراجح؛ علمنا أنَّ آباءه وأمهاته وأجداده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناجون ومحكوم بإيمانهم؛ لأنَّهم لم تبلغهم دعوة نبي، وقد زكَّى اللهُ آباءه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩] أمَّا حيننا

سَيِّدَنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ» رواه مُسْلِمٌ، فهو خيارٌ من خيار من خيار، أما المؤرخ الكلبيُّ صاحب كتاب «الأنساب» فيقول: (كتبتُ للنبي خمس مئة اسمٍ، فما وجدت فيهم سفاحًا، ولا شيئًا مما كانت عليه أمور الجاهلية).

حفظ الإله كرامةً لمحمَّدٍ آباءه الأجداد صونًا لاسمه
تركوا السفاح فلم يصبهم عاره من آدم وإلى أبيه وأمه
فالحقُّ الذي تلقى عليه الله تعالى: أن أبويه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناجيان،
وللسيوطي في هذه المسألة عشرةُ مؤلفات، كلها تصب في وجوب الأدب مع
رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

سئل ابن العربي المالكي الفقيه المحدث عن رجل قال: إنَّ آباء النبي في النار،
فقال عنه: إِنَّهُ ملعون؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ
اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، ولا أذى أعظم من أن يقال عن أبيه صَلَّى
اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّهُ في النار، ورحم الله حافظ الشام ابن ناصر الدين الذي قال:

حبا الله النبيَّ مزيدَ فضلٍ على فضلٍ وكان به رؤوفا
فأحيا أمَّه وكذا أباه لإيمان به فضلا منيفا

* * *

فضل صلاة الجماعة

عن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «فَضْلُ صَلَاةِ الْجَمْعِ عَلَى صَلَاةِ الْوَاحِدِ خَمْسٌ وَعَشْرُونَ دَرَجَةً، وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ»، يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَأُوا إِنَّ شِئْنَكُمْ: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

فضل صلاة الجماعة عظيم، وهذا الحديث فرع عن فضائلها، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ؟ إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عِنْدَ الْمُكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمْ الرَّبَاطُ» (رواه أحمد وأحمد ومسلم)، وإذا خرج إلى المسجد فهو في ضمان الله وحاميته: «ثَلَاثَةٌ فِي ضِمَانِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: رَجُلٌ خَرَجَ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ مَسَاجِدِ اللَّهِ...» (رواه أبو داود وابن حبان)، ويحشره الله في ظل عرشه يوم القيامة: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ... وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ» (رواه النسائي وأحمد، وهو حديث متفق عليه)، وله في كل خطوة ثوابان: «رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ» (رواه أحمد، وهو حديث متفق عليه)، و«أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ نُزْلًا كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ» (رواه أحمد، وهو حديث متفق عليه)، وله ثواب حجة وعمره: «مَنْ مَشَى إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فِي الْجَمَاعَةِ فَهِيَ كَحَجَّةٍ، وَمَنْ مَشَى إِلَى صَلَاةٍ تَطَوُّعٍ فَهِيَ كَعُمْرَةٍ...»، فإن مشى في الليل له ثواب آخر: «بَشَّرَ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (رواه أبو داود والنسائي)،

وإذا دعا بدعاء ابن ماجه: «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك»؛ أقبل الله عليه بوجهه، واستغفر له سبعون ألف ملك، فإذا دخل المسجد كان في صلاة ما كانت الصلاة تحبسه، وذُرَّ عليه البرُّ من السماء، وتوضع خطاياه على رأسه وكتفيه، فكلما ركع زالت عنه... وضحك الله إليه، وفي الحديث: «ومن ضحك الله إليه لم يعذبه أبداً» فأنت متوضئ في المسجد عدّاد الحسنات شغال، وفي جماعة الفجر والعشاء قال أيضاً: «بَشِّرِ الْمُشَائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، و«من صَلَّى خلف الإمام وانتظر حتّى يقوم؛ كتب الله له قيام ليلة» لأنّه احترم نائب سيّدنا رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم، و«من صَلَّى العشاء في جماعة كان كمن قام نصف الليل، ومن صَلَّى الفجر في جماعة كأنّه قام الليل كلّ» تلك عطايا وهبات وحسنات كالجبال، فلتغنم هذه الغنائم من دون ضربة سيف ولا طعنة رمح.



التوسل

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أنا سيّد ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ ولا فخرَ، وبِيدي لواءُ الحمدِ ولا فخرَ، وما من نبيٍّ يومئذِ آدمَ فَمَنْ سواه إلا تَحْتَ لوائي، فيأتيني النَّاسُ، فَأَنْطَلِقُ مَعَهُمْ... إلى أن قال: فأخِرُ ساجداً، فيُلْهِمُنِي اللهُ مِنَ الشَّاءِ والْحَمْدِ، فيُقالُ لي: ازْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَ، واشْفَعْ تُشْفَعْ، وَقُلْ يُسْمَعْ لِقَوْلِكَ، وَهُوَ الْمَقَامُ الْمُحْمُودُ الَّذِي قالَ اللهُ: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]».

هذه الأحاديث الصحيحة تردُّ على منكري التوسل، النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا أن نلجأ يوم القيامة إليه مباشرة لا إلى الأنبياء، قال: «أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة»؛ أي: تعالوا إليّ، الجؤوا إليّ؛ لأشفع لكم، وبعض الناس يقولون: لماذا لا نسأل الله مباشرة؟ وهل نحتاج إلى التوسل؟ ونحن نسأل: ألم يكن سيّدنا عمر يعلم أن الله قريب ولا يحتاج إلى التوسل؟ فلماذا توسل بسيّدنا العباس؟ لماذا لم يسأل الله مباشرة؟ إذن السؤال خطأ، السؤال يحدث شبهة خاطئة في عقول الناس، فليس معنى التوسل أن الله يحتاج إلى واسطة، التوسل معناه: أننا يجب أن نظهر الأدب مع الله تعالى، معناه أن تقول: يا رب؛ أعلم أنّك قريب ولا تحتاج إلى توسل، ولكني حياءٌ منك ولما أعلمه من تقصيري؛ فأنا أتوسل إليك بأحد أحبابك...، هذا سنفعله يوم القيامة، وقد ورد التوسل في حديث بلغ التواتر، وهو حديث الشفاعة، فعندما يشتد الكرب على الناس يذهبون إلى سيّدنا آدم، يقولون: يا آدم؛ اشفع لنا إلى ربك، وفي رواية أخرى للبخاري: فيستغيثون بآدم، إذن هؤلاء المنكرون لا

يكادون يفقهون حديثاً!! يجيزون التوسل فيما بينهم، يقول لصديقه: ناولني كذا، فيطلب منه، ويتوسل إليه...، وفي الآخرة يتوسلون بسيّدنا آدم، ثم هم يقولون: من توسل بالنبي أشرك؟! هل سمعتم؟ «يستغيثون بآدم»؟ عجيب!! ألا يعلمون يوم القيامة أنّ الله قريب، وأنّه لا يحتاج إلى واسطة؟! فلماذا يتوسلون بسيّدنا آدم، وسيّدنا آدم يعتذر؛ لأنّه لم يؤذن له بالشفاعة، فيقول: اذهبوا إلى غيري، بالله عليك؛ لو كان سيّدنا آدم يرى أن طلب الشفاعة حرام وشرك -كما يدّعون- أكان يقول: اذهبوا إلى غيري؟ هل يدل سيّدنا آدم على الشرك؟! والعياذ بالله! لو كان طلب الشفاعة والتوسل والاستغاثة منّا لبشر حراماً؛ لقال: لا تطلبوا الشفاعة من البشر، لكنّ الحديث صريح وصحيح، بلغ حد التواتر، ودرجة القطع، قال: اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، وسيّدنا نوح يعتذر فيقول: اذهبوا إلى موسى، وسيّدنا موسى يعتذر فيقول: اذهبوا إلى عيسى، كلهم يعتذرون؛ لأنهم لم يؤذن لهم بالشفاعة، لكن سيّدنا عيسى يقول: اذهبوا إلى محمّد... ولو كان طلب الشفاعة الاستغاثة بالبشر حراماً أو شركاً؛ لقال رسول الله: لا تطلبوا مني، اسألوا الله تعالى أن يُشفعني فيكم، هذا لو كان كلامهم صحيحاً، وهل يقبل محمّد شركاً؟! لكنه يقول صلّى الله عليه وسلّم: «أنا لها، أنا لها» هذا هو المقام المحمود.

فيا أخوتي! قولنا: (يا رب؛ بجاه سيّدنا محمّد، بجاه الصديق، بجاه الفاروق، بجاه سيّدنا الجيلاني، بجاه سيّدنا الرفاعي) صحيح صحيح صحيح، فاللهم بجاههم جميعاً فرج عنا وعن المسلمين.

* * *

أحوال الآخرة

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ: صِنْفًا مُشَاةً، وَصِنْفًا رُكْبَانًا، وَصِنْفًا عَلَى وُجُوهِهِمْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَكَيْفَ يَمْشُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ؟ قَالَ: إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَقْدَامِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَمَّا إِيَّاهُمْ يَتَّقُونَ بِوُجُوهِهِمْ كُلَّ حَدَبٍ وَشَوْكٍ»، وفي رواية: «إِنَّكُمْ مُحْشُورُونَ رِجَالًا وَرُكْبَانًا وَعَلَى وُجُوهِهِمْ» رواه الترمذي بسند حسن.

أمر الآخرة وأحوالها غير أمر الدنيا وأحوالها، فكل شيء في الآخرة جديد، ولا عهد للناس به، فهي حياة أخرى لها مميزات وكيفيات ليست في الدنيا، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤] الساهرة: هي الأرض الجديدة التي سيُحْشَرُ الناس عليها، أرض بيضاء عفراء، لم يُعمل عليها معصية قط، وليس فيما يعلم لأحد أرض ممتدة، يرى أولها آخرها، شأنها: أن الناس يسهرون فلا ينامون أبدًا، ويحشر العصاة على هيئة تختلف عن غيرهم، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]، ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمًيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، الكافر يمشي على وجهه كما كان يمشي هنا على رجليه، والكافر في الدنيا كان ذا عتو واستكبار، كان يمشي على رجليه متبخترًا معتزًا بنفسه، لا يحني رأسه لشيء غير هؤلاء، فلا يعرف التواضع،

بل كان يستنكف عن السجود لربه، والخضوع له، فعوقب بأنه يُسحب على وجهه؛
إظهارًا لهوانه، فقد صار وجهه مكان يده ورجله، فانتبه يا عبد الله.

ومن مشاهد الحشر الأخرى: فئات من الناس يحشرون في أحقر صفة وأذلها؛
وهم المتكبرون، يحشرهم الله كأمثال الذر، يغشاهم الذلُّ من كل مكان، روى
الترمذي بسند حسن صحيح حديث سيِّدنا جابر رضي الله عنه: «يبعث الله يوم
القيامة ناسًا في صور الذر، يطوُّهم الناس بأقدامهم، فيقال: ما هؤلاء؟ فيقال:
هؤلاء المتكبرون في الدنيا» فتلك حالة مخزية تناسب ما كانوا عليه في الدنيا من
تعاظم وغرور بأنفسهم، فالجزء من جنس العمل.

ومن المشاهد المخزية: أولئك المتسولون الذين عندهم ما يغنيهم، ومع ذلك
يسألون الناس، فيأتون يوم القيامة وليس في وجههم مُزعة لحم، رواه البخاري.

ومن مشاهد الحشر: اللصوص الذين يأكلون أموال المسلمين العامة، فإنهم
يُحشرون في هيئة تشهد عليهم بالخيانة والغلو، أما الخلق أجمعين فمن غلٍّ ولم يتب
فإنه سيُشهر به أمام الناس؛ زيادة للنكايه به، فيحمل على ظهره ما غل: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ
يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١] إن كان بغيرًا أو فرسًا أو
حمارًا...أو...أو... كله يحمله على رقبته.



دلائل النبوة

عن صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ رضي الله عنه: أَنَّ يَهُودِيَيْنِ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: اذْهَبْ بِنَا إِلَى هَذَا النَّبِيِّ نَسْأَلُهُ، فَقَالَ: لَا تَقُلْ: نَبِيٌّ، فَإِنَّهُ إِنْ سَمِعَهَا كَانَتْ لَهُ أَرْبَعَةٌ أَعْيُنٍ، فَأَتِيَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَاهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَسْحَرُوا، وَلَا تَمْشُوا بِرِجْلَيْهِ إِلَى ذِي سُلْطَانٍ فَيَقْتُلَهُ، وَلَا تَأْكُلُوا الرِّبَا، وَلَا تَقْدِفُوا مُحْصَنَةً، وَلَا تَفْرُوا مِنَ الزَّخْفِ، وَعَلَيْكُمْ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ خَاصَّةً: لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ»، فَقَبَّلَا يَدَيْهِ وَرَجَلَيْهِ، وَقَالَا: نَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ، قَالَ: «فَمَا يَمْنَعُكُمَا أَنْ تُسَلِّمَا؟» قَالَا: إِنَّ دَاوُدَ دَعَا اللَّهَ أَلَّا يَزَالَ فِي ذُرِّيَّتِهِ نَبِيٌّ، وَإِنَّا نَخَافُ أَنْ أَسْلَمْنَا أَنْ تَقْتُلَنَا الْيَهُودُ، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

هذه المعجزات التي آتاها الله تعالى الأنبياء والرسل الكرام تسمى عند علماء العقيدة والسيرة: (دلائل النبوة)، وعظمة سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ آتَاهُ مِثْلَ مَا آتَى الْأَنْبِيَاءَ وَزِيَادَةً، فَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ فِي مُقَدِّمَةِ «شرح صحيح مسلم»: أَنَّ مَعْجَزَاتِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَزِيدُ عَلَى أَلْفٍ وَمِئَتِي مَعْجَزَةً، ذَكَرَ مِنْهَا الْإِمَامَانِ الْبَيْهَقِيُّ وَأَبُو نَعِيمٍ الْأَصْبَهَانِيُّ فِي كِتَابَيْهِمَا «دلائل النبوة» أَلْفَ مَعْجَزَةٍ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

حبيبيك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سلمت عليه الجبال، وجاءت لدعوته
الأشجار والأحجار تسلم عليه، والجذع حنَّ إليه، الجذع يحن ونحن لا نحن!
والجبل يحب ونحن لا نحب!!

حبيبيك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الغيم ظلَّه، والضرع درَّ له، والجمل سجد له،
وفاض الماء من يده، ما مر على شجر ولا حجر إلَّا وقال: سلامٌ عليك يا طه.

وانسب إلى ذاته ما شئت من وانسب إلى قدره ما شئت من
فإنَّ فضل رسول الله ليس له حدُّ فيُعرب عنه ناطقٌ بفم
كلُّ ما في الأُمَّة اليوم من الاختلاف والافتتال، وهذا الهوان الذي أصبحنا عليه؛
كله أخبر به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، انقضت الأمارات الصغرى؛ التي منها
انشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام، والإسراء والمعراج،
والإخبار عن المغيبات، وانقضت الأمارات الوسطى؛ وهي كلُّ ما حدث بعد
وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما أخبرنا به، من أنَّ الإسلام سيعلو، وأنَّ الأُمَّة ستكون
غثاءً كغثاء السيل، وهذه الطائفية، وهذا الحصار، ولم يبقَ من الأمارات الوسطى
إلَّا ظهور جبل الذهب في نهر الفرات؛ كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَنْحَسِرُ
الْفُرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَيَقْتَتِلُ عَلَيْهِ النَّاسُ...»، وبعد هذا الافتتال، وبعد هذا
الاختلاف لن تجتمع الأُمَّة إلَّا عند ظهور الإمام المهدي الذي هو الحد الفاصل بين
الوسطى والكبرى من الأمارات.

اسمع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»، وقد مضى على هذا الكلام خمسة عشر قرناً من الزمان، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ومضى على هذا الكلام خمسة عشر قرناً، وقال: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨] فنصيحة لله: راجعوا حساباتكم، ونظموا أوقاتكم، وأقبلوا على ربكم بأداء الفرائض والسنن، وقيام الليل، وقراءة القرآن والأوراد، قال سيدنا ابن عمر: «دينك دينك، لحمك ودمك»، «ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد».

* * *

الشرك بالله تعالى

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٦].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ بْنِ أَبِي فَصَّالَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ؛ نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ اللَّهُ أَحَدًا؛ فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ» رواه الترمذي ومسلم في «الزهد».

المشركون ﴿ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ١٠٤]؛ لأنهم عملوا لغير الله تعالى، وما كان لغير الله تعالى فلا ينفع، قرنوا أعمالهم بالرياء، ووصفوا أحوالهم بالإعجاب، وأبطلوا إحسانهم بالمن والأذى، الأصل أن الآية: ﴿ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لليهود وغيرهم، ولكن لما وجَّه المسلم عمله لغير الله تعالى؛ صار مشركًا مشابهًا لهم، فقال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] أي: ليس لهم في الآخرة وزن ولا خطر، اليوم هم كالأنعام، وغداً واقعون ساقطو الأقدام، عقيدتهم باطلة، وأعمالهم على شريعة غير مرضية ولا مقبولة، أتعبوا أنفسهم فيما لا نفع فيه، فهلكوا وضيعوا ثمار أعمالهم.

في الآية توبيخ شديد لهم، مفادها الموجز: قل لهؤلاء الكفرة الذين عبدوا غيري: سيخيب سعيهم وآمالهم غداً... من يظن أن من اتخذ معبوداً دون الله؛ فإنَّ الله لن يعاقبه على ذلك؛ فهو مخطئ، يعاقبه الله بثلاث: ١- إحباط العمل ٢- إهدار الكرامة ٣- العذاب في نار جهنم.

انظروا: الذي يوجب إحباط العمل إمَّا فساد الاعتقاد أو المراءاة، فالرياء من أخطر الأمراض وأشدّها فتكاً في المسلم، وهو الشرك الخفي؛ بأن يقصد بالعمل غير وجه الله تعالى، والآية: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وروى أحمد: «مَنْ عَمَلَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَمَلٌ الْآخِرَةَ لِلدُّنْيَا؛ فَلَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ»، وروى مسلمٌ والترمذيُّ: «أَوَّلُ مَا يَقْضَى عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامِ رَجُلٌ تَعْلَمُ الْعِلْمَ، فَيُعْرِفُهُ نِعَمَهُ، فيقول: تعلمت فيك، فيقال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت ليقال: قارئ، ثم أمر به، فُسْحِبَ على وجهه حتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ»، وروى الطبرانيُّ: «مَنْ تَزَيَّنَ بِعَمَلِ الْآخِرَةِ وَهُوَ لَا يَرِيدُهَا وَلَا يَطْلُبُهَا؛ لُعِنَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»، وفي رواية للطبرانيُّ أيضاً: «مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ؛ طَمَسَ اللَّهُ وَجْهَهُ، وَحَقَّقَ ذِكْرَهُ، وَأَثَبَتْ اسْمُهُ فِي دِيْوَانِ أَهْلِ النَّارِ»، وروى الترمذي: «يُخْرَجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رَجَالٌ يَخْتَلُونَ الدُّنْيَا بِالْدِّينِ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنَ اللَّيْنِ، أَلَسْنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذَّنَابِ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَبِي يَغْتَرُّونَ؟ وَعَلَى عِظَمَتِي يَجْتَرُّونَ؟! فَبِي حَلَفْتُ لَا بُعْثَنَ عَلَيْهِمْ فِتْنَةٌ تَدْعُ الْحَلِيمَ حَيْرَانٌ».

وروى أحمد والبيهقي في «الشَّعب»: «إِنَّ أَخُوفَ مَا أَخَافَ عَلَى أُمَّتِي الشَّرْكَ الْأَصْغَرَ» قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء، يقول الله عزَّ وجلَّ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تِرَآؤُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عَنْدهُمْ جِزَاءً؟!» وروى الطبراني والبيهقي في «الشَّعب»: «يُؤْمَرُ بَأَنَاسٍ إِلَى الْجَنَّةِ، حَتَّى إِذَا دَنَوْا مِنْهَا وَاسْتَنَشَقُّوا رِيحَهَا، وَنَظَرُوا إِلَى قُصُورِهَا وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا مِنْهَا؛ نَوَدُّوا: أَنْ أَصْرَفُوهُمْ عَنْهَا، لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهَا، فَيَرْجِعُونَ بِحَسْرَةٍ مَا رَجَعَ الْأَوَّلُونَ بِمِثْلِهَا، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا لَوْ أَدْخَلْتَنَا النَّارَ قَبْلَ أَنْ تَرِينَا مَا أَرَيْتَنَا مِنْ ثَوَابِكَ، وَمَا أَعَدَدْتَ فِيهَا لِأَوْلِيَائِكَ؛ كَانَ أَهْوَنَ عَلَيْنَا، قَالَ: ذَلِكَ أَرَدْتُ بِكُمْ، كُنْتُمْ إِذَا خَلَوْتُمْ بَارَزْتُمُونِي بِالْعِظَائِمِ، وَإِذَا لَقِيتُمُ النَّاسَ لَقِيتُمُوهُمْ مَخْبِتِينَ، تِرَآؤُونَ النَّاسَ بِخِلَافِ مَا تَعْطُونِي مِنْ قُلُوبِكُمْ، هَبِيتُمُ النَّاسَ وَلَمْ تَهَابُونِي، وَأَجَلَلْتُمُ النَّاسَ وَلَمْ تَجُلُّونِي، وَتَرَكْتُمُ النَّاسَ وَلَمْ تَتَرَكَوْا لِي، الْيَوْمَ أَذِيقُكُمْ أَلِيمَ الْعَذَابِ، مَعَ مَا حَرَمْتُمْ مِنَ الثَّوَابِ».

وروى أحمد والطبراني: «اتَّقُوا الشَّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ»، قولوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَشْرَكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْمَلُهُ.



ثمرات الحب في الله تعالى

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نادى جِبْرِيلُ: إِنِّي قَدْ أَحْبَبْتُ فَلَانًا فَأَحَبَّهُ، قال: فَيُنَادِي فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ تُنْزَلُ لَهُ الْمَحَبَّةُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] وإذا أَبْغَضَ اللَّهُ عَبْدًا نادى جِبْرِيلُ: إِنِّي قَدْ أَبْغَضْتُ فَلَانًا، فَيُنَادِي فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ تُنْزَلُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ».

هذا الحديث ثمرة من الثمرات العظيمة لمحبة الله لعبده، فإذا أحببك الله فلا تسأل عن الخير الذي سيصيبك، والفضل الذي سينالك، فيكفي أولاً أن تعرف أنك حبيب الله تعالى، والثمرة الثانية التي تلحق أحبابه، بل هي ثمرات مذكورة في حديث الولي عند البخاري: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتَهُ بِالْحَرْبِ»، والولي حبيب الله تعالى؛ لذا تولاه، ماذا أعطى الله لوليه من الثمار؟ قال: «وَمَا زَالَ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ».

سيدنا الجيلاني كان يرى ويسمع أهل مكة وهم يطوفون حول الكعبة وهو ما زال شاباً، «وَيْدُهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا»: الإمام البدوي من ألقابه: جِيَابُ الْأَسِيرِ، «وَرِجْلُهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»: قيل لأحد الأولياء: قالوا: إِنَّكَ تَمْشِي عَلَى الْمَاءِ؟ قال: لا، ولكن إذا أردت عبور نهر؛ جمع الله تعالى لي طرفاه، فَأَتَخَطَّاهُ بِخُطْوَةٍ وَاحِدَةٍ.

فالولي يصبح كالملائكة ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾
 [التحریم: ٦]، لكن السؤال المهم: كيف أعرف أن الله تعالى يحبني؟ ما الصفات
 التي يجب أن أتحملي بها لأصبح حبيب الله تعالى؟ هناك علامات كالمفتاح للباب: ١ -
 اتباع هدي النبي الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ
 فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، ٢ - الذلة للمؤمنين،
 ٣ - العزة على الكافرين، ٤ - الجهاد في سبيل الله، ٥ - عدم الخوف إلا منه سبحانه.

وهذه الأربعة الأخيرة ذكرت في آية واحدة في كتاب الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى
 الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة:
 ٥٤] هذه الآية فيها صفات القوم الذين يحبهم الله تعالى، وكانت أولى الصفات:

١ - التواضع وعدم التكبر على المسلمين.

٢ - العزة على الكافرين، فلا يذل لهم ولا يخضع.

٣ - الجهاد في سبيل الله تعالى؛ جهاد الشيطان، وجهاد الكفار والمنافقين، وجهاد
 النفس الأمارة بالسوء.

٤ - لا يخافون لومة لائم، لا يهمله بعدها من يسخر منه أو يلومه.

٥ - القيام بالنوافل: «وَمَا زَالَ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ» (نوافل
 الصلاة والصدقة والصيام والحج والعمرة) انظر أخي المسلم ما يناسبك منها

ونفذهـا، هـنـاك أنـاس لا يـسـتـطـيـعـون الصـوم لـكنـهـم يـصـلـون أو يـتـصـدقـون: (لـقـمـة فـي بـطـن جـائـع خـيـر مـن بـنـاء جـامـع).

٩-٦ الحُبُّ والتزاور والتبازل والتناصح في الله تعالى، كلها جاءت في حديث واحد عن سيدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه عزَّ وجلَّ: «حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَوَاصِلِينَ فِيَّ» رواه أحمد، وفي رواية ابن حبان: «لِلْمُتَنَاصِحِينَ فِيَّ».

ليس من الضروري أن تتصف بها جميعاً، لكن انتقِ ما أنت قادر على أن تفعله منها؛ المتزاورون بعضهم لبعض ابتغاء مرضاة الله تعالى وتعاوناً على طاعته، والمتبازلون يبذلون أنفسهم في مرضاة الله، من أجل جهاد عدو أو إنقاذ ملهوف.

١٠- والأخيرة من علامة محبة الله لعبده: الابتلاء، ففي المصائب امتحان للعبد، وهي علامة حب الله تعالى له، هي كالدواء وإن كان مرّاً، إلّا أنّك تقدمه على مرارته لمن تحب! والله المثل الأعلى، في حديث الترمذي وابن ماجه: «إِنْ عِظَمَ الْجَزَاءُ مِنْ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ...»، يا شباب؛ نزول البلاء خير للمؤمن من أن يدخر له العقاب في الآخرة، كيف لا، وفيه تُرْفَعُ الدرجات وتكفّر السيئات؟! وروى الترمذي: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُؤَافِيَهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وهذا للمنافق كما بين أهل العلم.

إخوتي؛ محبة الله تعالى لا تقدر بثمن، احفظوا شرطاً المحبة اللذان في آخر (سورة
مريم): ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم:
٩٦].

* * *

وجوب قضاء الصلوات

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ خَيْبَرَ؛ أَسْرَى لَيْلَةً، حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْكَرَى أَنَاخَ فَعَرَّسَ، ثُمَّ قَالَ: «يَا بِلَالُ؛ اكْمَلْ لَنَا اللَّيْلَ» فَصَلَّى بِلَالٌ، ثُمَّ تَسَانَدَ إِلَى رَاحِلَتِهِ مُسْتَقْبِلَ الْفَجْرِ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، فَنَامَ، فَلَمْ يَسْتَيْقِظْ أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَاسْتَيْقِظَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّهَهُمْ، فَقَالَ: «أَيُّ بِلَالُ!» فَقَالَ: يَا أَبَايَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَخَذَ بِنَفْسِي الَّذِي أَخَذَ بِنَفْسِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اِقْتَادُوا» ثُمَّ أَنَاخَ، فَتَوَضَّأَ، فَأَقَامَ الصَّلَاةَ، ثُمَّ صَلَّى مِثْلَ صَلَاتِهِ لِلْوَقْتِ، ثُمَّ قَالَ: «﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]»، رواه الترمذي.

الصلوة واجبة على المسلم المكلف، ودليل ذلك الوجوب القرآن والسنة وإجماع الأمة، وليس القياس، وذمة المسلم مشغولة بتلك العبادة الواجبة عليه حتى يؤديها، فإن لم يؤديها في وقتها وجب عليه قضاؤها، وقد قضاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة يوم الخندق، فإنه لم يصل هو ولا أصحابه الظهر ولا العصر حتى غربت الشمس؛ لشغله بالحرب، ولم يكن يؤمئذ ناسياً ولا نائماً، وصلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظهر والعصر في الليل، فكيف تسقط عبادة عن مسلم استقرت في ذمته من دون دليل؟ لا من كتاب ولا من سنة ولا إجماع؟

لا تسلّموا لمن يقول: لا قضاء على المسلم للصلوات التي فاتته؛ بحجة أنه كفر، فتارك الصلاة كسلاً ليس بكافر، بل هو فاسق، ولو كان كافراً لما ورثنا منه، ولما غسلناه، وكفناه، وصلينا عليه، ودفناه في مقابر المسلمين، ولفرّقنا بينه وبين زوجته،

وهذا لم يقله أحد من المسلمين، كيف تكفّره وهو مقرّ بالوحدانية، ويشهد بالرسالة
لنبينا صلّى الله عليه وسلّم؟!!!

قال الشافعي للإمام أحمد: أتقول عن تارك الصلاة كسلاً: إنّه كافر؟ قال: نعم،
قال: كيف يُسلم؟ قال: ينطق بالشهادتين، فقال: هو مديم لها غير منكر، قال:
يصلي، قال: الصلاة لا تقبل من كافر! فسكت الإمام أحمد!!

إن الأحاديث الشريفة تمنع من التكفير، وتوجب الرجاء لمرتكبي الكبائر إذا
تابوا.

وفي الحديث المتفق عليه عن عبادة بن الصامت قال: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ،
وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ؛ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا
كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»، وعندما ذكر لابن عباس حديث تارك الصلاة كسلاً، وذكروا له
حديث: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، من تركها فقد كفر»؛ قال: ليس بالكفر
الذي تذهب إليه، إنّه ليس بكفرٍ ينقل عن الملة.

إذاً كلُّ الأحاديث التي استدل بها على تكفير تارك الصلاة كسلاً محمولة على
سبيل التغليظ والتشبيه له بالكفار، لا على الحقيقة، والعجيب أنهم يقولون بعدم
قضاء الصلاة الفائتة! وهم يقرؤون قوله صلّى الله عليه وسلّم: «دَيْنُ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ
يُقْضَى»، يقررون قضاء الصوم والزكاة والحج، ولا يقولون بقضاء الصلاة، فهؤلاء
فرقوا بين أركان الإسلام!

يا شباب؛ رأس مال المسلم دينه، فلا يخلّفه في الرحال، ولا يآتمن عليه الرجال، الصلاة دين «دينك دينك، لحمك ودمك»، وتارك الصلاة أمره إلى الله تعالى، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له.

اسمعوا القواعد من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: «خمس صلوات كتبهنَّ الله عزَّ وجلَّ على العباد، فمن جاء بهنَّ لم يضيعَ منهنَّ شيئاً استخفافاً بحقهنَّ؛ كان له عهد من الله أن يدخله الجنة، ومن لم يأتِ بهنَّ فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه، وإن شاء أدخله الجنة» رواه مالك وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان.

قضاء الصلاة واجبٌ باتفاق الأئمة الأربعة، وحكى ابن قدامة الإجماع عليه، فلا عذر لأحد في ترك فرض قد وجب عليه، يقول الإمام الجليلاني: لا تسقط الفرائض عن أحد بحال من الأحوال، وقضاء الصلاة فوريٌّ عند المالكية والحنابلة، وعند الشافعية: إن فاتته بعذر قضاها على التراخي، وإن فاتته بغير عذر فعلى الفور، وعند الحنفية: جواز التأخير على الصحيح.

* * *

الحساب والميزان

قال الله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

تسجل الملائكة أعمال بني آدم في الدنيا في ملفّات، وهذه الملفّات تكون مطوية مخفية سرّاً، لا يدري الخلق عنها شيئاً، فإن تاب العبد من ذنوبه المدونة توبةً صادقة؛ مُحِيت منها، وإلا بقيت، فإذا حلّ يوم الحساب نُشِرت وأُعلنت؛ كنتائج الامتحانات تكون سرّاً، فإذا جاء وقت إعلانها عرف الناس ذلك، وافتضح أمر الراسب بين أهله وإخوانه، لكن الفضيحة الكبرى هي التي تكون على رؤوس الخلائق، فالراسب في امتحان الدنيا يسقط في صفه، ويخسر سنةً من عمره، أمّا الراسب هناك فيسقط في جهنم، ويخسر سعادة الأبد.

لن يستطيع أحد أن يختفي بذنبه من الله تعالى، والله مطلعٌ عليه، وأعضاؤه التي يمارس بها الذنوب ستشهد عليه، فكيف ستتوارى من شاهدٍ هو معك لا يستطيع أن يفارقك؟! ﴿وَقَالُوا لِحُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]، يوم القيامة توزن الحسنات والسيئات، فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال حبة؛ دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال حبة؛ دخل النار، فإن استوت حسناته وسيئاته؛ وقف على الأعراف بين الجنة والنار حتّى يقضى فيه، والحسنة: ما يُمدح فاعلُها عليها شرعاً، وسُمّيت حسنةً لحُسْن وجه صاحبها عند رؤيتها في ميزان حسناته.

يحاسبنا ربنا ويزن أعمالنا ليقيم علينا الحجة؛ لأنَّ شعار يوم القيامة: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧] وقد يأتي المسلم بحسنات كأمثال الجبال، ثم تصبح لا قيمة لها في الميزان، ومصادقه حديث: «اتَدْرُونَ مِنَ الْمُفْلِسِ؟!» رواه مُسلمٌ، فتلك نهاية مفجعة عند الميزان، ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾ [المعارج: ١٠] ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً﴾ [لقمان: ٣٣] يلقي الولد أباه، فيقول: يا أبتاه؛ لقد كنتُ بك برّاً، وإليك محسناً، وعليك مشفقاً، فهل أجد لديك حسنة يعود عليّ خيرها اليوم؟ فيقول أبوه: يا بني؛ ليتني أستطيع ذلك، إنني أشكو مما منه تشكي، ثم تلقى الأم ولدها في ساحة القيامة، فتقول: يا بني؛ لقد كان بطني لك وعاءً، وثديي لك سقاءً، وحجري لك حواءً، فهل أجد معك حسنة يعود عليّ خيرها؟ الأم تسأل ولدها حسنة؟! الأم تتضرع إلى ولدها وتذكره بآلائها ومتاعبها وآلامها!! فماذا يقول ولدها؟ يقول: يا أماه؛ ليتني أستطيع ذلك، إني أشكو مما منه تشكين!! الموقف عصيب يوم القيامة؛ لذلك قدّم لنفسك اليوم، قبل ذلك اليوم، فكلُّ عمل صالح قدّمته في حياتك تلقاه هناك، وأحسنُ ما تلقاه حسنُ الخلق.

روى أحمد: «ما يوضع في الميزان أثقل من خُلُقٍ حسنٍ»، وروى مُسلم: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ»، وروى البخاريُّ: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»، وفي حديث البطاقة أنها ترجح على ٩٩ سجلاً، وسيّدنا آدم أمام الميزان، رواه ابن أبي الدنيا.

* * *

أهل الجنة

عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ كُلَّ أَلْفٍ تَسْعُمِيَّةٍ وَتَسْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدٍ فِي الْجَنَّةِ» فَبَيَّسَ الْقَوْمُ حَتَّى مَا أَبَدُوا بِصَاحِكَةٍ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي بِأَصْحَابِهِ؛ قَالَ: «اعْمَلُوا وَأَبْشَرُوا، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ إِنَّكُمْ لَمَعَ خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتَا مَعَ شَيْءٍ إِلَّا كَثَّرْتَاهُ؛ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَمَنْ مَاتَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَبَنِي إِبْلِيسَ» فَسَرَّيَ عَنْ الْقَوْمِ بَعْضُ الَّذِي يَجِدُونَ، فَقَالَ: «اعْمَلُوا وَأَبْشَرُوا، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ الْبَعِيرِ، أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ»، لفظ الترمذي.

أبشروا يا إخوة، فأهل النار من غيركم، وأنتم أول من يدخل الجنة من الأمم، وهأهو الحبيب الأعظم يشرنا ويقول: «إِنَّ سَبْعِينَ أَلْفًا مِنْ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَلَمْ تَسْتَزِدْ رَبَّكَ؟ قَالَ: «لَقَدْ اسْتَزَدْتُهُ» قَالُوا: فَمَاذَا أَعْطَاكَ؟ قَالَ: «أَعْطَانِي مَعَ كُلِّ مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا سَبْعِينَ أَلْفًا» قَالُوا: أَلَمْ تَسْتَزِدْ رَبَّكَ؟ قَالَ: «لَقَدْ اسْتَزَدْتُهُ» قَالُوا: فَمَاذَا أَعْطَاكَ؟ قَالَ: «أَعْطَانِي رَبِّي ثَلَاثَ دَفْعَاتٍ بِيَدِهِ الْكَرِيمَةِ، وَلَا يَعْلَمُ مِقْدَارَ عَطِيَّةِ الْكَرِيمِ إِلَّا الْكَرِيمُ وَحْدَهُ».

أتدرون مَنْ الذي سيكون رئيسًا على هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب؟ إِنَّهُ سَيِّدُنَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، فَمَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلَا غَرَبَتْ عَلَى رَجُلٍ بَعْدَ النَّبِيِّينَ أَفْضَلَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ.

تعالوا ندخل اليوم معاً إلى سرادقات الجنة، تلك القصور الفاخرة؛ لنرى جميعاً الفضل العظيم الذي أولاه الله تعالى لأهل محبته وطاعته ووداده، فإن الله عز وجل أعد لهم ما يفوق كل وصف، ويفوق كل صفة: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] ومما ورد في الأحاديث الصحيحة:

١- أن أهلها ثيابهم من حرير، ٢- ويُحَلَّلُونَ من أساور من ذهب، ٣- وعلى رؤوسهم تيجان الدر والياقوت، ٤- ولهم أزواج يفوق جواهر زوجات الدنيا بأضعاف مضاعفة، ٥- متكئين على فرش من الحرير الأخضر، ٦- يطوف عليهم الغلمان الصغار الذين آتاهم الله قدرًا من الحسن والجمال؛ إذ خلقهم خصيصًا لأهل الجنة، ٧- والجنة درجات بين كل درجتين منها كما بين السماء والأرض، ففي حديث البخاري: «إذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تتفجر أنهار الجنة»، ٨- وللمؤمن في الجنة: «خيمة من لؤلؤة مجوّفة طولها ستون ميلاً - (٩٠ كم) - فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضاً» حديث متفق عليه، خيمة واحدة أبعد مما بين دمشق والنبك، أعدها الله تعالى لرجل من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ٩- وفي الجنة بيوت لمن بنى الله مسجداً في الدنيا، ١٠- وقصر لمن مات ولده فاسترجع، فيقول الله لملائكته: «ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة، وسمّوه بيت الحمد» حديث متفق عليه، ١١- وفي الجنة طوابق من نور ولؤلؤ ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ عُرفٌ مِنْ فَوْقَها عُرفٌ﴾ [الزمر: ٢٠]، أتدرون لمن هي؟ «لن أطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام» حديث متفق عليه، أتدرون من آخر أهل النار خروجاً

منها، وآخر أهل الجنة دخولا فيها؟ هو رَجُل يخرج من النار حَبَوًّا، فيقول الله تعالى: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيُخَيَّلُ إليه أنَّها مَلَأَى، فيرجع فيقول: يا رب؛ وجدتها مَلَأَى، فيقول الله تعالى: اذهب فادخل الجنة؛ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعِشْرَةَ أَمْثَالِهَا، فيقول: أَتَسْخَرُ بِي وَأَنْتَ الْمَلِكُ؟ قَالَ: فَضَحَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، وَقَالَ: «فَذَلِكَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةٌ!»، حَدِيثٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، فَشَمَّرُوا عَنْ سَاعِدِ الْجَدِّ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْعَمَلِ: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، وَطَيَّبُوا نَفْسًا مَا دَامَ نَبِيُّكُمْ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



خصائص البيت الحرام

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (لَمَّا أُخْرِجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَكَّةَ؛ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرِجُوا نَبِيَّهُمْ!! لِيَهْلِكُنَّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلْمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ * الَّذِينَ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿[الحج: ٣٩، ٤٠]، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ سَيَكُونُ، رواه الترمذي.

الله تعالى خواص في الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فخصَّ الله البيت الحرام بخصائص، فهو أول بيت وضع للناس كما في القرآن الكريم، وجعل الصلاة فيه أفضل من مئة ألف صلاة، ومن قدسيَّتها أن الله تعالى سمَّاها بيته؛ لجلالها ومحبتها، فقال: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦] ولو لم يكن لها من شرف إلا إضافته إياه لذاته؛ لكفى فضلاً وشرفاً، وهي قبلة أهل القرى، سمَّاها القرآن أمَّ القرى، فهي قبلة أهل الأرض، وليس على وجه الأرض قبلة غيرها، ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٩] إنَّها قبلة من عظمتها أنه يحرم استقبالها واستدبارها في الصحراء عند قضاء الحاجة دون سائر البقاع، ومن دخلها كان آمناً، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥] يثوبون إليه على تعاقب الأعوام في جميع الأقطار، يفارقون الأهل والأوطان، وينفقون في حبه الأموال والأرواح، فمن عظمتها أن الله اختارها لمناسك الحج، وجعل القصد

إليها عبادةً ترفع الدرجات وتمحي السيئات، وفي الحديث: «من حجَّ لله فلم يرفث ولم يفسق؛ رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»، ولا تشدُّ الرحال إلَّا إليها وإلى مسجد النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسجد الأقصى؛ لقدسيَّتها عند الله تعالى؛ كما في الحديث: «لا تشد الرحال إلَّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»، وحين أخرج منها الحبيب الأعظم وقف خارجها ليقول لها: «والله إنَّك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنَّ قومك أخرجوني منك؛ ما خرجتُ» وقال: «ما أطيبك من بلد وأحبك إلي! ولولا أنَّ قومي أخرجوني منك؛ ما سكنت غيرك» وجعل الله تعالى المعصية فيها مضاعفة، فقال: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]؛ لذلك كان لسيِّدنا عبد الله بن عمرو بن العاص خيمتان ينصبهما؛ خيمة خارج مكة وخيمة داخل مكة (الحرم)، فإذا أراد أن يعاقب أهله عاقبهم في الحلِّ، وإذا أراد أن يصليَّ صَلَّى في الحرم، وهذا تحذيرٌ شديدٌ لمن يرتكب المنكرات العظيمة والكبائر الموبقة في مكة؛ كالربا والزنى والاستماع إلى الغناء المحرم، وكفى بك أن تعتبر بأصحاب الفيل الذي أرادوا سوءًا بالكعبة المشرفة، فجعلهم الله كعصفٍ مأكول!



أكل الحلال وآداب الدعاء

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، قَالَ: وَذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ؛ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!»، رواه الترمذي ومسلم.

هذا الحديث أحد الأحاديث التي عليها قواعد الإسلام، ومباني الأحكام؛ كما قال الإمام النووي، فيه الحثُّ على الإنفاق من الحلال، فالله تعالى حَرَّمَ الخبائث، وقد وصف نبيه الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال في صفته: ﴿يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ومعنى «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ» أي: مُنَزَّهٌ عَنِ النِّقَاصِ، وَمَقْدَّسٌ عَنِ الْآفَاتِ وَالْعُيُوبِ، طَيِّبٌ فِي ذَاتِهِ، طَيِّبٌ فِي صِفَاتِهِ، طَيِّبٌ فِي أَعْمَالِهِ، وفوائد هذا الحديث جمة؛ ففيه بيان شروط الدعاء وموانعه وآدابه.

أَوَّلًا: أَنْ يَكُونَ الدَّاعِي طَيِّبَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَلْبَسِ، وَهَذَا وَاضِحٌ فِي الْحَدِيثِ: «ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ [فِي الْحَجِّ وَزِيَارَةِ الْأَقْرَبَاءِ] أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ؛ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ؟!». «.

الثاني: ألا يدعو بمعصية وعجّال، فلا يستعجل الإجابة، «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوتُ فلم يستجب لي!».

الثالث: أن يكون حاضر القلب؛ للنهي عن الدعاء مع الغفلة، «إنَّ الله لا يستجيب دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ».

الرابع: أنه يحسن ظنه بالإجابة؛ لقوله: «أنا عند ظن عبدي بي».

الخامس: رفع يديه بالدعاء، قال الإمام النووي في «شرح صحيح مسلم»: قد ثبت رفعُ يديه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الدعاء في مواطن، وهي أكثر من أن تحصى، قال: وقد جمعتُ منها نحوًا من ثلاثين حديثًا في «الصحيحين»، بل إنَّ رفع اليدين بالدعاء ثابتٌ بأحاديثٍ بلغت مبلغَ التواتر المعنوي، كما قال الإمام السيوطي رحمه الله تعالى.

ففي هذا الحديث: ١- تعظيم شأن الحلال وعلوُّ قدره عند الله تعالى، ٢- تشريفٌ للمؤمنين حين أمرهم الله تعالى بما أمر به المرسلين، ٣- المطعم والمشرب من الحرام يمنع قبول العمل وإجابة الدعاء، ٤- وصف الله تعالى بالطيب، ففيه تنزيهه تعالى عن كل نقص؛ لذا دعونا نصحح مسارنا مع الله، لعلَّه يرفع عنا العذاب.



الحدود في الإسلام

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَرِيكَ ابْنِ سَحْمَاءَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْبَيْتَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إِذَا رَأَى أَحَدُنَا عَلَى امْرَأَتِهِ رَجُلًا يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ الْبَيْتَةَ؟! فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «الْبَيْتَةُ وَإِلَّا حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»، فَقَالَ هِلَالٌ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ؛ إِنِّي لَصَادِقٌ، فَلْيَنْزِلَنَّ اللهُ مَا يُبْرِئُ ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ بِالْآيَةِ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٦]، فأنصرف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَجَاءَ هِلَالٌ فَشَهِدَ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟» ثُمَّ قَامَتْ فَشَهِدَتْ، فَلَمَّا كَانَتْ عِنْدَ الْخَامِسَةِ وَقَفُوهَا وَقَالُوا: إِنَّهَا مُوجِبَةٌ، فَتَلَكَّاتٌ وَنَكَصَتْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهَا تَرْجِعُ، ثُمَّ قَالَتْ: لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ الْيَوْمِ، فَمَضَتْ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَبْصُرُوهَا؛ فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلُ الْعَيْنَيْنِ، سَابِغَ الْأَلْتَيْنِ، خَدَلَجَ السَّاقَيْنِ؛ فَهُوَ لَشَرِيكَ ابْنِ سَحْمَاءَ» فَجَاءَتْ بِهِ كَذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ لَا مَا مَضَى مِنْ كِتَابِ اللهِ؛ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ».

زَادَ فِي رَوَايَةٍ: «ثُمَّ قَضَى بِالْوَلَدِ لِلْمَرْأَةِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْمُتَلَاعِنَيْنِ، ثُمَّ جَرَتْ السُّنَّةُ فِي الْمِيرَاثِ أَنْ يَرِثَهَا وَتَرِثَ مِنْهُ مَا فَرَضَ اللهُ لَهَا»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ.

الحدود أملٌ لكلِّ تائبٍ في الله تعالى أنه قد غفر له، وإلَّا طارده شبحُ الجزاء القاسي في الآخرة على فعلته في لحظة يتمكّن منه الشيطان فيها، كلُّ مسلمٍ إيمانه صاحٍ يحس إذا عمل ذنبًا أو كبيرةً أنّه يحمل على أكتافه جبالًا ينوء بحمله، فكانوا يأتون إلى سيّدنا النبي صلّى الله عليه وسلّم يعترفون بذنوبهم؛ ليطهرهم ويزيلوا الأثر النفسي الثقيل للكبيرة.

سيّدنا ماعز لما زنى جاء إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم يقول: زنيت يا رسول الله، فطهرني...، والسيدة المرأة الغامدية جاءت وهي حامل تقول: طهرني يا رسول الله، فقد زنيت...، رغم أنّ في ذلك موتهم، لكنّ فيه راحتهم؛ بأنّ الله قد غفر لهم، فكان عندهم أمل بالمغفرة، وأنّ الحدود المقدرة في كتاب الله عزّ وجلّ مكفّرات لتلك الذنوب، فإنّما سُمّيت كفاراتٍ لأنّها تكفّر الذنوب؛ أي: تسترها، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حريصًا على الصحابة أن تبقى سيرتهم طاهرة، فكان يأخذ عليهم العهود والمواثيق ألا يرتكبوا الكبائر الموبقة التي تسبب دخول النار؛ كما في الحديث المتفق عليه عن عبادة بن الصامت: كنّا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في مجلس، فقال: «تبايعوني على: ١- ألاّ تشركوا بالله شيئًا، ٢- ولا تزنوا، ٣- ولا تسرقوا، ٤- ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلاّ بالحقّ، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك فعوقب به؛ فهو كفارة له، ومن أصاب شيئًا من ذلك فستره الله؛ فأمره إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عدّبه».

ما رأيكم أن نشارك الصحابة بالبيعة؟ بايعوني، إنَّ الله لا يتعاضمه ذنب أن يغفره: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [طه: ٨٢] إنها نافذة من نور التوبة، فمن شاء اهتدى بها، ومن شاء أغلقها على نفسه، لكنَّ هذه الحدود لا يقيمها إلا الحاكم المسلم، ولا يجوز لأحدٍ مهما علت رتبته العلمية أو القيادية أن يتجرأ على إقامة الحدِّ بنفسه.

١- الحدود: أمل بالتوبة والمغفرة، ٢- الأمل الثاني للأمة الإسلامية يكمن في قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكُفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١] فاجتناب الكبائر أمر آخر في جواز غفران الذنب والتكفير عنه، ٣- ومن الآمال المكفرة: الاستغفار ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] الاستغفار: طلب غفران الذنوب، وستر العيوب، والتجاوز عنها، ٤- ومن الآمال المكفرة: الصدقة ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، ٥- ومن الآمال المكفرة: الصلاة «الصلوات الخمس» الجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهنَّ اجتنبت الكبائر»، ٦- الحسنة أيًا كانت «وأتبع السيئة الحسنة تمحها»، كلها أدوات تعطينا الأمل، وكلنا يحتاج إلى الأمل، فمن منا لا يخطئ؟!.

* * *

حديث الإفك

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّتَهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةِ غَزَاهَا، فَخَرَجَ سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَهُ بَعْدَمَا نَزَلَ الْحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسَرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلْ، وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ؛ أَذِنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي؛ فَإِذَا عَقْدٌ لِي مِنْ جَزَعِ أَظْفَارٍ قَدْ انْقَطَعَ، فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، وَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، فَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يَرْحَلُونَ لِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يُثْقِلُهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلُقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنكِرِ الْقَوْمُ خِفَةَ الْهُودَجِ حِينَ رَفَعُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا، فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَمَا اسْتَمَرَ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ، فَأَقُمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي؛ غَلَبَنِي عَيْنِي فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِينَ رَأَانِي، وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَرْتُ وَجْهِي بِحِلْبَابِي، وَاللَّهُ مَا كَلَّمَنِي كَلِمَةً وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا فَرَكَبْتُهَا، فَاْنْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا

مُؤْغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الْإِفْكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي
ابْنِ سَلُولٍ، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ
الْإِفْكَ، لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَيَرِيئُنِي فِي وَجْعِي أَنِّي لَا أَرَى مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ فَيَسَلِّمُ، ثُمَّ
يَقُولُ: «كَيْفَ تَيْكُمُ؟»، ثُمَّ يَنْصَرِفُ وَلَا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ، حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَمَا نَقَهْتُ،
فَخَرَجْتُ مَعِيَ أُمُّ مَسْطَحٍ قَبْلَ الْمُنَاصِعِ وَهُوَ مُتَبَرِّزُنَا، وَكُنَّا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ،
وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُفْ قَرِيبًا مِنْ يَبُوتِنَا، وَأَمَرْنَا أَمْرَ الْعَرَبِ الْأَوَّلِ فِي التَّبَرُّزِ قَبْلَ
الْغَائِطِ، فَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالْكُفِّ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ يَبُوتِنَا، فَاَنْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مَسْطَحِ بْنِ
أُثَاثَةَ -وَهِيَ بِنْتُ أَبِي رُحْمٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأُمُّهَا خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ- فَأَقْبَلْتُ أَنَا
وَأُمُّ مَسْطَحٍ قَبْلَ بَيْتِي، وَقَدْ فَرَعْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرْتُ أُمُّ مَسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا، فَقَالَتْ:
تَعَسَ مَسْطَحُ! فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتَ! أَتَسِيئِينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟! قَالَتْ: أَيْ
هَتَاهُ؟ أَوْ لَمْ تَسْمَعْ بِي مَا قَالَ؟ قُلْتُ: وَمَا قَالَ؟ فَأَخْبَرْتَنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكَ، فَازْدَدْتُ
مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي وَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
سَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ تَيْكُمُ؟»، فَقُلْتُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبُوي؟ قَالَتْ: وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ
أَسْتَقِينَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجِئْتُ أَبُوي،
فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهُ؛ مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ قَالَتْ: يَا بُنَيْتُ؛ هُوَ بَيْنِي وَعَلَيْكَ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا
كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا لَهَا صَرَائِرٌ إِلَّا كَثُرْنَ عَلَيْهَا، فَقُلْتُ: سُبْحَانَ
اللَّهِ! وَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟ قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرِقْ لِي
دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بَنَوْمٍ، حَتَّى أَصْبَحْتُ أَبْكِي، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

عَلِيَّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حِينَ اسْتَلَبَتْ الْوَحْيُ، يَسْتَأْمُرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ هُمْ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْوُدِّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَهْلَكَ وَمَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَإِنْ تَسَأَلَ الْجَارِيَةَ تَصَدُّقَكَ، قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِيرَةَ فَقَالَ: «أَيُّ بَرِيرَةَ؟ هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيئُكَ؟» قَالَتْ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ؛ إِنْ رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنْتَا جَارِيَةُ حَدِيثُ السَّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجَبِينَ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَعَذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَلُولٍ، فَقَالَ وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ؛ مَنْ يَعْذُرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي؟ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي»، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَنَا أَعْذُرُكَ مِنْهُ، إِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ صَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنْ احْتَمَلَتْهُ الْحُمِيَّةُ، فَقَالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ، لَعَمْرُ اللَّهِ؛ لَا تَقْتُلُهُ وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ، لَعَمْرُ اللَّهِ؛ لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ مُجَادِلٌ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، فَتَنَاورَ الْحَيَّانِ - الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ - حَتَّى هُمُوا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمَنْبَرِ، فَلَمْ يَزَلْ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَنُوا وَسَكَتَ، قَالَتْ: فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ لَا يَرْفَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، فَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا، وَهُمَا يَطْنَانِ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقُ كِبْدِي، فَبَيْنَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي؛

فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَى امْرَأَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَذِنَتْ لَهَا، فَجَلَسْتُ تَبْكِي مَعِيَ، قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي، قَالَتْ: فَتَشْهَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتَ بَرِيئَةً فَسَيَبْرُئِكَ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتَ أَلَمْتَ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ إِلَى اللَّهِ؛ تَابَ عَلَيْهِ» قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَالَتهُ؛ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أَحْسُ مِنْهُ فَطَرَةً، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا قَالَ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! قَالَتْ: فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثُهُ السَّنَّ لَا أَفْرَأُ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ: إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَقْتُمْ بِهِ، فَلَيْنَ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي بَرِيئَةٌ، وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ؛ لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ؛ لَتُصَدِّقَنِي، وَاللَّهِ مَا أَجِدُ لَكُمْ مَثَلًا إِلَّا قَوْلَ أَبِي يُوسُفَ، قَالَ: ﴿فَصَبِرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، قَالَتْ: ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ، وَلَكِنَّ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى، وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنَّ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبْرِئُنِي اللَّهَ بِهَا، قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ

حَتَّى أَنْزَلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرْحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ؛ مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي يُنْزَلُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَضْحَكُ؛ فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا: «يَا عَائِشَةُ؛ أَمَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ بَرَّأكَ» فَقَالَتْ أُمِّي: قَوْمِي إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ الْعَشْرَ الْآيَاتِ كُلَّهَا [النور: ١١-٢٠]، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا فِي بَرَاءَتِي؛ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَاللَّهِ لَا أَنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَمَا قَالَ فِي عَائِشَةَ، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى؛ وَاللَّهِ إِنِّي أَحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحِ النَّفَقَةِ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُ زَيْنَبَ ابْنَتَهُ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ: «يَا زَيْنَبُ؛ مَاذَا عَلِمْتَ أَوْ رَأَيْتِ؟» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَحْبَبِي سَمْعِي وَبَصْرِي، مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ، وَطَفِقتُ أُخْتَهَا حَمْنَةً مُحَارِبُ لَهَا، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْإِفْكِ، رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَالتِّرْمِذِيُّ.

وَعَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَ عُذْرِي؛ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ وَتَلَا الْقُرْآنَ، فَلَمَّا نَزَلَ أَمَرَ بِرَجُلَيْنِ وَامْرَأَةٍ فَضَرَبُوا حَدَّهُمْ. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

قالت عائشة: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب ابنة جحش عن أمري، فقال: «يا زينب؛ ماذا علمت أو رأيت؟» قالت: يا رسول الله؛ أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيراً، قالت: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك، رواه الشيخان والترمذي.

حديث الإفك: هو ما حدث للسيدة عائشة رضي الله عنها باتهامها بالزنى مع أحد الصحابة الكرام، وفشا الخبر الذي روج له المنافقون، ولم ينزل الوحي إلا متأخراً ببراءتها في القرآن الكريم.

هذا الحديث من أخطر ما واجه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأهوال والصعاب، قصد المنافقون من ورائه إلى محاربة النبي الكريم صلى الله عليه والأهوال والصعاب، قصد المنافقون من ورائه إلى محاربة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بإساءة سمعته باتهام زوجته بالفاحشة، والقصد البعيد منه تشويه هذا الدين الحنيف، فالمعركة بين الحق والباطل أزلية، وكل جهة لها موالوها؛ أهل الإيمان يوالون الحق، وأهل الكفر والنفاق والفجور يوالون الباطل، فينبغي على الإنسان أن يعرف مع من هو؟ هذا الذي يوالي الحق والمؤمنين ويتبرأ من الكافرين والمنافقين فهو مؤمنٌ وربُّ الكعبة، أمّا الذي ولاؤه لغير المؤمنين؛ فهو ضعيف الإيمان، يخشى عليه أن يخسره في مرحلة ما.

متى حدثت تلك الفتنة؟ وقعت بعد أن قال عبد الله بن أبي ابن سلول -الذي تولى كبر هذه الفتنة- للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه: سمّن كلبك يأكلك،

أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل، ويقصد بـ(الأعز): هو ومن معه، وقال أيضًا: ماذا فعلتم بأنفسكم؟ أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم؛ لتحولوا إلى غير بلادكم، (عملية تهجير؛ كما تفعل الدول العربية اليوم بالسوريين).

الذي يعيننا من هذا كله:

١- أن توطن نفسك أيها المؤمن أن هناك مَنْ يناوئك، وهناك من يطعن في نزاهتك، وهناك من يريد تشويه سمعتك، فالدنيا دار ابتلاء، وليست دار جزاء، والإنسان يرقى على قدر ما يُبتلى به.

٢- حديث الإفك تشريع للأمة، فالسيّدة عائشة قدوة لكل امرأة في الأرض أصيبت بسمعتها، والبلاء على قدر الإيمان.

٣- أهم درس أن الله تعالى هو الحقُّ، وهو الذي يحقُّ الحقُّ، فإذا كنت واثقًا من براءتك واستقامتك؛ فالله سيتولى الدفاع عنك، ولكن إياك أن تجلس مجلسًا فيه مظنة اتهام لك، ثم تلوم الناس إن اتهموك، لا تضع نفسك موضع التهمة وتلوم الناس إن اتهموك، كان سيّدنا النبي صلى الله عليه وسلم واقفًا مع زوجته السيّدة صفية، ورآه صحابيان، فقال: «هذه صفية» كما في الحديث المتفق عليه.

تعلّم أن تكون واضحًا إلى أبعد الحدود، فالبيان يطرد الشيطان، عود نفسك أن تفعل شيئًا لا يفسر إلا تفسيرًا واحدًا، وإلا فوضّح قصدك، وتذكّر: «هذه صفية»،

فتلك ثلاث نقاط: ١- إذا أراد الله شيئاً وقع، ٢- إذا كنت على حق فسيبرئك الله تعالى، ٣- لا تضع نفسك موضع التهمة ثم تلوم الناس إن اتهموك.

* * *

فرض الحجاب

عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: يَرْحَمُ اللهُ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأَوَّلِ، لَمَّا نَزَلَ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] شَقَقْنَ مِرْوَطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا.

وفي رواية: «أَخَذْنَ أَزْرَهُنَّ، فَشَقَقْنَهَا مِنْ قِبَلِ الْحَوَاشِي، فَاخْتَمَرْنَ بِهَا» رواه البخاري.

تفسير الآيات بفعل الصحابيات، لم ينتظرن حتَّى يُعَدْنَ إلى البيوت ليختمرن لَمَّا نزلت الآية بحجابهن، بل شققن مِرْوَطَهُنَّ وتلففن بها، وهذا ما يجب على المسلم الحقّ؛ تنفيذ الأوامر الإلهية والنبوية فوراً.

الناس اليوم يستشهدون بحديث السيِّدة أسماء لما جاءت إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليها ثياب رقاق، فقال لها: «إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَتْ سِنَ الْمَحِيضِ لَمْ يَصْلَحْ لَهَا أَنْ يَرَى مِنْهَا إِلَّا هَذَا وَهَذَا، وَأَشَارَ إِلَى وَجْهِهِ وَكَفِّهِ»، هذا حديث ضعيف رواه أبو داود، والحديث الضعيف لا يستشهد به في الأحكام، وخصوصاً أنَّه مخالف للكتاب والسُّنَّة الصحيحة، وهذا الحديث لا يصلح أن يستشهد به، وخاصَّة في هذه المسألة الخطيرة.

كُلُّ الْحَوَادِثِ مَبْدَأُهَا مِنَ النَّظَرِ وَمَعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرِّ

لن أذكر كلام الفقهاء في حرمة كشف وجه المرأة، فربما يقال: تشددوا، ولأنَّ هذا الدرس درس في الحديث سأذكر لكم أحاديث، وأنتم بفهمكم وفطرتكم السليمة تحكمون: هل يجوز للمرأة كشف وجهها أم لا؟

الدليل الأول: كان سيّدنا النبي صلّى الله عليه وسلّم يجلس في المسجد وأمامه الصحابة، وخلفهم الصحابيات، وبينهم حجاب، فقال: «من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»، فقالت السيّدة أم سلمة: فكيف تفعل النساء بذيولهن؟ قال: «يرخينه شبرًا»، فقالت: إذن تبدو أقدامهنّ، قال: «يرخينه ذراعًا ولا يزدن».

يا أيّها الناس؛ هل يعقل أن يأمرها الإسلام بستر قدميها ويسمح لها بكشف وجهها؟! أيها أشدُّ فتنةً؟ الوجه أم القدم؟

الدليل الثاني: لم يسمح الإسلام للمرأة أن تطرق برجلها الأرض؛ لئلا يسمع الرّجال صوت خلخالها، فتتحرك القلوب إليها، فهل يسمح لها إذن أن تكشف عن الوجه الذي هو أصل الجمال ومنبع الفتنة، ومكمن الخطر؟! قال تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] فلم يسمح الإسلام للمرأة وهي مستترة أن تضرب برجلها الأرض، ولا يدرى أشابة هي أم عجوز؟ شوهاء أم حسناء؟ فهل يسمح لها أن تكشف وجهها الممتلئ شبابًا ونضرة وجمالًا؟ أيّ الفتنتين أحق بالستر والإخفاء؟ الصوت أم الصورة؟!

الدليل الثالث: هل يعقل أن يمنعها الإسلام من التعطر عند خروجها من البيت؛ لكي لا يشم ريحها، ثم يسمح لها بكشف وجهها؟ «أيّها امرأة استعطرت، ثم

خرجت على قوم ليجدوا ريحها؛ فهي زانية» أيهما أشد فتنة؟ رائحة عطرها أم وجهها؟! إنَّ النظر إلى الشابة الجميلة أعظم محرك للغريزة البشرية وأكبر دافع للفتنة.

تعالوا إلى محكمة القاضي موسى بن إسحاق قاضي الريّ في القرن الثالث، وقعت أمامه قضية لامرأة ادعت على زوجها أنّه لم يدفع لها مهرها، وحين سأل الزوج: هل لديك شهود؟ قال: نعم، وحضر الشاهدان، فقال القاضي: أشيرا على المرأة التي دفع لها الزوج مهرها، ثم قال للمرأة: أسفري عن وجهك ليعرفك الشاهد، فقال الزوج: ولم تكشف عن وجهها؟ قال القاضي: ليشير إليها الشاهد وتصحّ شهادته، فقال الزوج: أشهدُ القاضي أنّ لها في ذمتي المهر ولا تكشف عن وجهها! فلما رأت الزوجة ذلك أكبرته من زوجها، وقالت: وأنا أُشهدُ القاضي أنّي قد أبرأته منه في الدنيا والآخرة، فقال القاضي: اكتبوا هذا في مكارم الأخلاق!! إنّ الذي يدعو إلى كشف وجه المرأة لا دين له، ومن لا دين له فحسبه جهنم وبئس المصير.

* * *

أقسام الذنوب

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ قَالَ أَهْلُ مَكَّةَ: قَدْ عَدَلْنَا بِاللَّهِ، وَقَتَلْنَا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ، وَأَتَيْنَا الْفَوَاحِشَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠] رواه البخاري وأبو داود.

في كل مجتمع بشري أنظمة وقوانين؛ بعضها خفيف، وبعضها جنحة، وبعضها جناية، وبعضها جريمة، وكلُّ واحدة لها عقوبتها المقررة، ولا بدَّ أن تنفذ العقوبة المقررة، فمن أين أخذَ هذا المنهاج البشري؟ من الشريعة الإسلامية، من الترتيب الإلهي الذي رتبَه الله تعالى في القرآن: صغيرة، كبيرة، أكبر الكبائر، الكفر، الشرك، ومن كَرَّم الله تعالى علينا أن رتب لك العفو عنها إن تبت منها، ورجعت إليه، وأقلعت عنها، فهناك معاصٍ لا بدَّ في تكفيرها من توبة صادقة وعمل صالح: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ ويبقى المسلم على خير ما لم يسفك دمًا، أو يشرك، أو يحلف يمينًا كاذبًا على كتاب الله تعالى، أو يعق والديه؛ حتَّى قالوا: «لِيَعْمَلِ الْعَاقُ مَا شَاءَ أَنْ يَعْمَلَ؛ فَلَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ»، والكذب كبيرة، فإن كان كذبًا على الله ورسوله؛ فهو أشدَّ فحشًا، وشرب الخمر كبيرة، فإن كان في رمضان أو في

الحرم؛ فهو أشد فحشًا، والقتل كبيرة، ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣].

الكبائر تفسد دنيا العبد وآخرته، وضررها على القلوب أعظم وأشد من السموم على الأبدان؛ لذلك بيّنها الشرع وحذّر منها، فيسبب الكبائر أغرق الله تعالى المكذبين من قوم نوح، وبسبب الكبائر سلّط الريح على قوم عاد حتّى ألقتهم موتى في عهد هود، وبسبب الكبائر أرسل الله تعالى الصيحة على قوم ثمود فبادوا عن آخرهم، وبسبب الكبائر أمر الله تعالى سيّدنا جبريل فرفع قرية قوم لوط، ثمّ قلبها عليهم، وأتبعهم بالحجارة، فهلكوا جميعًا في عهد لوط، وأهلك الله قوم شعيب وفرعون وقارون، وبطش الله تعالى بقريش في بدر، وأجلى اليهود في عهد سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلّم، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، وكذا كل من مات ولم يتب من ذنبه، فأمره مفوضٌ لربه؛ إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه.

الكبائر موبقات ومهلكات، حتّى الكلاب تعرف ذلك، بلغ النبيّ صلى الله عليه وسلّم أنّ رجلاً سافر وأوصى جاره بأهله، فزنى بزوجة جاره، فقام الكلب فقتله، فقال عليه الصلاة والسلام: «خان صاحبه، والكلب قتله، والكلب خير منه»، وشهر رمضان شهر التوبة والمغفرة، ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

* * *

لا شفاعة للكافرين

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أُنْزِلَ اللَّهُ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] قَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ؛ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ؛ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؛ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ؛ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ؛ سَلِّبِي مَا شِئْتَ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا». رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَالتِّرْمِذِيُّ وَلَفْظُهُ: «يَا مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؛ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ؛ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ؛ أَنْقِذِي نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ؛ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لِكَ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، إِنَّ لَكَ رَحِمًا سَأَلَهَا بِبِلَالِهَا».

لا شفاعة للكافرين من النار ولو شفع لهم أعظم الشفعاء جاهًا، فلا شفيع أعظم من سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم الخليل إبراهيم، فقد دعا لأبيه واستغفر له، وأراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستغفر لأبي طالب اقتداءً بإبراهيم، وأراد بعض المسلمين أن يستغفر لبعض أقاربه، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، ثم ذكر عذر سيدنا إبراهيم فقال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، وانظروا إلى المشهد يوم القيامة، سيدنا إبراهيم يقول لله

تعالى: وعدتني ألاّ تخزيني يوم يبعثون، وأيُّ خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله: «إني حرمت الجنة على الكافرين»، فيمسح الله أباه، فيؤخذ بقوائمه، فيُلقي في النار، فهذا لما مات مشركاً لم ينفعه استغفار سيّدنا إبراهيم مع عِظَم جاهه وقدره عند الله تعالى، وهاهو رسول الله يجمع قريشاً وأقاربه؛ ليقرر هذه الحقيقة عليهم: «لا أعني عنكم من الله شيئاً»، لا بدّ من الإيمان قبل الشفاعة، وحتىّ إن كان مؤمناً فلا بدّ من الإذن بالشفاعة، فلا بدّ أن يأذن الله تعالى له بالشفاعة، ويرضى عن المشفوع له، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] كما لا بدّ من الإيمان لتلحق شفاعة الشافعين، فهذا عمُّ النبي صلى الله عليه وسلّم أبو طالب، كم مرة دافع ونافح وصدّ عن نبينا؟ ولما اختار الكفر على الإيمان؛ دخل النار، وسألوه: هل نفعت عمّك؟ قال: «هو في ضحضاح من النار».

لذا اسمع إلى حبيبك: «لكلّ نبي دعوة قد دعا بها في أمّته، وخبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة -إن شاء الله تعالى- من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً»، ولهذا كان حبيبك رسول الله يبكي علينا كلّما نزلت آيات تتحدث عن العذاب، لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وبكى، وقال: «اللهم أمتي»، فقال الله عزّ وجلّ: «يا جبريل؛ اذهب إلى محمّد فسله -وربّك أعلم-: ما يبكيك؟» فأثاه سيّدنا جبريل عليه السلام، فسأله، فأخبره رسول الله بما قال، وهو أعلم، فقال الله تعالى: «يا جبريل؛ اذهب إلى محمّد وقل: إنّنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك»، فهل تريد أن تنال شفاعة نبيك الأعظم؟ قل بعد الأذان والصلاة عليه: (اللهم ربّ هذه

الدعوة التامة، والصلاة القائمة؛ آت سيّدنا محمّدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته)، أتعرف ماذا قال حبيبك؟ قال: «من قال ذلك؛ حلّت له شفاعتي يوم القيامة».



فضل (لا إله إلا الله)

عن عُثْمَانَ رضي الله عنه عن النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ»، رواه مسلم في «الإيمان».

فضل (لا إله إلا الله): أفضل الذكر، وأثقل شيء في ميزان العبد يوم القيامة، حتَّى إنَّ الإمام أحمد في «مسنده» يروي عن ابن عمرو عن النبي: صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ نوحًا عليه السلام قال لابنه عند موته: «أمرِك بلا إله إلاَّ الله، فإنَّ السماوات السبع والأرضين السبع لو وُضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة؛ لرجحت به لا إله إلاَّ الله»، وروى الترمذي والنسائي عن ابن عمرو: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول: «إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ سَجَلًا، كُلُّ سَجَلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصْرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتَنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟! أَظْلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟! فيقول: لا يا ربِّ؛ فيقول: لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةٌ، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٍ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فيقول: احْضُرْ وَزَنَكَ، فيقول: ما هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟! فيقول: لَا تُظْلَمُ، فَيَضَعُهَا فِي كِفَّةِ الْحَسَنَاتِ، فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ، وَثَقَلَتِ الْبِطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ»، فسيِّدنا النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ينبّه على فضلها، ويقول: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصًا إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ حَتَّى تُفْضِيَ إِلَى الْعَرْشِ».

وفي الحديث المتفق عليه: «الإيمان بضع وسبعون شعبةً، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»، وشرط العمل بها عند قولها أن تموت مؤمناً، فإنها الأعمال بخواتيمها، روى الترمذي: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، وفي حديث: «أَخْرَجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» فوقف صحابي وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال صلى الله عليه وسلم: «خرجت من النار»، وفي رواية: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ حرّم الله عليه النار»، وعن عبادة بن الصامت في حديث متفق عليه: «من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وأن الجنة حق، وأن النار حق؛ أدخله الله الجنة من أي أبواب الجنة الشمانية شاء».



بِرُّ الوالدين

عن مُضْعَبِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أُنْزِلَتْ فِي أَرْبَعِ آيَاتٍ...، فذكر قصة، فقالت أمُّ سعدٍ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِالْبِرِّ؟ وَاللَّهِ لَا أَطْعَمُ طَعَامًا وَلَا أَشْرَبُ شَرَابًا حَتَّى أَمُوتَ أَوْ تَكْفُرَ، قَالَ: فَكَاثِرُوا إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُطْعِمُوهَا شَجَرُوا فَاهَا، فنزلت الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨]، رواه الترمذي ومسلم في «الفضائل».

لا شك أنكم تعرفون سيّدنا سعد بن أبي وقاص (سعد بن مالك) كان أحد العشرة المبشرين بالجنة، وفداه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبيه وأمه فقال: «ارم سعد، فذاك أبي وأمي»، وكانت له فضائل كثيرة، ولما أسلم كرهت أمه إسلامه، وصارت تطلب منه الرجوع عن الإسلام، وهو لا يعبأ بها، فحلفت لا تتناول شيئاً حتى تموت، أو يكفر سيّدنا سعد بدين سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم! فأبى سيّدنا سعد أن يعود عن دينه، وكادت أمه تهلك، فصاروا يجبرونها على الأكل والشرب، وبقي سعد على دينه، فأنزل تعالى الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا...﴾ فعلى الولد أن يطيع أباه وأمه في كل شيء إلا الكفر والشرك.

أتدري مَنْ يوصيك بوالديك؟ إن الله تعالى يوصيك بهما، ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ...﴾، وانتبهوا إلى هذه الوصية، فهي ليست على النذب والاستحباب؛ بل هو أمر، وحكم، وقضاء إلهي: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ

إِحْسَانًا ﴿[الإسراء: ٢٣]، فليس مسموحًا لك أن تراجع قرار والديك، ولا أن تتأفف منهما، ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ﴾ [الإسراء: ٢٣] قال المفسرون: لو كان هناك كلمة أدنى من (أف) لذكرها الله في كتابه، فما بالك فيمن يردُّ على والديه، ويرفع صوته عليهما؟! من فعل ذلك غضب الله تعالى عليه ولعنه!

الوالدان سبب مجيئك إلى الحياة الدنيا، ولولاهما لما كنت وصرت وكبرت وتكبرت، وإنَّ غضب والديك يحجب لسانك عن النطق بالشهادة عند الموت، ألم تسمع بعلقمة؟ رَجُل كان يفضِّل زوجته على أمِّه، وحين حضرته الوفاة صاروا يلقونَّه الشهادة، فلا يقولها، فجاءوا إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم وأخبروه، فقال: «هل أحد من والديه حيٌّ؟» قالوا: أمُّه، قال: «أحضروها»، فجاءوا بها، فقال لها: «كيف رضاك على علقمة؟» قالت: إنِّي ساخطة عليه، يفضِّل زوجته عليّ، فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم: «أحضرُوا حطبًا لنحرق علقمة»، قالت: يا رسول الله؛ لا يطاوعني قلبي أن تحرقوه بالنار، فقال: «إن لم ترَضِي عنه فسنحرقه»، قالت: أشهد أني عليه راضية، فقال: «اذهبوا وانظروا علقمة»، قال: فنطق بالشهادة ومات، ووقف رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم على قبره ونادى: «ألا من فضَّل زوجته على والديه؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً»، فحذار يا إخوة أن تفضلوا أحدًا على الوالدين؛ ولذلك جعل النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم خدمة الوالدين أعظم من صلاة النافلة والصدقة والهجرة والجهاد.

ها هو رَجُل جاء يبائع النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الهجرة، وقال: تركت أبواي يبيكان، فقال: «ارجع إليهما، فأضحكهما كما أبكيتهما»، وجاء آخر يبائع على الجهاد في سبيل الله، فقال له: «أحيي والدك؟» قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد»، ولذا صدر القرار النبويُّ بإلھامٍ من مولانا عزَّ وجلَّ، قرارًا وجاهيًا غير قابلٍ للنقض؛ لأنه محكم، وغير قابلٍ للاستئناف؛ لأنه مبرم، قال صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «رغم أنفه»-أي: ذلَّ وخاب وخسر-«ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه»، قيل: من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما، ثم لم يدخل الجنة».

بر الوالدين خير من جميع أعمال الإسلام؛ من الصلاة والزكاة والصيام والحج إلى بيت الله الحرام، وإن البر بالأم من أعظم الأعمال عند الله تعالى؛ ولذا كانت وصية سيدنا رسول الله بها عظيمة: «أمك» «ثم أمك» «ثم أمك» «ثم أبوك». ونص العلماء أنَّ من دعت أمُّه وهو يصلي نافلةً، ويعلم أنها تنزعج من عدم تلبية نداءها: أنه يترك الصلاة ويقطعها ويحيب أمه، وهذا من صور البر بها، ولقد شاهدت في حياتي صورًا من البر ما كنت أظن أنها في حياة المسلم...

كنت أتردد إلى صديق لي فأصطحبه معي، فكان إذا أردنا الخروج غاب برهة في غرفة، ثم خرجنا، وما كنت أُلقي لذلك بالاً، ومرةً أردنا الخروج، فأراد دخول الغرفة، فوجد الباب مقفلاً من الداخل، فقبَّل عتبة الباب ثم خرجنا، قلت له: ماذا فعلت؟ فقال: أنا لا أخرج من الدار حتى أُقبِّل رجل أُمي، فوجدتها قد أقفلت الباب، فقبَّلْتُ عتبة الباب بدل تقبيل قدمها.

ذلك البر، وأي بر؟! هل سمعتم بهذا من قبل؟!

سمعت عن يزيد بن هارون الواسطي -من زمن الإمام أبي حنيفة- قال له أحدهم: لقد رأيتك في المنام البارحة ولحيتك مرصعة بالجواهر، فقال له: متى نمت؟ قال: بعد العشاء، قال: له صدقت! كنت في تلك الساعة أمرغ وجهي في قدمي أمي وأقبلهما.

الله أكبر!! الجزء من جنس العمل، فإذا أردت أن يكون ابنك باراً فيك؛ فبرِّ والديك، برُّوا آباءكم تبرِّكم أبناؤكم، اسمع وأنت تصلي على النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «رضا الله في رضا الوالد، وسخط الله في سخط الوالد»، وإن من يبر بوالديه يضمن الجنة، لا أدعي هذا العلم، ولكن سيدنا أبو الدرداء استفتاه رجلٌ وقال: إن لي امرأة، وإن أمي تأمرني بطلاقها، فقال: لا أقول لك: طلق امرأتك، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الوالد أوسط أبواب الجنة، فدمع عنك هذا الباب أو خذه» فطلق الرجل امرأته لأجل باب الجنة. انتهى، وفهمكم كفاية.

وإن أنسى لا نسيت مشهداً عظيماً من مشاهد البر، ما سمعت عنه، ولا قرأته في الكتب، مشهد رجل دعاني للغداء في صيف أحد الأيام، وبعد الغداء وُضعت الفاكهة، فرأيتُه يقسم البطيخة ويأخذ لبثها -وهي أطيب شيء فيها- فيضعها في صحن، ويقول لولده: خذ هذا لجدتك، فلما ماتت أمه دعاني أيضاً، وُضعت الفاكهة، وقسم البطيخة وأخذ لبثها، وقال لولده: خذ هذه إلى أمك! إنه لم يأكل لبة بطيخة في حياته، وكان من بره بأمه أنه يرسلها لها، فلما ماتت علّم أولاده كيف

البر بأمهم، فصار يقدم لها لبة البطيخة! فهل فعل أحد منكم ذلك حتى أدوّنه في
مكارم الاخلاق؟!

رَحِمَكِ اللهُ يا أم أبي القاسم، وجعل مأواك في أعلى عليين، لقد أديتِ رسالة الأم
على أكمل وجه، وتركتِ بعدك أقماراً حملوا راية الاسلام، فهنيئاً لك هؤلاء وهم في
ميزان حسناتك، وإن الله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بمقدار، ولا نقول
إلا ما يرضي ربنا عز وجل: إنا لله وإنا اليه راجعون.

إذا رحلت الأم بدأ مددُها وتنفيذ دعائها بعد موتها، فكلُّ الأدعية التي كانت
تدعوها لأولادها يجدها أولادها توفيقاً وهدايةً ورزقاً حسناً.

* * *

تربية الأولاد

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بِهَيْمَةٍ جَمْعَاءَ هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟! ثُمَّ يَقُولُ: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ فِطْرَتَ النَّاسِ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، رواه البخاري.

الحياة الأولى للطفل هي الأساس في تكوين شخصيته الإسلامية.

إِنَّ الْغُصُونَ إِذَا قَوَّمَتَهَا اعْتَدَلَتْ وليس ينفع إن قَوَّمْتَهُ الْخَشَبُ

والوالدان مطالبان بتوجيه هذه الشخصية بالذات؛ لأنها السن التي يقدر بها الطفل على الالتقاط الواعي وغير الواعي، فالوالدان يستطيعان أن يوجِّها الطفل في هذه السن بسهولة، وقد صرَّح لنا السيّد الأعظم بذلك، وقال: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ» أي: على فطرة الإسلام، فَمَنْ الذي يغير له هذه الفطرة؟! قال: «فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» رواه البخاري والترمذي.

فإذا تساهل الآباء في تربية أولادهم، وتركوا تربيتهم إلى المذاهب الأرضية؛ كالشارع والمُفسديون وأولاد السوء؛ فقد أخذوا بأيديهم إلى الخسران المين، وسيؤذي بهم الأمر إلى الكفر والإلحاد، وإذا تحقق الفشل بتربية الأولاد؛ تحقق الفشل بالأمة كلّها، وعندها يتحقق النصر لأعداء الله تعالى.

هناك شرحٌ عظيم بين تعاليم الإسلام وأهله؛ فالإسلام في وادٍ، وأهله في وادٍ آخر، يقول أحد الدعاة لما زار أوروبا: رأيت إسلامًا من دون مسلمين، وعندما عاد إلى بلاده قال: أرى مسلمين بلا إسلام! هذا الشرح الكبير بين المبدأ والعمل يتلمّسه كلّ واحد منا، ويتمنّى لو يعود بأولاده إلى ما كان عليه الرعيلُ الأول في صدر الإسلام، هناك شرح في البيت والأسرة، وشرح في العمل والمعمل، وثالث في المدرسة والمعهد، وآخر في الطريق والشارع، كلّ تلك المؤسسات تحتاج إلى إصلاح: البيت والشارع والمدرسة، وأصبح (المفسديون) أداة هدم للإنسان أكثر من الإصلاح، وجاءت الفضائيات لتتوّج هذا الفساد بمنتهى الرذالة والفاحشة، وتعلنه علنًا فاضحًا، حتى استطاع الإعلام أن يطفئ في كيان أولادنا جذوة الإيمان والحماس للحقّ، ووسوس للبنت المسلمة أن تنزع حجابها وخمارها، فاستطاع أن يصل إلى أمّ المستقبل، وأن يعتدي عليها؛ لتعتدي على بناتها في المستقبل، فتمنعهم من الحجاب الذي فرضه الله تعالى على كلّ مسلمة، فصرت ترى في الطريق الأمّ محجة والبنات غير محجبات! تناقض عجيب!!

علينا أن نبدأ في تربية أولادنا من الصغر، وعلينا أن ننقذهم من وهدة الضياع، حتّى إذا شبوا عن الطوق كانوا من المؤمنين حقًا، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذي: «ما نحل والد ولده من نحلة أفضل من أدب حسن»، وعند الشيرازي في الحديث: «أدّبوا أولادكم على ثلاث خصال: حبّ نبيكم، وحبّ آل بيته، وقراءة القرآن»، فإذا تحقق ذلك؛ فلن نخاف على أولادنا من

المذاهب الأرضية مهما حاولت أن تقضي على الإسلام ما دُمنا نرفع رأسنا عاليًا
بسيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

* * *

حرمة الآلات الموسيقية

عن أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه عن النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم قَالَ: «لَا تَبِيعُوا الْقَيْنَاتِ، وَلَا تَشْتَرُوهُنَّ، وَلَا تَعْلَمُوهُنَّ، وَلَا خَيْرَ فِي تِجَارَةٍ فِيهِنَّ، وَثَمَنُهُنَّ حَرَامٌ» فِي مِثْلِ ذَلِكَ أَنْزَلْتُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية [لقمان: ٦]، رواه الترمذي.

(القينات): الإماء المغنّيات، فلا يجوز شراءهن ولا بيعهن، وثمرتهن حرام إن كان للغناء؛ لأنه هو مذموم بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ أي: ما يُلْهي منه عما ينفع؛ كالأضاحيك والخرافات والمغاني والمزامير ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ طريق الإسلام، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ أي: يهزأ بالآيات، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

الآلات الموسيقية حرام باتفاق المذاهب الأربعة، إلا الدفّ للعُرس، والطبل للحرب، وسواهما حرام لا يجوز اقتناؤه، ولا العزف عليه، ولا سماعه، وهذه الحرمة ليست من زماننا، بل ممتدة من زمن الحبيب الأعظم صَلَّى الله عليه وسلَّم، فقد توافرت الأحاديث النبوية في حرمتها، وليس محققاً مَنْ أباحها وسمح بها لمصلحة شخصية، بل قد أخطأ، فيحرم الاستماع إلى الموسيقى، وتعالوا إلى سيّد الكونين، وملجأ الثقلين، ونور القلب والعين، سيّدنا محمد صَلَّى الله عليه وسلَّم، فقد تدرج مع الصحابة شيئاً فشيئاً في تحريم الآلات الموسيقية، ففي «مسند الإمام أحمد»: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي رَحْمَةً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَحَقِّقَ الْمُزَامِيرَ وَالْمَعَارِفَ

وَالْحُمُورَ وَالْأَوْثَانَ الَّتِي تُعْبَدُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ»، ثم شَدَّدَ النكير أكثرَ بعد حين، منبهاً أمته على حرمة المعازف، فروى البخاريُّ وأحمد وابن ماجه: «لَيَكُونَنَّ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرَ [الزنى] وَالْحَرِيرَ وَالْحَمَرَ وَالْمَعَازِفَ»، ثم علت نبرة التحريم واشتدت، روى الإمام أحمد وابن حبان: «يُمَسِّخُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي مِنْ آخِرِ الزَّمَانِ قُرْدَةً وَخَنَازِيرَ» قالوا: أُمُسلمون هم؟ قال: «نعم، ويشهدون أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، ويصومون» قالوا: فما بالهم؟ قال: «اتخذوا المعازف، والقيانات، والدفوف، وشربوا الأشربة [الخمير] فباتوا على شربهم ولهوهم، فأصبحوا وقد مُسِّخُوا»، هذا كله من ناحية الاستماع؛ أي: الإصغاء وإعطاء الإذن والانبطاق إليه؛ أي: قصد أن يستمع بنفسه، هو شغل الجوال بيده، أو وضع القرص المضغوط في المسجلة، وجلس إليه يستمع، أما السماع -أي: أن يأتيه الصوت عارضاً؛ أي: عرضاً من الطريق، أو يسمعه من جاره الفاسق- فهذا ليس حراماً إلا إذا أعطاه أذنه واستمع وتمتّع، إذن هناك استماع وسماع، الاستماع هو ما يريده منا أعداء الإسلام، وما برنامج (عَرَب آيدل) الغنائيِّ وأمثاله إلا أحد هذه الأدوات في يد أعداء الإسلام، وصاحب المشروع يهوديُّ ابن يهودي.

* * *

حرمة التبني

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا كُنَّا نَدْعُوهُ إِلَّا زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ، حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾ [الأحزاب: ٥].

كان التبني شائعاً في الجاهلية، وكان سيّدنا زيد بن حارثة عبداً عند السيّدة خديجة، فأهدته لسيّدنا محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل البعثة، فلما علم أهله من الحبشة أنّه عند أمين مكة؛ رجوا أن يشتروه منه، فأتوا إليه، وطلبوا شراء ولدهم منه، فقال لهم: «بل أخيرّه، فإن اختاركم أعطيتكم إياه»، فالتقى سيّدنا زيد أبوه وعمه وأهله، وحين جلسوا إليه أخبروه أنهم طلبوه من سيّده، وأنّه ترك الأمر له، فقال لهم سيّدنا زيد: ما كنت لأختار أحداً على محمّد! إنّه البر الرؤوف الرحيم، فلما فعل ذلك خرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أهل مكة، وقال: «اشهدوا أن زيد بن حارثة ابني، يرثني وأرثه»، فصار يُدعى: زيد بن محمّد، ولما جاء الإسلام أراد الله تعالى إبطال عادة التبني في الإسلام، فأنزل على رسوله ونبيه الكريم: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾ [الأحزاب: ٥] أي: انسبوا أدعياءكم الذين ألحقتم أنسابهم بكم لأبائهم، يقول لنبيه سيّدنا محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ألحق نسب زيد بأبيه حارثة، ولا تدّعه: زيد بن محمّد، ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾ هو أعدل وأصدق وأصوب، فعاد زيد يسمى: زيد بن حارثة.

والآن: التبني حرام، أما التربية فلا بأس، إذا ربوا ولد غيرهم وأحسنوا إليه، على أنه ينسب لأبيه، لا إليهم؛ فلا بأس، التبني حرام؛ لأن فيه خلطاً للأنساب، وتضييعاً للحقوق؛ من الميراث وغيره، وقد تكبر البنت المتبنّاة، وقد تخلو في كبرها بمن تنبأها، وتحصل الفاحشة، والتبني فيه كذب، وزور، وطعن في الأنساب، وازدراء لأصوله، وعقوق له، وفي حديث متفق عليه: «ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر»، قال النووي: «إلا كفر» في حق المستحل عمداً عالماً بالتحريم؛ كمن التحق بغير أبيه، وقال: لم يحرم الإسلام التبني، أو هو كفر النعمة والإحسان، وحق الله وحق أبيه، وروى أحمد: «من ادّعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه؛ فالجنة عليه حرام»، وهو حديث متفق عليه، وروى أبو داود: «من ادّعى إلى غير أبيه، أو انتمى لغير مواليه؛ فعليه لعنة الله المتابعة إلى يوم القيامة»، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].



أثر العقيدة

عن أنس رضي الله عنه: أَنَّ عَمَّهُ غَابَ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!! لَكُنْ أَشْهَدَنِي اللَّهُ قِتَالًا لِلْمُشْرِكِينَ لَيَرَيْنَّ اللَّهُ كَيْفَ أَصْنَعُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ، وَأَعْتَدُ إِلَيْكَ مِمَّا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ الْأَصْحَابُ، ثُمَّ تَقَدَّمَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فَوُجِدَ فِيهِ بَضْعٌ وَثَمَانُونَ؛ مِنْ ضَرْبَةِ سَيْفٍ، وَطَعْنَةِ رُمْحٍ، وَرَمِيَةِ بَسْمٍ، فَكُنَّا نَقُولُ: فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ نَزَلَتْ: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالبُخَارِيُّ.

سؤال يفرض نفسه على بساط البحث: لم هذه التضحية؟ ولم هذا الإقدام وهذه البسالة؟ لماذا يضحي الصحابة الكرام بنفوسهم وأموالهم حتى يصابوا بهذه الجروح والطعنات ضد أهل الشرك والكفر؟ سؤال سألته نفسي، فما وجدت غير جواب واحد عليه: إنَّها العقيدة، إنَّه الإيمان الراسخ، جعلهم ينطلقون في الأرض كالشعلة في الهشيم تُحِيلُهُ نَارًا وَنُورًا، وتنهض بالبشرية، وتنير لها الطريق.

يا شباب؛ إن العقيدة إذا امتزجت بقلب العبد ودمه، وغذاها بالعمل الصالح، وثماها بالبر والتقوى؛ أكرمته الله بخوارق وكرامات؛ كالتى حدثت مع عمِّ سيدنا أنس بن مالك، ولم ينفرد بها هو بنفسه، بل كلُّ الصحابة أتوا بخوارق، ونزلت الآيات بحقهم، تذكروا ذلك، واذكروا أيضًا سيدنا مصعب بن عمير الذي كان

يحمل اللواء يوم أحد، فحين اختلَّ الموقف في ميدان القتال ثبت فيه، وتشتد صدمةُ قريش للمسلمين، فينكشفون بسبب مخالفتهم أمر القائد الأعلى للأمة سيّدنا محمّد صَلَّى اللهُ عليه وسلّم، ويتفرقون عن اللواء، ولكن مصعباً أثبت قدمه في الأرض محتفظاً بلواء سيّدنا رسول الله جهد الاستطاعة، ويُقبل عليه فارس من قريش، فيضرب يده بالسيف فيقطعها، ويسقط اللواء، فيسرع مصعب، ويتناول اللواء باليد الأخرى، ويرفعه عاليًا، ولكن فرسان قريش تتكاثر عليه، ويضربه أحدهم على يده الأخرى فيقطعها، وتبقى قدمه ثابتة، لا يزول ولا يميل، وما زال اللواء مرفوعاً يضم عليه عضديه، ويغيظ ذلك فرسان قريش، فيكثرون على مصعب ويُنفذون رماحهم في صدره، فيسقط ويسقط معه اللواء! فيتلقى اللواء أخوه أبو الروم، وما يزال لواء رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلّم مرفوعاً حتّى يبلغ المدينة، ويرى رسول الله مصعباً مضرّجاً بدماؤه، فيتلو قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا...﴾، ثم يقول: «إِنَّ رسول الله يشهد أنّكم الشهداء عند الله يوم القيامة» (مرسل ابن عمير بسند صحيح) أليست هي العقيدة التي جعلت لقاء الله تعالى في سبيل شريعته أحبّ إليهم من لقاء أهليهم وأبنائهم؟! بلى.

وإذا العقيدةُ لامست قلبَ امرئٍ كانت له في التضحياتِ روائعُ



آل البيت

عن أَنَسٍ رضي الله عنه قال: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمُرُّ بِبَابِ فَاطِمَةَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ إِذَا خَرَجَ لَصَلَاةِ الْفَجْرِ، يَقُولُ: «الصَّلَاةَ يَا أَهْلَ الْبَيْتِ، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]».

(آل البيت) هو لقب ذرية سيِّدنا الحسن والحسين، وزيد عليهما عند الإمام الذهبي: العباسي والعقيلي والجعفري، ومن فضلهم: أَنَّ سيِّدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرنا بالصلاة عليهم في كل صلاة، وعند الشافعية: من لم يصلَّ عليهم في صلاته؛ يترتب عليه سجود السهو، اللهم صلَّ على سيِّدنا محمد وعلى آل سيِّدنا محمد، لذلك نرى أَنَّهُ قد قَدَّمَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل بيته عناية وحماية على مدى العصور، وعلق على صدورهم أوسمةً لا تبيد أبد الدهور، ونزل القرآن يقول: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣]؛ أي: توادُّون وتحبون أهل قرابتي ولا تؤذونهم.

كان سيِّدنا الصديق يقول: (لقرابة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحبُّ إليَّ أَنْ أَصِلَ من قرابتي) وهذا يسمَّى حديث أهل العباءة، مرَّةً حضر سيِّدنا العباس وبنوه، فاشتملهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعباءته، وقال: «يا رب؛ هذا عمِّي وصنو أبي، وهؤلاء أهل بيتي، فاسترهم من النار كستري إياهم بملاءتي هذه» فأمنت أسكفة الباب، وحوايط البيت، فقالت: آمين آمين آمين.

وفي الحديث: «ألا إنَّ أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح، من ركبها فقد نجا، ومن تخلف عنها غرق، وهم أمانٌ لأهل الأرض، النجوم أمانٌ لأهل السماء، وأهل بيتي أمانٌ لأمتي»، ولقد حلف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والله لا يدخل قلبَ رجلٍ الإيمانُ حتَّى يحبَّهم الله ولقرايتهم منِّي» بل قال: «لا يبغضنا -أهل البيت- أحدٌ إلا أدخله الله النار، ومن أولى رجلاً من بني عبد المطلب معروفاً في الدنيا، فلم يقدر المطلبيُّ على مكافأته؛ فأنا أكافئه يوم القيامة»، وهو القائل: «أول من أشفع له يوم القيامة من أمتي أهل بيتي»، وقال لسيدتنا فاطمة: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ غير معذِّبك وولددك»، وقال: «إنَّ فاطمة حصَّنت فرجها، فحرَّمها الله وذريتها على النار»، وكان من وصيته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للناس قوله: «أذكركم الله في أهل بيتي».

وقد أجمع الأشاعرة: أنَّ أفضل الناس من الصحابة الكرام هم أولاده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعقيدة أهل السُّنَّة والجماعة: حبُّ القرابة، واحترام الصحابة.



مشروعية تعدد زوجات النبي

صلى الله عليه وسلم

عن أنس رضي الله عنه قال: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي زَيْنَبِ بِنْتِ جَحْشٍ: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] قَالَ: فَكَانَتْ تَفْخَرُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَقُولُ: زَوَّجَكُنَّ أَهْلُكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللَّهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ.

هذا الزواج الذي نحتفل به اليوم كان من مفاخر السيّد الأعظم، محّا الله به تقاليد الجاهلية وعاداتها، وأقرّ به تشريعاً جديداً أنزله مولانا هدى ورحمة للعالمين، وكلّ زوجة تزوجها الحبيب الأعظم كانت لحكمة من الله تعالى، وبأمر منه سبحانه، كلّ زوجة من زوجاته لها قصّة وحكاية، فالسيّدة زينب بنت عمته -السيّدة أميمة بنت عبد المطلب- زوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً لسيّدنا زيد؛ من شدة حبه له، فقد كان يُلقَّب بـ(حبّ النبي صلى الله عليه وسلم) بعد أن منّ الله عليه بالعتق.

ذكرنا سابقاً أنّ نبينا صلى الله عليه وسلم تبنّى زيدا، ثم ألغى الإسلام التبني، وعاد يُدعى: زيد بن حارثة، وكان في الجاهلية أنّ زوجة المتبني لا يتزوجها أبوه المدّعي له، فأراد الله تعالى بعد إلغاء التبني أن يلغى هذه العادة الجاهلية بأبلغ طريقة، وينسف إلى الأبد ما كان عليه أهل الجاهلية من نظام اجتماعي فاسد، وذلك على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله تعالى ليغيّر قوانين البشر بقوانين ربّ البشر.

عاش سيّدنا زيد مع السيّدة زينب القرشية الشريفة سنة كاملة، لم تخلُ أغلب أيامها من تعييرها إياه بالعبودية، والاستطالة عليه بالنسب الشريف، والتعاضم عليه بلسانها، ويأتي سيّدنا زيد إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم يشتكيها، فيأمره رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم أن يتقي الله فيها، ويمسكها زوجة، مع أن الله تعالى أخبره أن زيداً سيطلق زينب وتزوجها أنت، وهذا أنزله القرآن لتوثيق هذا الخبر: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٧] فأخفى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم ذلك عن الناس؛ مخافة أن يقال: تزوج زوجة متبنيه؛ كما نزل: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ [الأحزاب: ٣٧] أي: تخشى أن يقولوا: تزوج زوجة متبنيه، ولكن سيّدنا زيداً استفحل الأمر معه، ولم يعد يطيق العيش معها، فطلقها، ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] فنزل تزويج السيّدة زينب من الله تعالى، فدخل عليها رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم من دون عقد بشري أو شهود أكابر، فكان هذا التحريم أعلى مرتبة من التشريع، وكان سيّدنا زيد الوحيد الذي ذكر الله تعالى اسمه في القرآن من بين الصحابة رضي الله عنهم جميعاً.



مكانة سيدنا عمر في الإسلام

عن عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْحِجَابِ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] رَوَاهُ الشَّيْخَانِ.

وعن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: خَرَجْتُ سَوْدَةَ رضي الله عنها لِحَاجَتِهَا بَعْدَ مَا نَزَلَ الْحِجَابُ، وَكَانَتْ امْرَأَةً جَسِيمَةً لَا تَخْفَى عَلَى مَنْ يَعْرِفُهَا، فَرَأَاهَا عُمَرُ رضي الله عنه، فَقَالَ: يَا سَوْدَةُ؛ أَمَا وَاللَّهِ مَا تَخْفَيْنَ عَلَيْنَا، فَاَنْظُرِي كَيْفَ تَخْرُجِينَ، فَاَنْكَفَأَتْ رَاجِعَةً وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِي يَتَعَشَّى وَيَبْدِهِ عَرْقٌ، فَدَخَلْتُ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنِّي خَرَجْتُ لِبَعْضِ حَاجَتِي، فَقَالَ لِي عُمَرُ كَذَا وَكَذَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ، ثُمَّ رَفَعَ عَنْهُ وَإِنَّ الْعَرْقَ فِي يَدِهِ مَا وَضَعَهُ، فَقَالَ: «إِنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنَّ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ.

مكانة الفاروق في الإسلام: لسيدنا عمر رضي الله عنه مكانة عند الله تعالى ورسوله الكريم؛ لذا نزل القرآن موافقاً لرأيه في عشرين موضعاً -كما سمعتم- نزلت آية الحجاب لأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ببركته، حَتَّى إِنَّهُ قَالَ فيما أخرجه البخاري: وافقت ربي في ثلاث؛ قلت: يا رسول الله؛ لو اتَّخَذْتُ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَصَلًّى، فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] وآية الحجاب هذه، واجتمع نساؤه عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغيرة، فقال لهنَّ: عسى ربُّه إن طلقكنَّ

أَنْ يَبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُمْ، فنزلت: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ﴾ [التحریم: ٥].

ورواية الإمام أحمد: حين استشار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أُسْرَى بَدْرٍ، فَقَالَ سَيِّدُنَا عُمَرُ: أَرَى أَنْ تُضْرَبَ أَعْنَاقُهُمْ، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثَخَّنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧] أَي: حَتَّى يَبَالِغَ فِي قَتْلِ الْمُشْرِكِينَ وَيَقْهَرَهُمْ.

وعند ابن أبي حاتم: لَقِيَ سَيِّدُنَا عُمَرُ يَهُودِيًّا، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: إِنَّ جَبْرِيلَ الَّذِي يَذْكُرُهُ صَاحِبُكُمْ عَدُوٌّ لَنَا، فَقَالَ سَيِّدُنَا عُمَرُ: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَجَبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ، فَأَنْزَلَهَا رَبُّ الْعِزَّةِ فِي كِتَابِهِ.

وما أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي: كَانَ سَيِّدُنَا عُمَرُ يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى: اَللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ حَكْمًا شَافِيًّا، وَكَلِمًا نَزَلَتْ آيَةٌ خَاصَّةٌ فِيهَا يَقُولُهَا، فَأَنْزَلَ رَبُّ الْعِزَّةِ وَالْجَلَالُ: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].

ووقف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرِيدُ أَنْ يَصْلِيَ عَلَى جَنَازَةِ حَقِيرِ الْمُنَافِقِينَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي، فَقَامَ سَيِّدُنَا عُمَرُ وَقَالَ لِلنَّبِيِّ الْكَرِيمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَتَصْلِي عَلَى مَنْ هُنَاكَ رَبُّكَ أَنْ تَصْلِيَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ؟! فَقَالَ: إِنَّمَا خَيْرَنِي رَبِّي، فَقَالَ: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] ثُمَّ قَالَ: وَسَأَزِيدُ عَلَى السَّبْعِينَ، فَقَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ، فَأَنْزَلَ رَبُّ الْعِزَّةِ:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤] (حديث متفق عليه).

وفي حديث متفق عليه حين تحدّث النَّاسُ بحديث الإفك وانتظر الوحي ولم ينزل عليه؛ استشار أصحابه، فقال سيدنا عمر: يا رسول الله؛ من زوجها لك؟ فقال: الله تعالى، قال: أفَتَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ دَلَّسَ عَلَيْكَ فِيهَا؟! سبحانك هذا بهتان عظيم!! فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

وأخرج ابن أبي حاتم وغيره: اختصم رجلان إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ففضى بينهما، فقال: رُدُّنَا إِلَى عَمْرٍ، فَأْتِيَاهُ، فقال الرَّجُلُ: قضى رسول الله لي على هذا، فقال رُدُّنَا إِلَى عَمْرٍ، فقال سيِّدنا عمر: أَكْذَلِك؟! قال: نعم، فقال: مكانكما، فخرج إليه مشتملاً على سيفه، فضرب عنق المنافق؛ لَأَنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ بِحُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ، فأنزل ربُّ العزة: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وهكذا جعل الله الحقَّ على لسان عمر وقلبه (رواه أحمد وأبو يعلى).

وصلُّوا على سيِّدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي كَانَ يَقُولُ: «أَرْحَمَ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ عَمْرٌ».



فضل الصلاة على النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

عن كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَمَّا السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ، فَكَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكَ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ؛ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ؛ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَلَفْظُهُ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ؛ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ؛ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ» وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ.

المقصود بهذه الآية: أن يخبرنا الله بمنزلة نبيه ومصطفاه في الملأ الأعلى؛ ولهذا أمر الله العالم السفلي أن يُصَلِّيَ على هذا النبي؛ ليجتمع العالمان - العلوي والسفلي - في الصلاة عليه، ولما نزلت هذه الآية، ونظر إلى تفاوت أُمَّته، وأنَّ كلاً منهم سيذكر صيغةً من الصيغ، ولن يبلغوا مكافأة هذا النبي الكريم؛ فقال لهم: «قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ...» ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] ولما أفاض الله سبحانه من أنواع الكرامات واللطائف عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أتوه مهتئين ومباركين، وقالوا: هذا لك، فماذا لنا؟ أَلَسْنَا أَتْبَاعُكَ؟ أَلَسْنَا أَحِبَابُكَ؟ أَلَسْنَا

أصحابك؟ أَلَسْنَا نفديك بأرواحنا؟ ماذا لنا من العطية؟ فسكت، وإذا بالأوامر تنزل إلى سفير الأنبياء وكبير أمناء وحي السماء، ونزل بآية: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

الصلاة على الحبيب المصطفى ورد الأبرار، وشعار الأخيار، في الليل والنهار، «من صلى عليّ حين يصبح عشراً، وحين يمسي عشراً؛ أدركته شفاعتي» فالصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلّم سبب في شفاعته العبد عند الله تعالى. كما أنّها توجب الجنة، روي في الحديث: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فِي يَوْمٍ أَلْفَ مَرَّةٍ؛ لَمْ يَمِتْ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ».

والصلاة عليه تذهب الغمّ والهَمّ، سيّدنا أبيّ سألّه: كم أجعل لك من صلاتي؟ حتى قال: أجعل لك صلاتي كلّها، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلّم: «إِذْنُ يُغْفَرَ ذَنْبَكَ، وَتُكْفَى هَمُّكَ».

والصلاة على النبيّ تدرك الرّجل وولده وولد ولده، ففي الحديث: «ما من عبد يصليّ عليّ صلاةً إلا عَرَجَ بها ملكٌ إلى السماء حتّى يأتي بها وجه الرحمن، فيقول: اذهبوا بها إلى قبر عبدي، تستغفر لصاحبها، وتقر بها عينه، ويبقى ثوابها إلى يوم القيامة» فجدّير بك أن تعمل وثيقة تأمينٍ على الحياة، وذلك بالصلاة على النبي التي تدرك الرّجل وولده وولد ولده، وأنتم لاحظتم كيف بدأ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ولم يقل: يا أيها المسلمون، أو: يا أيها الناس، بل قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: يا خير الخلق؛ صلّوا على خير الخلق.

* * *

واصل بن عطاء

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : إِنَّ موسى عليه السلام كان رجلاً حييًّا سَتِيرًا، ما يُرى من جلده شيء، فأذاه مَنْ آذاه مِنْ بني إِسْرَائِيلَ، فقال: ما يستترُّ هذا السَّترَ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ؛ إمَّا برص، وإمَّا أُذْرَة، وإمَّا آفة، وإنَّ الله عزَّ وجلَّ أراد أن يُبرِّئَهُ ممَّا قالوا، فخلا موسى عليه السلام يوماً وحده، فوضع ثيابه على حَجَرٍ، ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَّغَ أَقْبَلَ إلى ثيابه ليأخذها، فعدا الحَجَرُ بثوبه، فأخذ موسى عَصَاهُ، فطَلَبَ الحَجَرَ، فجَعَلَ يَقُولُ: ثوبِي حَجَرٌ! ثوبِي حَجَرٌ! حَتَّى انْتَهَى إلى مَلَأٍ مِنْ بني إِسْرَائِيلَ، فرأوه عُرْيَانًا أَحْسَنَ النَّاسِ خَلْقًا، وأبرأه ممَّا كانوا يَقُولُونَ، وقامَ الحَجَرُ فأخذَ ثوبه، وطَفِقَ بالحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ، فوالله إنَّ بالحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أثرِ عَصَاهُ، ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩] رواه الشَّيْخَانِ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

أمثال هذا الحديث أنكرتها المعتزلة، لأنَّها لم تدخل في عقلها، وهذا حديث صحيح كما علمتم، فالمعتزلة لم يصدِّقوا أنَّ جملاً خرج من صخرة! بما كان معجزة لسيدنا صالح، وأنكروا أن يكون سيدنا عيسى رُفِعَ إلى السماء، وقالوا: هو مختفٍ في الأرض، وتناولوا على القرآن، فقالوا: إنَّه مخلوق محدث ليس بقديم، وتناولوا على كتاب الله فأنكروا أن يُرى الله تعالى يوم القيامة، المعتزلة خرجوا عن خطِّ أهل السُّنَّة والجماعة، وقالوا: الخير من الله والشرُّ من أفعال البشر، وخرجوا عن عقيدة

أهل السُّنَّة، فقالوا: إِنَّ المؤمن إذا ارتكب الذنب فشرب الخمر وغيره؛ فهو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، وهذه المسألة الأخيرة كانت سبباً في طرد شيخ المعتزلة من حلقة سيّدنا الحسن البصري، وشيخ المعتزلة هو واصل بن عطاء، أول من قال بالاعتزال، واصل بن عطاء (٨٠-١٣١هـ) شخصية غامضة في طلب العلم، مرّة يظهر من طلاب سيّدنا الإمام الحسن البصري، ومرّة يظهر في مجالس المجوس، ومرّة يبدو مختلفاً إلى مجموعة من اليهود...، ولقد سكّنت المصادر التاريخية عن ذكر أصل أبيه، وكانت له زلّات وطامّات بسبب البلية التي بلّاه الله بها؛ وهو لفظه الرء غيناً، فكان جريئاً على كتاب الله تعالى، يميز قراءته بالمعنى، ولم يرو حديثاً واحداً، ولا عدّه علماء الرجال من رواة الحديث، إنّما جالس الإمام الحسن خمس سنوات بقي فيها صامتاً أربع سنوات، وكانوا يظنون به الخرس من طول صمته، ثم أظهر بدعته لما قال: الفاسق لا مؤمن ولا كافر، فطرده الإمام الحسن من مجلسه، فاعتزل مجلسه، فسُمّي أصحابه بالمعتزلة، ومن أصول المعتزلة أنّهم قدموا العقل على النقل، فضلُّوا وأضلُّوا، بل ضلُّوا ثلاثة من خلفاء بني العبّاس حين خلقوا محنة كبيرة في التاريخ الإسلامي تسمّى محنة خلق القرآن...

* * *

حكم الكهانة في الإسلام

وقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ إِذْ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ لِمِثْلِ هَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟» قَالُوا: كُنَّا نَقُولُ: يَمُوتُ عَظِيمٌ أَوْ يُوَلَدُ عَظِيمٌ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّهُ لَا يُرْمَى بِهِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ لَهُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ إِلَى هَذِهِ السَّمَاءِ، ثُمَّ سَأَلَ أَهْلُ السَّمَاءِ السَّادِسَةِ أَهْلَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ، ثُمَّ يَسْتَخْبِرُ أَهْلُ كُلِّ سَمَاءٍ حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبْرُ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَيَخْتَطِفُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ، فَيَرْمُونَهُ، فَيَقْدِفُونَهَا إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يُحَرِّفُونَهُ وَيَزِيدُونَ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ هُنَا، وَمُسْلِمٌ فِي الطَّبِّ.

حكم الكهانة في الإسلام: أخبرنا عليه الصلاة والسلام أَنَّ الشَّيَاطِينَ تَخْتَطِفُ السَّمْعَ مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَرْمُونَهُ بِالشَّهْبِ لِكَيْ لَا يَسْتَمِعُوا فَيَأْخُذُوا مَا سَمِعُوا إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْكُهَّانِ، ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ وَيَزِيدُونَ، وَفِي رِوَايَةٍ: «أَنَّهُ يَكْذِبُ مَعَهُ مِثْلُ كَذِبَةِ، فَيَصْدُقُ النَّاسَ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ بَقِيَّةَ الْكُذِّابَاتِ...» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ، وَهَذَا دَلِيلٌ أَنَّ الْكُهَّانَ كَاذِبُونَ.

أخي؛ لك أن تذهب إلى طبيبٍ ليداويكَ فهو مباح، ولك أن تسأل شيخاً عالماً عن حلٍّ لمشكلة لك فهذا جائز، أمَّا أن يذهب العبد إلى الكهنة والعَرَّافين الَّذِينَ

يَدْعُونَ عِلْمَ مَعْرِفَةِ الْمَغِيَّاتِ؛ لِيَعْرِفَ مِنْهُمْ مَرَضَهُ، أَوْ يَصَدِّقُوهُمْ فِيمَا يَتَكَلَّمُونَ رَجْمًا بِالْغَيْبِ، أَوْ يَسْتَحْضِرُونَ الْجِنَّ؛ لِيَسْتَعِينُوا بِهِمْ عَلَى مَا يَرِيدُونَ؛ فَهَؤُلَاءِ حَكَمُهُمُ الْكُفْرُ أَوْ الضَّلَالُ إِذَا ادَّعَوْا عِلْمَ الْغَيْبِ.

ففي «صحيح مسلم» حبيبك النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ؛ لَمْ يَقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»، الْعَرَّافُ: اسْمٌ لِلْكَاهِنِ وَالْمَنْجَمِ وَالرَّمَالِ الَّذِي يُضْرَبُ بِالرَّمْلِ، وَالْمَنْجَمُ: هُوَ الَّذِي يَسْتَدِلُّ بِالْأَحْوَالِ الْفَلَكَيَّةِ عَلَى الْحَوَادِثِ الْأَرْضِيَّةِ، وَهُوَ شَرَكٌ أَكْبَرُ مِثْلُ الْأَبْرَاجِ، وَالْكَاهِنُ: يَدَّعِي عِلْمَ الْغَيْبِ بَوْسَاطَةِ الْجِنِّ، وَحَبِيبُكَ يَقُولُ - فِي رِوَايَةِ أَبِي دَوَادٍ وَأَهْلِ السُّنَنِ -: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ؛ لِذَا تَبَرَّأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُ، وَعِنْدَ الْبَزَارِ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَكْهَنَ أَوْ تُكْهَنَ لَهُ».

لَا يَجُوزُ أَنْ تَغْتَرَّ بِصَدَقَتِهِمْ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ؛ لِأَنَّ هَذَا يَأْتِيهِمْ عَنْ طَرِيقِ الْجِنِّ مِنَ السَّيِّئِ كَمَا قِيلَ فِي الْحَدِيثِ.

هَلْ تَعْرِفُونَ لِمَاذَا يَكْفُرُ الْكَاهِنُ؟ وَمَنْ يَسْأَلُهُ؟ لِأَنَّ الْجِنَّ لَا يَخْدُمُونَ كَاهِنًا حَتَّى يَكْفُرَ وَيَشْرِكَ بِاللَّهِ، فَاَلْمُصَدِّقُ لَهُمْ فِي دَعْوَاهُمُ الْغَيْبِ يَكُونُ مِثْلَهُمْ، وَكُلُّ مَنْ يَتَعَاطَى ذَلِكَ فَقَدْ بَرِئَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَأَمَّا الْمَسْحُورُ الَّذِي يَتَأَثَّرُ بِسِحْرِ الْكُهَّانِ أَوْ كِتَابَاتِهِمْ؛ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ شَرَعَ لَهُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا يَدْفَعُ بِهِ أَذَاهُمْ، فِيهِ الْحَدِيثُ: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي لَيْلَةٍ؛ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ

من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح»، وفي الحديث أيضًا: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه»؛ أي: كفتاه عن كل سوء.

وعليك الإكثار من التَّعوُّذ بكلمات الله التَّامات من شرِّ ما خلق، «من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التَّامات من شرِّ ما خلق؛ لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذاك» وكذا يقول: «بسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السَّماء وهو السَّميع العليم» ثلاثاً صباح مساء.

ومن الأوراد الثَّابتة في علاج الأمراض حتى من السَّحر: «اللهم ربَّ النَّاس؛ أذهب البأس، اشف أنت الشَّافي، لا شفاء إلَّا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقماً» ثلاث مرَّات.

أتعرفون لما سحر سيِّدنا رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم ؟ نزل سيِّدنا جبريل يرقيه، اسمعوا الرُّقية: «بسم الله أرقيك، من كلِّ شيء يؤذيك، من شرِّ كلِّ نفس أو عين حاسد الله يشفيك، بسم الله أرقيك» الكهانة والتَّنْجيم والكشف في الفنجان حرام، وادِّعاء علم الغيب حرام وشرك ولو قال صاحبه: تعالوا نتسلَّى، والأبراج في الجرائد والمجلاَّت مجرَّد النَّظر إليها حرام؛ لأنَّ ادِّعاء علم الغيب فيه شرك وكفر.

علم الغيب خاصٌّ بالله تعالى: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣] لا يعلم الغيب إلَّا الله، فالنَّبِيُّ قال كما في القرآن: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] فالحذر الحذر معاشر المسلمين.



فضل سورة يس

كُلُّ أَحَادِيثِ فضائل السُّورَةِ ضَعِيفَةٌ، وَرَبَّهَا حَسَنٌ بَعْضُهُمْ إِسْنَادُهَا، وَأَفْضَلُ حَدِيثٍ فِيهَا: «اقْرَؤُوا يَسَ عَلَى مَوْتَاكُمْ» (رواه أَبُو دَوَادٍ وَابْنُ مَاجَهَ) وَمِنْهَا: «مَا مِنْ مَيِّتٍ يُقْرَأَ عَلَيْهِ سُورَةُ يَسَ إِلَّا هَوَّنَ اللَّهُ عَلَيْهِ» وَحَدِيثٌ: «مَنْ دَخَلَ الْمَقَابِرَ فَقَرَأَ سُورَةَ يَسَ؛ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَئِذٍ، وَكَانَ لَهُ بَعْدُ مِنْ فِيهَا حَسَنَاتٌ» وَمِنْهَا حَدِيثٌ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ يَسَ فِي لَيْلَةٍ ابْتَغَاءَ وَجْهَ اللَّهِ؛ غُفِرَ لَهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ» وَحَدِيثٌ: «لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبٌ، وَقَلْبُ الْقُرْآنِ يَسَ...» وَعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ: «إِنَّ فِي الْقُرْآنِ لِسُورَةً تَشْفَعُ لِقَارِئِهَا وَيَغْفِرُ لِمُسْتَمْعِهَا، أَلَا وَهِيَ سُورَةُ يَسَ، تَدْعِي فِي التَّوْرَةِ الْمَعْمَّةِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَمَا الْمَعْمَةُ؟ قَالَ: «تَعُمُّ صَاحِبَهَا بِخَيْرِ الدُّنْيَا، وَتَدْفَعُ عَنْهُ أَهَاوِيلَ الْآخِرَةِ، وَتَدْعِي الدَّافِعَةَ وَالْقَاضِيَةَ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَدْفَعُ عَنْ صَاحِبِهَا كُلَّ سُوءٍ وَتَقْضِي لَهُ كُلَّ حَاجَةٍ» الْمَهْمُ أَنَّ أَحَادِيثَهَا لَا تَخْلُو مِنْ مَقَالٍ، وَمِنْهَا مَوْضُوعٌ مُكَذِّبٌ، لَكِنَّ الْمَهْمَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ اتِّخَاذُهَا صَدِيقَةً لَكَ، وَصَدِيقُ الْقُرْآنِ لَا يَخِيبُ، وَتَوْقِيرُ الْقُرْآنِ عَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ.

كُلُّ أَصْدِقَائِكَ يَتْرَكُونَكَ فِي وَقْتِ الشَّدَةِ إِلَّا الْقُرْآنَ، «اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ»، «الصَّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» تَأْتِيكَ السُّورَةُ الصَّدِيقَةُ فِي قَبْرِكَ، تَدْفَعُ عَنْكَ أَمَامَ مَنْكَرٍ وَنَكِيرٍ، وَتَقُولُ: إِلَيْكُمَا عَنْهُ، فَقَدْ شَفَّعَنِي رَبِّي فِيهِ، تَأْتِيهِ عَلَى شَكْلِ مَلَكٍ بَهِيِّ الطَّلَعَةِ، فَيَقُولُ لَهَا: مَنْ أَنْتِ؟ فَتَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ

الصَّالِح، أنا القرآن الَّذي كنت تتلوني، اليوم أؤنس وحشتك، وأقلُّ غربتك،
وأشهد بك مشاهد القيامة، وأدخلك الجنة».

يقول ابن كثير: إِنَّ حَدِيثَ «اقْرَءُوا يَسَّ عَلَى مَوْتَاكُمْ» سَبَّبَ تَوَجُّهَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ
إِلَى الْقَوْلِ: إِنَّ مِنْ خَصَائِصِ هَذِهِ السُّورَةِ تَيْسِيرَ الْأُمُورِ، وَتَسْهِيلَ الْعُسْرِ بِإِذْنِ اللَّهِ
تَعَالَى، فَهِيَ تَجْلِبُ الرَّحْمَةَ لِلْمَيِّتِ.

* * *

التفضيل بين الأنبياء

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ قَالَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى؛ فَقَدْ كَذَبَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

التَّفْضِيلُ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ: سَيِّدُنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْبَغِي عَلَى مَنْ يَفْضُلُ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ مَعَ تَنْقِصٍ قَدْرَ بَعْضِهِمْ، وَفِي حَدِيثٍ مُتَّفَقٍ عَلَيْهِ: «لَا تَفْضَلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ»، وَفِي حَدِيثٍ مُتَّفَقٍ عَلَيْهِ: «مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى» فَلَمَّا ذَا قَالَ ذَلِكَ؟ قَالَهُ لِيُعَلِّمَنَا عَقِيدَةً مِنَ الْعَقَائِدِ، مَا هِيَ؟ يَقُولُ: لَا تَعْتَقِدُوا أَنِّي أَقْرَبُ إِلَى اللَّهِ فِي الْحَسَنِ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى، حَيْثُ نَاجَيْتُ اللَّهَ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، وَهُوَ نَاجَى رَبَّهُ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ فِي قَاعِ الْبَحْرِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ مَنْزَرَهُ عَنِ الْجَهَةِ وَالْمَكَانِ، يَسْتَوِي فِي حَقِّهِ مَنْ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي قَاعِ الْبَحَارِ.

مَنْ فَضَّلَ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ تَفْضِيلًا يُوَدِّي إِلَى تَنْقِصٍ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ؛ فَلَا يَجُوزُ لَهُ ذَلِكَ، وَمَنْ سَخَّرَ أَوْ أَنْقَصَ مِنْ قَدَرِ نَبِيٍّ؛ فَقَدْ خَرَجَ مِنْ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ، فَكَيْفَ بِمَنْ سَبَّ نَبِيًّا؟! وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ تَعَالَى هَذَا يَقْتُلُ، وَأَمَّا التَّفْضِيلُ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ بِدُونِ تَنْقِصٍ قَدَرِ آخَرِينَ؛ فَهَذَا جَائِزٌ جَائِزٌ.

وَهُنَاكَ أَدَلَّةٌ مِنَ الْقُرْآنِ: قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوَّلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الْأَحْقَافُ: ٣٥] اخْتَارَ اللَّهُ تَعَالَى هَؤُلَاءِ الرُّسُلَ عَلَى جَمِيعِ الرُّسُلِ، وَهُمْ سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمُ، وَسَيِّدُنَا مُوسَى، وَسَيِّدُنَا عِيسَى، وَسَيِّدُنَا نُوحٌ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَأَمَّا سَيِّدُنَا آدَمُ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] التَّفْضِيلُ دُونَ انْقِصَافٍ قَدَرِ

الأنبياء جائزٌ في القرآن والسُّنة، ففي السُّنة يقول عليه الصلاة والسلام: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر» (رواه الترمذيّ) «وأنا أكرم الأوّلين والآخرين على الله ولا فخر» (رواه الترمذيّ) وهل صرّح القرآن بأفضليّة الخلق من الرسل والأنبياء؟ الجواب: نعم؛ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ (من هو؟ سيّدنا محمّد) مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١] فهذا تفضيل نبيّنا على الأنبياء.

كلُّ الأنبياء أتباع لسيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم ونوابٌ عنه في تبليغ الدعوة، ومن أجمل ما قاله الإمام النابلسيّ:

كلُّ الأنبياء والرسل الكرام أتوا نيابةً عنه في تبليغ دعواه
فهو الرسول إلى كلّ الخلائق في كلّ الدهور ونابت عنه أفواه

لذلك وضع علماء العقيدة التفضيل بين الأنبياء في كتبهم، ونظموه شعراً، قال صاحب «جوهرة التّوحيد»:

وأفضل الخلق على الإطلاق نبينا فمِلْ عن الشّقاق
والأنبياء يلونه في الفضل وبعدهم ملائكة ذي الفضل

عليكم أن تحفظوا القواعد؛ لتكون عقيدتكم سليمة:

١- أفضل الخلق على الإطلاق سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

٢- أولو العزم من الرسل.

٣- بقیة الرسل ٣١٣.

٤- بقیة الأنبياء غیر الرسل ١٢٤٠٠٠ نبیًا.

٥- رؤساء الملائكة: سیدنا جبریل ومیکائیل وإسرافیل ورضوان ومالك والكروبیون...

٦- خواص البشر أفضل من عوام الملائكة؛ كأولاد النبی صلی الله علیه وسلم وكسیدنا أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ والعشرة المبشّرين بالجنة وأهل بدر وأحد وبيعة الرضوان والسّابقين إلى الإسلام، فخواص البشر أفضل من عوام الملائكة.

٧- عوام الملائكة.

٨- التّابعون.

٩- تابعو التّابعين.

١٠- الأئمة الأربعة.

١١- أئمة الأشاعرة والماتريدية.

١٢- الإمام الجنید وطبقته.

١٣- وهكذا كلّ طبقة خير ممّن بعدها.

وأنتم علیکم أن تحمدوا الله تعالى أنکم أتباع لأفضل المخلوقات العلویة والسفلیة من البشر والجنّ والملک في الدّنيا والآخرة، فالتابع يشرف بشرف المتبوع، فأنتم شارکتهم الأنبياء في أنهم أتباع لسیدنا محمد صلی الله علیه وسلم، فهل عرفتم قدر نبیکم الأعظم؟؟ صلّوا علیه وسلّموا تسليماً.

* * *

هل يعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغيب

عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اخْتَبَسَ عَنَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ غَدَاةٍ عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ، حَتَّى كِدْنَا نَتَرَايَا عَيْنَ الشَّمْسِ، فَخَرَجَ سَرِيعًا، فَتَوَّابَ بِالصَّلَاةِ، فَصَلَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَجَوَّزَ فِي صَلَاتِهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ دَعَا بِصَوْتِهِ قَالَ لَنَا: «عَلَى مَصَافِّكُمْ كَمَا أَنْتُمْ» ثُمَّ انْفَتَلَ إِلَيْنَا، فَقَالَ: «أَمَّا إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمُ الْغَدَاةَ، إِنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ، فَتَوَضَّأْتُ وَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي، فَنَعَسْتُ فِي صَلَاتِي حَتَّى اسْتَقْبَلْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي، قَالَهَا ثَلَاثًا، قَالَ: فَرَأَيْتَهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثُدَيَّ فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: فِي الْكُفَّارَاتِ، قَالَ: مَا هُنَّ؟ قُلْتُ: مَشْيُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْحَسَنَاتِ، وَالْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ حِينَ الْكِرِيهَاتِ، قَالَ: فِيمَ؟ قُلْتُ: إِطْعَامِ الطَّعَامِ، وَلَيْنِ الْكَلَامِ، وَالصَّلَاةِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسِ نِيَامًا، قَالَ: سَلْ؛ قُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ، أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهَا حَقٌّ فَادْرُسُوهَا ثُمَّ تَعَلَّمُوهَا» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ.

فهل يعلم رسول الله الغيب حتى عرف كل شيء كما في الحديث؟! ومنها حديث: «تأتي الفتنة من هنا» وأشار إلى المشرق، ومنها حديث: «تقتل عمّاراً الفئّة الباغية» ومنها: «هنالك لزلازل وفتن، ومنها يطلع قرن الشيطان» ومنها: «تفترق أمّتي على بضع وسبعين فرقة كلّها في النّار إلّا واحدة» ومنها: «لا تقوم الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات...» وكان رسول الله يقول: «سلوني» ويكثر من ذلك، وقال العلماء: هذا القول منه صلى الله عليه وسلّم محمول على أنّه أوحى إليه، وإلّا فلا يعلم كلّ ما سُئل عنه من المغيّبات إلّا بإعلام الله تعالى له؛ كما قاله الإمام النووي في «شرح مسلم».

انتبهوا؛ هناك رسلٌ أطلعهم الله تعالى على الغيب؛ مثل: سيّدنا عيسى وسيّدنا يوسف وسيّدنا نبيّ الله الخضر، وهناك رسل لم يُطلعهم الله على الغيب، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مَنْ رُسُلِهِ مِنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩] ﴿يَجْتَبِي﴾ أي: يختار. ﴿مِنْ رُسُلِهِ﴾ ﴿مِنْ﴾ للتّبعيض؛ أي: من بعض رسله، وليس كلّهم. ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ دليل آخر على أنّه ليس كلّ الرسل قد أطلعهم الله على الغيب. ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رُسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

نفى الله علم الغيب عن جميع الخلائق، واستثنى بعض الرسل ﴿مِنْ رُسُولٍ﴾ انظروا: سيّدنا إبراهيم لم يطلع على الغيب، وإلّا عرف أنّ ضيوفه كانوا من الملائكة، ولكنه خاف منهم ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠] سيّدنا لوط أيضًا ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: ٧٧]،

وسيدنا موسى لم يعرف أن السامري قد أضلَّ قومه إلَّا بعد أن أخبره الله بذلك، وقضيَّته مع نبيِّ الله سيدنا الخضر دليل على أنه لم يكن يعلم الغيب، وسيدنا سليمان لم يكن يعرف بأنَّ هناك مملكةً تحكمها ملكة تسجد للشمس هي وقومها.

ولكن هل اطَّلَعَ رسول الله على الغيب؟ الجواب من القرآن: نعم؛ هناك آيات قرآنيَّة تثبت بأنَّ رسول الله لا يعلم الغيب إلَّا بما أوحاه الله إليه، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِ اتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠] بعض المفسِّرين يقول: قال ذلك تواضعًا؛ حتى لا يُعتقد فيه اعتقاد النَّصارى بالسَّيِّد المسيح: لا أدَّعي الإلهيَّة، ولا أدَّعي المملكيَّة، ولكن أدَّعي الرِّسالة.

وفي كلِّ مرَّة يوحى الله إلى نبيِّه ليعلم الغيب ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٤] ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٤٩] ومن خارج القرآن: هذا الحديث الذي بدأتُ به كلامي قال فيه: «فتجلَّى لي كلُّ شيء وعرفتُ...» وهناك آية أخرى توضِّح ذلك: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] أي: المتقولين من تلقاء أنفسهم، بل قولي من جبريل عن الله تعالى، فعلمُ النبي صادر عن علم الله تعالى، والدليل: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠] ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رُسُولٍ...﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

* * *

تكفير الكبائر

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا وَأَكْثَرُوا، وَزَنَوْا وَأَكْثَرُوا، فَاتُّوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لِحَسَنٍ لَوْ نُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً، فَنَزَلَ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، وَنَزَلَ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وللتِّرْمِذِيِّ: قَرَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] «وَلَا يُبَالِي».

كان كفار مكة يتحرّجون من الإسلام، ويخافون ألا يقبل منهم الإسلام؛ لأنّهم عملوا الأفاعيل خلال حياتهم السابقة، قتلوا ظلماً وزنوا وأشركوا، وخاصة عندما نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩] وكان إذا دعاهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الإسلام قالوا: كيف تدعونا وأنت تزعم أنّ من قتل نفساً أو أشرك أو زنى؛ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً؟! وإنا قد فعلنا ذلك كلّهُ، فهل تجد لنا من رخصة؟ فسكت السيّد الأعظم، ولكنّ أمين وحي السماء نزل على أمين وحي الأرض بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾

[الفرقان: ٧٠] فأرسل بها إليهم، ولكنهم قالوا: هذا شرط شديد، لعننا لا نقدر عليه ﴿تَابَ - وَآمَنَ - وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ ثلاثة شروط، فسكت الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم، فأرسل مولانا عز وجل الأمين جبريل يطوي السبع الطباق، ويجوب الآفاق، ومعه آية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فأرسل إليهم نبينا بهذه الآية، فقالوا: ما زلنا في شبهة، لعله لا يشاء أن يغفر لنا أم لا، فهل غير ذلك؟! فأرسل الله تعالى الأمين جبريل بآية البشارة والمغفرة العامة، وفيها العفو العام: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] فأقبلت قريش تدخل في دين الله أفواجا، فقال المسلمون: يا رسول الله؛ هذا لهم خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال: بل للمسلمين عامة.

فيا أخي المسلم:

إذا كثرت منك الذنوب فداوها بمد يد في الليل والليل مظلم
ولا تقنطن من رحمة الله إنما قنوطك منها من خطاياك أعظم

﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] سأل أعرابي سيّدنا النبي صلى الله عليه وسلم: من يلي الحساب يوم القيامة؟ فقال: الله تبارك وتعالى، قال: هو بنفسه؟ قال نعم، فتبسم الأعرابي، فقال: ممّ ضحكت يا أعرابي؟! فقال: إنّ الكريم إذا قدر عفا، وإذا حاسب سامح، فقال صلى الله عليه وسلم: «ألا لا كريم

أكرم من الله، هو أكرم الأكرمين» فيا أخى المسلم؛ لو أراد الله عقوبة المؤمن في جهنم وتخليده ما ألهم معرفته وتوحيده.

فيا من أسأ فيما مضى ثم اعترف كن محسنًا فيما بقي تعطّ الشرف
وابشّر بقولِ الله في قرآنه: ﴿إن يَتَنَهَوْا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾

اللهم إنّنا تبنا إليك توبة نصوحًا، فاغفر لنا يا غفور.

* * *

المجسّمة

عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ فَأَيُّ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «عَلَى الصِّرَاطِ يَا عَائِشَةُ» رواه الترمذي.

المجسّمة شيوخهم اليهود قالوا: إنّ الله تعب في خلق السماوات في ستة أيام، ثمّ جلس على عرشه، واستراح يوم السبت، ردّ عليهم مولانا عزّ وجلّ: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

درس اليوم درس في العقيدة يعطينا إياه سيّدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، درس اليوم تنبيه وتحذير من المجسّمة والمشبهة، فالتجسيم والتشبيه للذات المقدسة حرام، فإن اعتقده أحد خرج عن الملة، واليهود هم الأصل في هذه العقيدة، قالوا: إنّ الله تعالى تعب من خلق السماوات والأرض في ستة أيام، فجلس على العرش في اليوم السابع؛ وهو السبت، فردّ عليهم مولانا عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] أي: من تعب.

كلّ من يعتقد هذه العقيدة، وأنّ الله فوق العرش، وأنّ له أصابع ويدين ووجهًا وساقًا وعينًا؛ فقد جعلوا إلههم صنمًا يعبد، ووقعوا في ورطة التجسيم.

كلّ من يقرأ لفظ الجلالة (الله) ويشير إلى السماء؛ فهو جهوي، وكلّ من يقرأ حديث: «إن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن» ويشير بإصبعه؛ فهو مجسّم، وكلّ من يقرأ حديث: «ينزل ربّنا عزّ وجلّ في ثلث الليل» وينزل من على

منبره، ويقول: كنزولي هذا؛ فهو مجسّم، هذه عقيدة ضلال وسفّه وباطل، وقد سئل الإمام مالك عمن يفعل ذلك في حديث: «يجرك إصبعيه» فقال: ليس له كفارة إلا أن تقطع إصبعاه، عقيدتنا هي عقيدة التنزيه، وكلُّ من يقرأ لفظاً فيه إيهام تشبيه الله تعالى بخلقه؛ فواجبه أن يقرأ الآية، ثم يقول -دون أي كلمة بينهما-: الله أعلمُ بمرادها، وهذا يُسمى عقيدة التفويض، أو أن ينزه الله تعالى، ويؤول اللفظة بما يناسب عقيدة التنزيه، فيصرف اللفظ عن ظاهره المحال في حقّه تعالى إلى معنى يليق بذاته وصفاته وأفعاله، هذه العقيدة تسمّى التأويل، وهي أسلم لمن لا يفهم.

يا شباب؛ القرآن فيه ألفاظ متشابهة كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] أخي المسلم؛ ماذا ستقول عندما تقرأ في الحديث الشريف: «والذي نفسي بيده» وتقرأ في القرآن: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ [ص: ٧٥]، وتقرأ في القرآن: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]؟؟ هل لله تعالى يد أم يدان أم أيدي؟ هذه ألفاظ موهمة لا يجوز اعتقادها.

وعندما تقرأ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] ثم تقرأ: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] فهل ستقول: لله عين أم عينان أم أعين؟! تلك ألفاظ موهمة لا يجوز

اعتقادها، هذا تمثيل يمثله القرآن لتفهم، وإلا فالله تعالى منزّه عن الجارحة، ومنزّه عن الصورة، ومنزّه عن الجهة، ومنزّه عن الجسميّة، ومنزّه عن صفات الحوادث.

واجبك مسلماً أن تقرأ وتمرّ على الآية وتقول: الله أعلم بمرادها، وهذا تفويض المعنى لله، أو تصرف اللفظ عن ظاهره المُحال في حقّه تعالى، وتؤول اليد بالقدرة، واليدان بالقدرة والإرادة، والأيدي تؤول بالعِلْم والإرادة والقدرة، والعين تؤول بالحفظ، والأعين تؤول بالحفظ والتربية والرعاية.

من أين استقيناه هذه القواعد؟ من القرآن؛ من قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ومرّة سئل الإمام مالك عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وسئل الشافعي فقال: آمنت بالله، واتّهمت نفسي، وسئل الإمام أحمد فقال: الاستواء كما يقول، لا كما يخطر في العقول.

* * *

أشراط الساعة

عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كَيْفَ أَنْعَمُ، وَقَدْ التَّقَمَ صَاحِبُ الْقَرْنِ الْقَرْنَ، وَخَنَى جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَى سَمْعَهُ، يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْمَرَ أَنْ يَنْفُخَ فَيَنْفُخَ؟!» قَالَ الْمُسْلِمُونَ: فَكَيْفَ نَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا».

فالساعة قريبة، وكلُّ آتٍ قريبٌ، وقد علم الله أزلًا، وأنزله في كتابه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣] ونحن نعيش في هذه الفترة الزمنية القريبة القصيرة، وهذه الأحاديث تحذيرٌ وتنبيهٌ وتخويفٌ لأهل الإيذان أن تأتيهم الساعة بغتة؛ كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨] أي: جاءت علاماتها، وكان الحبيب الأعظم يقول: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» حققوا معي في أمارات الساعة، كلها وقعت إِلَّا ١٢ أمارة، ومن علاماتها الهرج والمرج؛ أي: كثرة القتل، كما في حديث متفق عليه، ومن علاماتها التطاول في البنيان، كما رواه مُسْلِمٌ، وعقُّ الرَّجُلُ أمه وأباه وبره صديقه وزوجه.

روى البُخَارِيُّ: «إِنْ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَكْثُرَ الْجَهْلُ، وَيَكْثُرَ الزُّنَى، وَيَكْثُرَ شَرَبُ الْخَمْرِ، وَيَقْلَّ الرِّجَالُ وَتَكْثُرَ النِّسَاءُ حَتَّى يَكُونَ لْخَمْسِينَ امْرَأَةً الْقَيْمُ الْوَاحِدُ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ أَسْعَدُ النَّاسِ بِالْدُّنْيَا لَكَعِ بْنِ لَكَعٍ» - قال أحمد: الأحمق واللئيم - «وَإِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ لَغَيْرِ أَهْلِهِ فَاَنْتَظَرُوا السَّاعَةَ» و«كَانَ

سيّد القوم أرذلهم» و«رأس الكفر نحو المشرق من حيث يطلع قرن الشيطان» حديث متفق عليه، وفي رواية: «منها يطلع قرنا الشيطان» فطلع محمد بن عبد الوهاب والبغدادي.

انظروا إلى المهاجرين إلى أوروبة وأمريكة، هؤلاء أخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنهم فقال: «لا تقوم الساعة حتّى تلحق قبائل من أمتي بالمشرّكين، ولا تقوم الساعة حتّى يتقارب الزمان، فتكون السنّة كالشهر، والشهر كالجمعة، والجمعة كالיום، ويكون اليوم كالساعة».

كلّ هذه الأمارات وقعت وانقضت وحدثت، ولم يبقَ إلّا ١٢ علامة: خروج جبل من ذهب في نهر الفرات، وخروج الإمام المهدي، وعشر أماراتٍ سميت بالكبرى: الدجال، ونزول سيّدنا عيسى، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج دابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وهدم الكعبة، ورفع القرآن، والدخان، وخروج النار من عدن وحضرموت، وفي حديث متفق عليه: «لا تقوم الساعة حتّى تخرج نارٌ من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى».

وعندها الساعة كالكمال المتمم، لا يعلم أهلها متى تفجّؤهم بوليدها، بانتظار نفخة الصعق، فيا أحبّابنا؛ عودًا إلى الله تعالى، عودًا إلى الطاعة، وإلا فستندمون، ولات ساعة مندم!!

* * *

الأدعية هي الأدوية

عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، رواه الترمذي.

الأدعية أنفع الأدوية، إنها عدو البلاء، تدافعه وتعالجه وتمنع نزوله، أو ترفعه أو تخففه إذا نزل، والدعاء مع البلاء على ثلاثة مقامات: ١- أن يكون أقوى من البلاء فيرفعه، ٢- أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه، ويصيب العبد ولكن يخففه، ٣- أن يتقوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه، وفي الأحاديث حديث: «الدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزَلْ»، «لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ»، «الدُّعَاءُ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ»، «ما ألهم الله عبداً الدعاء إلا وهو يريد أن يستجيب له، ولن يهلك مع الدعاء أحد».

وعد الله عباده أن يستجيب لهم كلما دعوه، وتوعد تارك الدعاء بالعذاب، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أي: صاغرين، وفي الحديث: «ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله تعالى إياها أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم» فقال رجل: إذا نُكِّرَ، قال: «الله أكثر»، وهذا يوصلنا إلى شروط الدعاء، ورُبَّ سائل يسأل: نحن ندعو منذ ست سنوات أن يفرج الله عنا ولم يفعل؟! أقول: نفذوا شروط الدعاء يستجيب لكم، هل لقمتمك حلال؟ هل ثوبك حلال؟ هل بيتك حلال؟ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا

يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ [المائدة: ٢٧] فهل أنت من المتقين؟ هل تتقي الله تعالى في حياتك؟

عندنا ثلاثة أحاديثٍ يجب الانتباه إليها:

الأول: «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ مَنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ» رواه الترمذي.

الحديث الثاني: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ، فَإِنَّهُ لَا مُكْرَهَ لَهُ» حديث متفق عليه.

الحديث الثالث: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، فَيَقُولَ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي» حديث متفق عليه، وقد يكون عدم الاستجابة هو الأفضل للعبد، فحينئذ يؤتيه الله تعالى من الخير مثلها، أو يصرف عنه من السوء ما يقابلها، أو يدخر له ثوابها في الآخرة، رواه أحمد.

احفظوا القاعدة الأخيرة: حديث رواه الترمذي: «مَنْ فُتِحَ لَهُ مِنْكُمْ بَابُ الدُّعَاءِ؛ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ، وَمَا سُئِلَ اللَّهُ شَيْئًا يُعْطَى أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ الْعَافِيَةَ».



صفة السمع لله تعالى

عن عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ، أَوْ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ، كَثِيرٌ شَحْمٌ بَطُونِهِمْ، قَلِيلٌ فَفَقَهُ قُلُوبِهِمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟ قَالَ الْآخَرُ: يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلَا يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ الْآيَةَ [فصلت: ٢٢]، رواه الشيخان والترمذي.

صفة السمع لمولانا عزَّ وجلَّ من صفات المعاني الواجبة له تعالى، تنكشف له بها جميع الأصوات الموجودة، ليست بأذن ولا جارحة مثلنا يعني، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

احفظوا القواعد: الله تعالى يسمع كل شيء موجود، فإذا علمت ذلك فاستحي من الله تعالى عندما تتكلم بسوء، أو تضع الساعات في الجوال على أذنك لتسمع الموسيقى المحرمة، أخفيتَ معصيتك عن الخلق بالساعات، وجعلتَ الله تعالى أهون الناظرين إليك!! لم تبالِ أنه يسمع بمعصيتك، وكأنك تستهين به!!

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل: خلوتُ ولكن قل: عليَّ رقيب
ولا تحسبنَّ الله يغفل ساعةً ولا أنَّ ما تخفي عليه يغيب
الله جل في علاه يسمع دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء...، سمع سيِّدنا يونس وهو في ظلمة عمق البحر، وفي ظلمة الليل، وفي ظلمة أحشاء الحوت، وهو يقول: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ

الظَّالِمِينَ ﴿[الأنبياء: ٨٧] فناداه مولانا عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، وحين أرسل سيدنا موسى وهارون إلى فرعون: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٥، ٤٦]، وحين كاد المشركون لحبيبه ومصطفاه قال له: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠] وسمع قول اليهود الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وسمع قول السيِّدة خولة بنت ثعلبة حين وقفت بطرف بيت رسول الله تشتكي زوجها، فقال: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] لقد سمع الله قولها، والسيِّدة عائشة في البيت نفسه لم تسمعها! وعندما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه يرفعون أصواتهم بالتكبير؛ أشفق عليهم ودنا منهم، وقال: «اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا» ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

فيا أخي المسلم! راقب ربَّك على الدوام، واشتغل بالذكر، ولا تجعل للشيطان عليك سبيلًا، إذا هممت بكلمة سوء فقل: كيف أقولها والله يسمعني وقد علمت أنَّه نهاني عنها؟!

ذُكر: أن رجلاً عشق امرأة وأغرم بها، فقال له بعض أصحابه: إن خلوت بها في مكانٍ بعيدٍ عن الناس، لا يراكما إلَّا الله؛ فماذا تفعل معها؟ فقال: لا أجعل ربي أهون الناظرين إليَّ!! فسمع هاتفاً: وعزتك؛ لستُ أهون الناظرين إليك.

﴿ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ أي: ظلمًا كثيرًا كبيرًا ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، اسمعوا إلى السري السقطي ابن أخت سيّدنا الجنيد، قال له يومًا: يا جنيد؛ ماذا تقول قبل نومك؟ قال: أذكر الله تعالى، قال له: إذا وضعت جنبك على الفراش فقل ثلاثًا: الله معي، الله شاهدي، الله مطلعٌ علي، ثم تركه أيامًا، ثم جاءه يومًا، فقال: تفكر الآن بما تقول، فصار الإمام الجنيد يتفكر في معاني الكلمات: معي، شاهدي، مطلعٌ علي، ثم جاءه يومًا، فقال: يا جنيد؛ إنَّ مَنْ كان الله معه وشاهده ومطلعًا عليه؛ لا يعصيه، فجعل هذا الدرس العظيم الإمام الجنيد سيّد أهل عصره تقوى وورعًا ببركة الكلمات التي تعلمها من خاله السري. احفظوا القواعد كلّ جمعة: إذا كان الله مولانا عزَّ وجلَّ يسمع جهرنا؛ فإنَّه يسمع سرَّنا وما أخفينا، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢].



أنواع الوحي

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

﴿وحيًّا﴾: يعني: إشارة إلى نوعين من الوحي؛ منامًا أو إلهامًا.

منامًا: في الحديث: (أول ما بدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح) وقد استمرت هذه الفترة ستة أشهر من أول بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، كان يرى الرؤيا، فيرى تأويلها في اليقظة مثل فلق الصبح، وهذا تمهيد وتوطئة لما سيتلقاه النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك من الوحي الصريح الكلي، وبما ورد من هذا النوع قوله جلّ وعلا: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وكذلك قوله في قصة إبراهيم: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ولأن رؤيا الأنبياء حق قال له: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢].

إلهامًا: مثل حديث: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي: أَنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ» فقال: «نَفَثَ فِي رُوعِي» ولم يقل: كلمني أو أوحى إليّ، وهذا يدل على أن من طرق الوحي الشرعية النفث في الروح، والإلهام الذي يقع في قلوب الأنبياء.

و(الرُّوع): الخلد أو النفس، يلقي المعنى من غير أن يراه، وجاء في حديث أخرجه أبو نعيم في «الحلية» والبيهقي في «مجمع الزوائد» وهو صحيحٌ بشواهده، فالرزق مقسومٌ، ولا بد أن تقبل كل نفس إلى قسمتها، ولن تموت حتّى توفى ما لها من هذه القسمة، ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢].

النوع الثالث: من وراء حجاب، فلا مباشرة بين الله تعالى وأنبيائه، لكن من وراء حجاب، وهذه وقعت لنبيين من أنبياء الله تعالى؛ أول من كلمه ربه موسى، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال له موسى: ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ لَنْ تَرَانِي ﴿[الأعراف: ١٤٣]، والثاني ممّن كلمه ربه سيّدنا محمد في حادثة المعراج، وقصة التحيات، وفرض الصلوات.

النوع الرابع: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١] هذا هو النوع الأشهر والغالب في سيّدنا جبريل، ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿[الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النحل: ١٠٢].

* * *

مغبة ترك الشريعة

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ قُرَيْشًا لَّمَّا اسْتَعْصَوْا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ دَعَا عَلَيْهِمْ بِسِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ، فَأَصَابَهُمْ قَحْطٌ وَجَهْدٌ حَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ، فَيَرَى مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الْجُحْدِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠] فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ اسْتَسْقِ اللَّهَ لِمُضَرٍّ؛ فَإِنَّهَا قَدْ هَلَكَتْ، قَالَ: لِمُضَرٍّ؟! إِنَّكَ لَجَرِيءٌ!! فَاسْتَسْقَى لَهُمْ فَسَقُوا، فَتَزَلَّتْ: ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥] فَلَمَّا أَصَابَتْهُمْ الرَّفَاهِيَةُ؛ عَادُوا إِلَى حَالِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦] يَعْنِي: يَوْمَ بَدْرٍ، رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَالتِّرْمِذِيُّ.

فَهَمَّتْ إِشَارَةُ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ عَلَى النُّحُو التَّالِي: أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى لَمَّا اسْتَعْصَوْا عَلَى أَوْامِرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَرَكُوا الشَّرِيعَةَ؛ أَصَابَتْهُمْ هَذِهِ الضَّرَاءُ بِسِنِينَ كَسَنِي سَيِّدِنَا يُوسُفَ، فَأَصَابَهُمْ قَحْطٌ وَجَدْبٌ وَتَخْرِبٌ وَطَرْدٌ، حَتَّى زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ، وَهَلَكَ مِنْ هَلَكَ مِنْهُمْ، وَدُمِّرَتْ بِيُوتُهُمْ، وَشُرِّدَتْ أَسْرَهُمْ؛ بِسَبَبِ إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الشَّرِيعَةِ سِنِينَ مُتَطَاوِلَةً، وَتَحْدِيثِهِمْ لِمَلِكِ الْمُلُوكِ جَلَّ جَلَالُهُ؛ كَمَثَلِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ الَّتِي عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ، ﴿فَجَاءَهَا بِأُسْنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤]، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧]، ﴿كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢]، ﴿فَجَعَلْنَاهَا

حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ ﴿يُونُسُ: ٢٤﴾ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿يُوسُفُ: ١١٠﴾، فَلَمْ يَكْ يَنْفَعَهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴿غَافِرُ: ٨٥﴾، وَإِنْ لَمْ يَعودوا إلى الله تعالى، وأرادوا أَنْ يبقوا على غنائهم ورقصهم وتكسفهم واختلاطهم وإعراضهم عن دين الله؛ فَإِنَّ الله تعالى يندرهم بطشته قائلاً: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦]، هذا إشارة الحديث.

فيا معشر المسلمين؛ ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ [غافر: ٢٩] ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤]، هذا إرهابات العذاب، وإنذارات الهلاك، قد أرسلها ربكم حقاً؛ لتعودوا إلى رشدكم ودينكم، والله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، واسمعوا إلى البشارات إِنْ عدنا إلى الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، ﴿وَنَجِّنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨] المطلوب اليوم التضرع والدعاء وإصلاح الحال مع الله تعالى، وهما هو يقول لكم: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: ٤٣]، اللهم إليك نشكو ضعفنا، وقلة حيلتنا، وهواننا على الناس، يا أرحم الراحمين؛ تبنا إليك، وندمنا على ما فعلنا، وعزمنا على ألا نعود إلى المعصية، فاقبل توبتنا...

* * *

أسعد أسرة في الإسلام

كَانَ معاوية رضي الله عنه اسْتَعْمَلَ عَلَى الْحِجَازِ مروان، فَخَطَبَ، فَجَعَلَ يَذْكُرُ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ؛ كَيْ يُبَايِعَ لَهُ بَعْدَ أَبِيهِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ شَيْئًا، فَقَالَ: خُذُوهُ، فَدَخَلَ بَيْتَ عَائِشَةَ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ مَرْوَانُ: إِنَّ هَذَا الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا إِلَهُهُ أَفْ لَكُمْ أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ الآية [الأحقاف: ١٧]، فَقَالَتْ عَائِشَةُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِينَا شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا أَنَّهُ أَنْزَلَ عُذْرِي، رواه البخاري.

مَنْ أسعد أسرة في الإسلام؟ إنَّها الأسرة التي دخل أفرادها في الإسلام، وحُسِّنَ إسلامهم، ومدَّحهم الله تعالى في كتابه الكريم زمن سيِّدنا رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم، إنَّها أسرة سيِّدنا الصديق التي دخل أفرادها كلهم في الإسلام، كان أبو بكرٍ هو أوَّل من أسلم من الرِّجال، ولَقَّبَهُ رَبُّهُ بالصِّديق: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر: ٣٣]، وَلُقِّبَ بالصديق يوم كُذِّبَ النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم في الإسراء والمعراج، قال سيِّدنا رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم لسيِّدنا جبريل: «من يصدقني إذا أخبرتهم؟» فقال: يصدقك أبو بكر، فهو الصديق.

كان سيِّدنا أبو بكر صاحب النبي الكريم في الهجرة، والمدافع عن الإسلام بنفسه وماله، ولم يطلق في القرآن اسم (الصحابي) إِلَّا على اسمه هو: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة: ٤٠]، وهو في الحقيقة المسلم الأول، أيد الله به الإسلام يوم الردة، وهو خير الناس بعد الأنبياء والرسل وأولاد النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم.

وأماً ابنته فهي الصديقة بنت الصديق، حبيبة رسول الله، المبرأة من الله تعالى، وهي المعلمة الأولى في الإسلام.

وأبوه أبو قحافة أسلم، وأمه أم الخير سلمى بنت صخر أسلمت، وأولاده كلهم أسلموا، سيّدنا عبد الرحمن وعبد الله ومحمّد وأسماء وعائشة وأم كلثوم، كلهم أسلموا، وزوجته أم رومان بنت عامر أسلمت، كل أفراد أسرة الصديق أسلموا وقد كفر الناس، وليس هناك أسرة من المهاجرين الأولين أسلمت عن بكرة أبيها إلا أسرته، فمن أين يتهم مروان بن الحكم ولده سيّدنا عبد الرحمن بهذه التهمة الباطلة؟!؟

وحتّى لا يكون في قلب أحدكم ضغينة على مروان بن الحكم فاعلموا أنه رابع خلفاء بني أمية، وهو المؤسس للسلالة التي حكمت العالم الإسلامي في العصر الأموي حوالي مئة عام (٤١-١٣٢هـ)، فكانت الخلافة الثانية بعد الخلافة الراشدة، مروان وُلِدَ سنة ٢هـ، ومات سنة ٦٥هـ، عن عمر ٦٣ سنة، ودُفِنَ بدمشق، كان فقيهاً ضليعاً وثقة من رواة الحديث، روى له البخاري وأصحاب السنن الأربعة، وكان كاتباً لسيّدنا عثمان أثناء خلافته، بويع على الخلافة بعد ضعف الدولة الأموية، وقد بايع الناس سيّدنا عبد الله بن الزبير، ثم مات مروان بن الحكم بعد أن نجح في إخضاع الشام ومصر للأمويين، وفشل في السيطرة على الحجاز والعراق، وتولى بعده عبد الملك بن مروان الخلافة، وحكّم الدول الإسلامية كافة، وفتح المغرب.

فسيّدنا عبد الرحمن لم تنزل فيه آية واحدة فيها ذمٌّ؛ لأن أباه كان الصديق الأكبر،
وكرّمى عينٍ تكرم مرج عيون، اللهم اشهد بأننا نحب الصديق وعمر وعثمان وعليًّا
والصحابة والقراة، واحشرونا في زمرة غير خزايا ولا ندامى.

* * *

صفات الجن

عن عَلَقَمَةَ رضي الله عنه: قُلْتُ لِابْنِ مَسْعُودٍ: هَلْ صَحِبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْجَنِّ مِنْكُمْ أَحَدٌ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ قَدْ افْتَقَدْنَاهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ بِمَكَّةَ، فَقُلْنَا: اغْتِيلَ أَوْ اسْتَطِيرَ، فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ، حَتَّى إِذَا أَصْبَحْنَا إِذَا نَحْنُ بِهِ يَجِيءُ مِنْ قَبْلِ حِرَاءٍ، فَذَكَرُوا لَهُ الَّذِي كَانُوا فِيهِ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ، فَأَتَيْتُهُمْ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمْ» فَنَاطَلَقَ، فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَرَ نِيرَانِهِمْ، وَسَأَلُوهُ الزَّادَ فَقَالَ: «كُلُّ عَظْمٍ يُذَكَّرُ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا كَانَ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ أَوْ رَوْثَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ» فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا؛ فَإِنَّهُمَا زَادُ إِخْوَانِكُمُ الْجِنِّ» رواه الترمذي.

(الجن) اسم من الاجتنان؛ أي: التستر والاستخفاء، وسمي الثُّرْسُ مَجْنًا؛ لأنه يستتر صاحبه من القتل، ويقال: جُنَّ الرَّجُلُ؛ إذا خفي عقله واستتر.

الجن مخلوقات خلقها الله تعالى من نار؛ كما خلق الملائكة من نور؛ لحديث: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم» والجن مكلفون بنص القرآن: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ أي: إلا ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً، وجاء بعضهم إلى سيدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في مكة؛ ليستمعوا القرآن بعد منعهم من استراق أخبار السماء، ولكن حضورهم بتوفيق من الله تعالى وهداية لهم، فسمعوه، وذهبوا إلى قومهم منذرين، وقالوا: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾

[الأحقاف: ٣١] وهذا يدل على أنهم مكلفون، وفيه دلالة على أن نبينا الكريم أرسل إلى الثقلين، والآيات تدل على أخذهم عهداً على أنفسهم ألا يشركوا ربنا أحداً ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢] ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١٣] المسلم منهم اسمه جني أو العامر، والكافر منهم اسمه شيطان، وسيأتون يوم القيامة ويقول لهم مولانا عز وجل: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] وهذا فيه تقرير من الله تعالى أنه قد بعث رسلاً إلى الجن؛ وهو سيّدنا سليمان وسيّدنا محمد صلى الله عليه وسلّم، هم مكلفون مثلنا، الجني من ولادته يولد بعكس ابن آدم؛ لذا جاء خطابهم في سورة الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٣١ مرة، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلّم أصحابه أنهم كانوا أحسن ردّاً منهم، فإنهم لما تليت عليهم قالوا: لا نكذب بشيء من آلائك ربنا، فلك الحمد.

ابن مسعود كان رفيق النبي صلى الله عليه وسلّم في الرحلة، كان معه، وشهد بيعة الجن، سيّدنا أبو هريرة جاءه جني بصورة رجل فقير يأخذ من مال الصدقة، وأمسكه سيّدنا أبو هريرة، وعاهده على ألا يعيد الكرة فتركه، ثم جاءه أخرى فأمسكه، فقال له: هل أدلك على ما يمنعكم منا؟ قال: بلى، قال: تقرأ آية الكرسي، فتركه، وأخبر سيّدنا النبي صلى الله عليه وسلّم فقال: «صدقك وهو كذوب» (أي: سيعود إليك).

السيد الوالد رحمه الله تعالى كان طائفة من الجن تأتي إليه عندما يريد أن ينام، ويقرأ ورده، فيرددونه معه، فأخبر شيخه، فقال له: إنهم من الجن، انتبه إليهم، واقرأ آية الكرسي، فجلس لقراءة الورد قبل النوم فجاؤوه، فبدأ بها، فصاروا يرددونها معه، فلما قال: ﴿وَلَا يَتُودُّهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] انطفؤوا وانقطعوا.

وجاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تقول: إن النبي هذا به جنون، وإنه يأخذه عند غدائنا وعشاءنا، فيخبث علينا، فمسح رسول الله على صدره، ودعا فتع ثعّة، وخرج من جوفه مثل الجرو الأسود يسعى، فهذه قصة سمعية من جهة وحسية من جهة، وتدل على رؤية الكافرين للجنّي على شكل جرو أسود يسعى، بل إنه عليه الصلاة والسلام وهو يصلي جاءه جنّي يريد قطع صلاته، فأمسكه النبي صلى الله عليه وسلم وخنقه بيديه، حتّى وجد برد لعابه على يديه الشريقتين، ثم أطلقه لأجل سيّدنا سليمان.

* * *

صلة الرحم

عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهُ؛ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ: مَهْ، قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَلِكَ».

فليس عجباً إذن أن يرد الحديث الشريف أن الجنة لا يدخلها قاطع رحم، وألا تشمله رحمة الله تعالى؛ لذلك ربطه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإيمان باليوم الآخر، فقال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ».

صلة الرحم سبب من أسباب الرزق الوفير والعمر الطويل، «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسَيِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ؛ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» والمشكلة ليست في قاطع الرحم فقط، ولكن قاطع الرحم سيورث هذه الخصلة لأبنائه بعده؛ لأنَّ الجزء من جنس العمل، فلو أنك قطعت رحمك فإنَّ أبنائك سيصبحون مثلك، فيقطعون أرحامهم؛ لذا فإن مولانا عزَّ وجلَّ نبهنا وحذرننا من ذلك، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] يأتي قريبك إليك فيقول لك: أسألك بالله وبالقرابة بيننا أن تقضي لي حاجتي، وقد قدم رجل إلى الحبيب الأعظم، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصْلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسَيِّئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسْفِهُهُمُ الْمَلَّ [الرماد الحار] وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ».



قيام الليل

عن عائشة رضي الله عنها قالت: إِنَّ نَبِيَّ الله صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقُلْتُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ الله وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟! قَالَ: «أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟!» فَلَمَّا كَثُرَ لَحْمُهُ صَلَّى جَالِسًا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ قَامَ، ثُمَّ رَكَعَ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

إِنَّ لساعات القيام لذّةً عجيبة، مَنْ تناجى؟ أنت تناجى الله ربّ العالمين، تستشعر عظمتَه، فترى دمعات الخشية تتحدّر من عينيك، وتسقط على وجنتيك، تستشعر أنك جليس الله تعالى، وتستشعر قوله: «أنا جليس من ذكرني».

هل تعلم؟ هذه الدّمعات الّتي تسقط من عينيك يحرمها الله عزّ وجلّ على النار: «عينان لا تمسّهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»؛ لذلك الشيطان يمنعك من ذلك، أتعرف ماذا يفعل عندما تنام؟ يعقد الشيطان على قافية رأسك ثلاث عقد، عند كل عقدة يقرأ عليك: عليك ليل طويل فنام، وأنت عندما تقوم الليل تُفكّ كل تلك العقد؛ يعني: أنك تتغلب على شهواتك ونفسك وشيطانك.

عندما تقوم الليل؛ تكتب عند الله: حبيب الله؛ لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «أفضل الصلاة بعد الفريضة قيام الليل» رواه مسلم، وقال: «أيها الناس؛ أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلّوا بالليل والناس نيام؛ تدخلوا الجنة بسلام» رواه الترمذِيُّ، وفي الحديث نبّه رسول الله سيدنا عبد الله بن عمر فقال: «يا عبد

الله؛ لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل، فترك قيام الليل» حديث متفق عليه، حتى إنه قال: «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل» فكان لا ينام إلا قليلاً بعد ذلك.

وقد أثنى الله تعالى على قوام الليل بقوله: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴿[السجدة: ١٦، ١٧] ألم تسمعوا وصف عباد الله المقربين إليه؟ ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿[الذاريات: ١٧، ١٨].

فكان صلى الله عليه وسلم يرغب في قيام الليل، ويقول: «صلُّوا الليل ولو بقدر فواق ناقة» أي: ولو بقدر حلب الناقة.

إنَّ ممَّا يساعد على قيام الليل: أن ينام بعد العشاء؛ لذا كره رسول الله الكلام بعد العشاء إلا لمؤانسة ضيف أو زوجة، أو مجلس علم، وممَّا يساعد على قيام الليل: اجتناب المعاصي؛ لأنَّه لا يوفَّق إلى قيام الليل من لطَّخ نفسه بالمعاصي، قيل لسيدنا إبراهيم بن أدهم: لا أقدر على قيام الليل، فقال: لا تعصه بالنهار.

فإنَّ وقوفك بين يديه عابداً قارئاً وراكعاً وساجداً من أعظم الشرف، والعاصي لا يستحقُّ ذلك الشرف.

وقال آخر لسيدنا الحسن البصري: أبيت طاهراً فما لي لا أقوم الليل؟! فقال: قيدتك ذنوبك!! إنَّ العبد ليزنّب الذنّب؛ فيحرم من قيام الليل وصيام النهار.

ومن الأسباب التي تساعد على قيام الليل: قلة الأكل ليلاً، قال سيدنا سفيان الثوري: عليكم بقلة الأكل؛ تملكوا قيام الليل.

ورأى آخر أناساً يأكلون كثيراً، فقال: ما نرى أصحابنا يريدون أن يصلُّوا الليلة!

* * *

شرط النصر

عن أَبِي بِنِ كَعْبٍ رضي الله عنه عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [الفتح: ٢٦] قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» رواه الترمذي.

كل مؤمن حق الإيمان ينصره الله تعالى، لكننا نريد النصر دون أن نكون مؤمنين!! إِنَّ الله تعالى تعهد عهدًا فهو عنده: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٥١] بل اسمعوا: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] جعل نصر أهل الإيمان واجبًا عليه وحققًا، وما أحد أوجب عليه إلا هو سبحانه، إذا أردتم نصرًا وفتحًا؛ فعليكم بتنفيذ المقدمات له؛ ألا وهو الإيمان، وحق الإيمان طاعة الله تعالى وتقواه.

لا أتكلم عن النصر الحربي في المعارك فقط، ولكن النصر في كل نواحي الحياة؛ نصرك على نفسك الأمارة بالسوء، ونصرك على شيطانك، ونصرك على هواك...، النصر: أن ترى نفسك مقبلة على طاعة الله غير مدبرة، وهذا تمامًا كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

أطع أمرنا نرفع لأجلك حُجبنا فَإِنَّا مَنَحْنَا بِالرِّضَا مَن أَحْبَبْنَا
إِحْسَانَكَ لَوَالِدَيْكَ مَقْدَمَةَ نصر أكيد، وإِحْسَانَكَ لَزَوْجِكَ وَأَبْنَائِكَ مَقْدَمَةَ نصر أكيد، وإِحْسَانَكَ لَجِيرَانِكَ وَأَحْبَابِكَ مَقْدَمَةَ نصر أكبر، إن تنصروا أوامر الله تعالى ونواهيهِ؛ ينصركم ويمدكم بقوة...

﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [الفتح: ٢٦] التقوى: أن يراك حيث أمرك، ويفقدك حيث نهاك، الله تعالى يرسل لك ملائكته ليحفظوك من قدر الله تعالى، فعندما تكون صالحًا تقيًّا؛ لا يرضى أن يصيبك مكروه؛ كما حدث للصَّحابة وهم في الحديبية، يقول لملائكته: «انزلوا على عبيدي فلان، فإني كتبت عليه بلاءً، فإذا وقع البلاء فادفعوه عنه...» ذلك نصر من الله تعالى وفتح لكل عبد طائع...

أعرف شابًا كان يخدم أباه بحب وإخلاص، ويقوم على شأنه كله، والأب مقعد في الفراش خمس سنين، فلا يملُّ، ولا يكلُّ، يقبِّل يده ورجله... وكان لسان الوالد معقولا لا يكاد يبين، إلا أنه يرفع يديه إلى الله تعالى يدعو لولده... وحين دنا الأجل دخل عليه بعد الفجر؛ ليقوم بشأنه، فوجده مستيقظًا متبسِّمًا، ذلك صباح يشتره كل ولد بهال الدنيا، فاستقبله الوالد -وكان مظنة ولاية- يودع ولده في آخر يوم من عمره قائلاً له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١، ٢] قرأ الآيات مبشِّراً ولده بمكانته بعد رحيله، وما ظنَّ الولد أنَّ الوداع قد حان، تلك بشارت نصر ورضاً؛ جزاءً لما قدَّم الولد لأبيه، وتوفي الوالد ليلاً بعد هذا الوداع لولده، وما ودَّع أحداً من أولاده بمثل ما ودَّع ولده ذلك، يقول الولد: صدق والدي في بشارته... وصار يرى ذلك في حياته أينما التفت... ألا تحتاجون لمثل هذه البشائر؟! اخدموا والديكم وأولادكم وجيرانكم، ولا تقصِّروا في حقهم، وخذوا فتحاً مبيناً لا نهاية لحدوده...

* * *

الأدب مع الشريعة

عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمْرُ الْقَعْقَاعِ بْنِ مَعْبِدٍ، وَقَالَ عُمَرُ: أَمْرُ الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا أَرَدْتُ إِلَّا خِلَافِي، فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ، فَنَمَارِيَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا، فَنَزَلَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١] رواه البخاري.

نهى الله عز وجل عن رفع الصوت بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعده بعضهم من الكبائر.

ومن الآداب العامة للإسلام ألا يكون صوته مرتفعاً أثناء المحادثة والمخاطبة، فإن ذلك خلاف الأدب القرآني، وخلاف الأدب النبوي الشريف، ويتنقل هذا الأدب من مستوى الرجحان إلى مستوى الزوم والوجوب عندما يكون الإنسان في محضر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، الأدب القرآني يقول: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩]؛ أي: ليكن مشيك معتدلاً بسكينة ووقار، وليكن صوتك حين المحادثة والمخاطبة والمحاورة خفيضاً.

والفقير يسأل: لماذا بدأت السورة بالأدب مع الله عز وجل؟ ﴿لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١] لا تقدم حلاً أرضياً، ولا اقتراحاً بديلاً، ولا شيئاً، ولا نظاماً، ولا منهجاً يخالف منهج الله تعالى.

نحن إذا جاءنا طبيب قلبية وقال لمريضه: لا تتحرك، بل لا تتكلم، ثم أتاه ضيف، وقال له: لا؛ امشِ فالمشي مفيد؛ فماذا تقولون في هذا؟ تقولون: هذا الجاهل أدلى برأي مخالف لرأي الطبيب المختص، فمن الذي نستمع له؟ والله المثل الأعلى.

إذا قدمت رأياً ونظاماً مخالفاً لمنهج القرآن؛ فإنك قدّمت بين يدي الله ورسوله؛ أي: قدّمت البديل، فمن أنت إذا قيست خبراتك وعلمك بعلم الله عزّ وجلّ؟! لا تقدّم في حياتك أيّ حلّ على كلام الله تعالى ورسوله، فكلام الله تعالى لا يأتيه الباطل بين يديه ومن خلفه، فإذا قدمت بين يدي النبي صلى الله عليه وسلّم اقتراحاً؛ فأنت حكماً تقدم أمام الله عزّ وجلّ؛ لأنّه وحي من عند الله تعالى.

سألوا مرّةً طبية: ما رأيك في تعدد الزوجات؟ أجابت قائلة: وهل يعقل أن يكون لي رأي في هذا الموضوع وقد أباحه الله عزّ وجلّ؟! والله هذه إجابة رائعة، وهل يكون لي رأي مع القرآن؟ أو مع السنّة؟ أو مع الله تعالى؟ أو مع النبي صلى الله عليه وسلّم؟!؟

حينما نبیح الربا والمحرمات نكون قدمنا بين يدي الله ورسوله، انظروا إلى الصحابة كانوا في أعلى درجات الأدب؛ كالحُباب بن المنذر في بدر رأى موقع المسلمين ليس جيداً، فتوجه إلى النبي صلى الله عليه وسلّم، وقال: يا رسول الله؛ أهذا الموقع وحيّ أوحاه الله إليك؟ -لو أنّه وحي أوحاه الله تعالى إليه لا يمكن أن ينطق بكلمة ولا ينبس ببنت شفة- أم هو الرأي والمكيدة؟ فقال سيّدنا النبي صلى الله عليه وسلّم: «بل هو الرأي والمكيدة» قال: يا نبي الله؛ ليس بموقع.

متى قدم اقتراحًا؟ حينما تيقن أن هذا الموقع ليس وحيًا من الله تعالى، وأنت عندما تشعر أن الحل هو وحي من الله تعالى فاعلم أن هذا هو الحل، ولا حلّ سواه. الإمام أحمد كان يُسأل عن المسألة ولا يجد فيها حديثًا صحيحًا أو حسنًا، ويرى فيها حديثًا ضعيفًا، فيأخذ فيها بالحديث الضعيف، ولا يفتي فيها برأيه، ولا يقدم بين يدي الله ورسوله.

منهج الله هو الأكمل والأصح لما نحن فيه من مشكلات، فإذا عرفت أن هذا حكم الله تعالى فبادر إلى تطبيقه، أو أنه حرام فدعه فورًا، اجعل حياتك كلها وفق منهج الله، ولا تقدم بين يدي الله ورسوله.

* * *

طاعة سيدنا رسول الله

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قَرَأَ أَبُو سَعِيدٍ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ [الحجرات: ٧] قَالَ: هَذَا بَيِّنُكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوحَى إِلَيْهِ وَخِيَارُ أَمَّتِكُمْ لَوْ أَطَاعَهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُوا، فَكَيْفَ بِكُمْ الْيَوْمَ؟ رواهما الترمذي.

معنى (عنتم): هلكتم وأثمتم...، واعلموا أن فيكم رسول الله فأطيعوه، أنت مأمور بطاعة الله ورسوله والأحكام إليهما، ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩] ثم قال لك أيضًا: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩] الحكم بيننا هو الله في كتابه، وسيدنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته، كُلُّ عَابِقَةِ الدُّنْيَا وَشَخْصِيَّاتِهَا اللَّامِعَةِ فِي كَفَّةٍ، وسيدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كَفَّةٍ؛ لَأَنَّهُ يَتَلَقَّى الْوَحْيَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾؛ أي: اعلموا أن سنته وشرعه ودينه بينكم.

اعلموا أن فيكم رسول الله إنسانًا يتلقى الوحي من السماء، فهذا الذي يقوله لا يمكن أن يخضع لعقولكم، ولا لمناقشاتكم، ولا يخضع لتقييمكم، ولا يمكن أن يكون عقلكم حكمًا عليه، بل هو حَكَمٌ على عقولكم، أمَّا لو اقترحتم عليه اقتراحات فاستجاب لكم وأطاعكم؛ هلكتم وأثمتم؛ لأنكم بشر تصيبون وتخطئون، تشريعكم فيه خطأ، وفيه هوى، وفيه نفس، تجرون المصالح إليكم، أمَّا تشريع الله تعالى فهو الصواب والصحيح.

قل لمن يدعي في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء
تشريعكم أ رضي، يُعدّل كلّ يوم حتّى يصبح التعديل عشرة أمثال الأصل، ثمّ
يلغى، ويُنشأ تشريع آخر، أمّا شأن خالق البشر فالحقيقة عنده مطلقة والصواب
مطلق.

إخوتي؛ ماذا يحصل لكم عندما تنفذون شرع الله؟ سرور وسعادة وطمأنينة،
أتعرفون من أين هذا؟ من قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي
قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] أنت تتحرك وفق مشاعر ألهمك الله إياها، مولانا عزّ
وجلّ ألهم امرأة فرعون أن تحب سيّدنا موسى، وزوجها يقتل الأطفال!! افهموا
هذه الحقيقة: شرع رسول الله سنّته بيننا، لا تستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو
خير، فهذا جهل وسفه، إن فعله صاحبه عمداً محتقراً للشرع؛ فقد خرج عن الملة،
﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فاتبعوا شرعه، واجتنبوا نهيه، وقولوا: سمعنا
وأطعنا...

* * *

الأدب مع الخلق

روى أبو داود في «الأدب» بلفظ: قَدِمَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا مِنَّا رَجُلٌ إِلَّا وَلَهُ اسْمَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يَا فُلَانُ»، فَيَقُولُونَ: مَهْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّهُ يَغْضَبُ مِنْ هَذَا الْإِسْمِ، فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١].

سُئِلَ عَنْهَا سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ - فِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ -: «أَنْ يُدْعَى الرَّجُلُ بِالْكَفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ» لَا تَقُلْ لِأَخِيكَ الْمُسْلِمِ: يَا فَاسِقُ، يَا مُنَافِقُ، يَا يَهُودِي...، وَهَذَا الْحُكْمُ جُزْءٌ مِنْ آيَةٍ كَامِلَةٍ تَقْدِمُهَا: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١] يَبْدَأُ بِالسَّخَرِيَّةِ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى التَّنَازُلِ بِالْأَلْقَابِ، وَقَدْ يَكُونُ خَيْرًا مِنْهُ، عِنْدَمَا يَسْخَرُ الْقَوِيُّ مِنَ الضَّعِيفِ، وَالْغَنِيُّ مِنَ الْفَقِيرِ، وَالْوَسِيمُ مِنَ الذَّمِيمِ، وَالصَّحِيحُ مِنَ السَّقِيمِ؛ فَلَعَلَّ هَذَا الَّذِي يَسْخَرُ مِنْهُ هُوَ أَعْلَى مِنْهُ بِدَرَجَاتٍ كَبِيرَةٍ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، أَلَا فَلْتَعْلَمَنَّ أَنَّ أَيَّ مَخْلُوقٍ مُسْلِمٍ تَحْتَقِرُهُ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْكَافِرِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

أَخِي؛ كُلَّمَا ارْتَقَى إِيمَانُكَ تَأَدَّبْتَ مَعَ رَبِّكَ سَبْحَانَهُ، وَتَأَدَّبْتَ مَعَ خَلْقِهِ، ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١] لَا تَجْرَحْ مَشَاعِرَ الْآخَرِينَ، وَتَقُولُ: أَنَا أَمْزَحُّ!! فَالْأَلْقَابُ لَا تَلِيقُ بِالْمُسْلِمِ، أَلَيْسَ لَكَ أُسْوَةٌ بِسَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! كَانِ يَلْقَبُ أَصْحَابَهُ بِالْأَلْقَابِ حَسَنَةً: الصَّدِيقُ، وَالْفَارُوقُ، وَحِيدَرُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ قَالَتْ مَرَّةً: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنْ صَفِيَةِ امْرَأَةٍ - وَأَشَارَتْ بِيَدِهَا أَنَّهَا

قصيرة- فقال سيّد الكائنات: «لَقَدْ قُلْتَ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ» رواه أبو داود والترمذي.

التنازع بالألقاب خروج عن آداب الإسلام، يُدعى صاحبه فاسقًا، ألم تقرأوا: ﴿بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١]؟! ألم تسمعوا سيّد الوجود يقول: «سبابُ المسلم فسوق وقتاله كفر»؟! رواه مسلم والترمذي.

كان أساتذتنا إذا كان في اسم أحدنا إشكال غيَّره؛ ليرفع معنوياته، من أين هذا الهدي؟! من سيّدنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان يجب تغيير الأسماء القبيحة؛ لتنسجم مع حال الإنسان ورتبته التي لا يجوز أن ينزل عنها إلى درجة الحيوانية، السيّدة زينب كان اسمها بَرَّة -و(بَرَّة): صيغة مبالغة؛ لمدح النفس والثناء عليها- والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، فغيّره رسول الله إلى زينب، وغيّر اسم عاصية إلى جميلة، وغير اسم حزن إلى سهل، وغير اسم أصرم إلى زُرعة، وغيّر اسم العاص، وعزيز، وعقلة، وشيطان، والحكم، وغراب، وشهاب...، وسمّى حربًا سلماً، وسمّى المضطجع المنبعث؛ لأنَّ الأسماء لها تأثير في المسميات؛ ولذا قالوا: لكلّ شخص من اسمه نصيب.

لَمَّا أتى سهيل بن عمرو في صلح الحديبية؛ استبشر رسول الله بالسهولة في عقد الصلح، ومرة طلب من جماعة أن يخلبوا شاة، فقام رجل، فسأله: ما اسمك؟ قال: مَرَّة، قال: اجلس، فقام آخر، فقال: ما اسمك؟ قال: جمرَة، قال: اجلس، وقام ثالث، فقال: ما اسمك؟ قال: يعيش، فقال: احلبها.

ومرّة جاء إلى سيّدنا عمر رَجُل، فسأله عن اسمه، فقال: جَمْرَة، قال: واسم أبيك؟ قال: شهاب، قال: من أي قبيلة؟ قال: من الحُرقة، قال: فأين منزلك؟ قال: بحرّة النار، فقال: فمسكنك؟ قال: بذات لظى، فقال: اذهب فقد احترق بيتك، فذهب فوجد الأمر كما قال.

فسيّدنا عمر عبّر عن الألفاظ إلى ما توحى إليه من المعاني؛ ولذلك غيّر رسول الله يثرب إلى طابة وطيبة، ولما كان الاسم مقتضياً لمسماه ومؤثراً فيه؛ كان أحبّ الأسماء إلى الله تعالى ما اقتضى أحبّ الأوصاف إليه؛ كعبد الله وعبد الرحمن...، وسيّدنا محمّد وأحمد، «خير الأسماء ما عبّد وحمّد».

انتبهوا! لا يسمح لنا بالتسمية بالأسماء الأعجمية للكفار؛ مثل: بطرس وجورج وجرجس وروز، ومثل أسماء الشياطين والفساق والمطربين والمطربات، الأحياء منهم والأموات... نحن قوم أعزنا الله تعالى بالإسلام، ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله...



فضل التسبيح

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَمَرَهُ أَنْ يُسَبِّحَ فِي أَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ كُلِّهَا، رواه البخاري.

وردت الأحاديث الكثيرة بفضل هذه التسابيح؛ منها: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنَ الْكَلَامِ أَرْبَعًا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» رواه مُسْلِمٌ، و«كل واحدة له فيها عشرون حسنة» رواه أحمد والنسائي، «وغرسة في الجنة» رواه ابن ماجه والترمذي، «ومن أتى بها مئة مرة غفرت خطاياها وإن كانت مثل زبد البحر» رواه أحمد ومسلم، وشبَّهها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «تنفض الخطايا كما تنفض الشجرة ورقها» رواه أحمد والترمذي، وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرغب أصحابه بهن، ويقول: «أَلَا أَخْبَرُكُمْ بِأَمْرٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ أَذْرَكْتُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ وَفُتُّمَ مَنْ بَعْدَكُمْ؟» أي: لم يدرِكم من بعدكم، «وكنتم خير من أنتم بين ظهرائيه؟» حديث متفق عليه، فعلمهم التسبيحات دبر كل صلاة، رواه ابن ماجه، وسَمَّاهن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمعقبات المنجيات، والباقيات الصالحات، رواه النسائي، «وإذا قالهنَّ العبد قال الله تعالى: أسلم عبدي واستسلم» رواه النسائي، و«لا يخيب قائلهن» رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي، وقال عنهن: «إِنَّهُنَّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ» رواه مُسْلِمٌ، «وأحب الكلام إلى الله تعالى» رواه مسلم والنسائي وابن ماجه.

أُتَعَرَفُونَ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِهِنَ؟ يَقْبِضُ عَلَيْهِنَّ مَلَكٌ، فَيُضَمُّهُنَّ تَحْتَ جَنَاحِهِ، وَيَصْعَدُ بِهِنَ، لَا يَمُرُّ بِهِنَ عَلَى جَمْعٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا اسْتَغْفَرُوا لِقَائِهِنَّ، حَتَّى يُحْيَا بِهَا وَجْهَ الرَّحْمَنِ، ثُمَّ تَلَا ابْنُ مَسْعُودٍ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] رَوَاهُ الْحَاكِمُ، وَوَافَقَهُ الطَّبْرَانِيُّ، وَاسْمَعِ إِلَى حَبِيبِكَ يَقُولُ عَنْهُنَّ: «إِنَّهُنَّ يَنْعُطْنَ نَحْوَ الْعَرْشِ، لَهَنَّ دُويٌّ كَدُويِّ النَحْلِ» تَذَكَّرْ بِصَاحِبِهَا (ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا)، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «أَمَّا يَجِبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَنْ يَذْكُرُ بِهِ عِنْدَ رَبِّهِ»، وَقَالَ عَنْهُنَّ: «خَصَلَتَانِ لَا يَحَافِظُ عَلَيْهِنَّ عَبْدٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ: تَسْبِيحَاتٍ دَبَرَ الصَّلَوَاتِ، وَالْإِتْيَانِ بِهَا إِذَا أَخَذَ مُضْجَعَهُ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْأَرْبَعَةُ وَابُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ»، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ فِي ذُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمِدَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ؛ فَتِلْكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَقَالَ تَمَامَ الْمِئَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدرَجَاتِ الْعُلَا وَالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ، قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، وَيَعْتَقُونَ وَلَا نَعْتَقُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفَلَا أَعَلَّمَكُمُ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ

دُبِّرَ كُلُّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً» قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم، فقالوا: سَمِعَ إخواننا أهلُ الأموال بما فَعَلْنَا ففعلوا مثله! فقال رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلّم: «ذلك فضلُ الله يُؤْتيه مَنْ يشاء».

فهل عرفتُم الآن تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾؟ هذه الأذكار الواردة في السنة النبوية الشريفة عقب الفريضة فيها خير كبير وأجر عظيم لصاحبها، ولكن من لم يَقم بها فإنَّه لا يلحقه إثم؛ لأن حكمها الاستحباب، وليست فرضًا، ولكن يكون قد ضيَّع عليه أجرًا عظيمًا، وقصَّر في اتِّباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ولا ضيرَ في تذكير المتكاسل عنها بما فيها من الفضل العظيم والأجر الجزيل، وهذا من باب الأمر بالمعروف، والتواصي بالحق، والتحبيب بالطاعة، ومن التعاون على إتيان البرِّ والتقوى، مع أهمية أن يكون التذكير مع الحكمة والأسلوب اللين من غير توبيخ أو زجر؛ لأنه لا إنكار في ترك الأمور المستحبة، فباستطاعتكم أن تذكروهم بما لتلك الأذكار من أجر وثواب؛ مثل قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم: «من قرأ آية الكرسيِّ دبر كلِّ صلاة لم يحل بينه وبين دخول الجنة إلا الموت».

كما يمكن أن تعطوا المصلين في الجوامع قبل أداء الصلاة بعض الأذكار المطبوعة التي تذكُر فضل تلك الأذكار وأجرها، فمثلاً:

*الذكر بعد الصلوات المفروضة من العبادات التي فيها تسابقٌ على الخير، وهذا التسابق يؤدِّي إلى الحصول على درجات عالية عند الله في الجنة.

*الذكر فيه محافظة على العلاقة الطيبة مع الله في الشدة والرخاء، فيحافظ المسلم على حبب التواصل مع الله دائماً، ومن عرف الله أحبه، وأقبل عليه، وأخلص له.

* تعمل الأذكار على تقوية الجسم.

* وتمنح النور في الوجه.

* بالإضافة إلى أنها تجلب الرزق لصاحبها.

* ترتقي بالمسلم إلى باب الإحسان؛ أي: أن يعبد الله كأنه يراه.

وفقني الله تعالى وإياكم لطاعته وذكره، فقولوا جميعاً: سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله مداد كلماته، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله زينة عرشه، والحمد لله مثل ذلك، ولا إله إلا الله مثل ذلك، والله أكبر مثل ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك.

* * *

عذاب قوم عاد

عن الحارث بن يزيد البكري رضي الله عنه قال: قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرْتُ عِنْدَهُ وَافِدَ عَادٍ، فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِثْلَهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَا وَافِدَ عَادٍ؟ قُلْتُ: عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطَتْ، إِنَّ عَادًا لَمَّا أَقْحَطَتْ بَعَثَتْ قَيْلًا، فَنَزَلَ عَلَى بَكْرِ بْنِ مُعَاوِيَةَ، فَسَقَاهُ الْخَمْرَ، وَغَتَّتْهُ الْجُرَادَاتَانِ، ثُمَّ خَرَجَ يُرِيدُ جِبَالَ مَهْرَةَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي لَمْ آتِكَ لِمَرِيضٍ فَأَدَاوِيَهُ، وَلَا لِأَسِيرٍ فَأَفَادِيَهُ، فَاسْقِ عَبْدَكَ مَا كُنْتَ مُسْقِيَهُ، وَاسْقِ مَعَهُ بَكْرَ بْنَ مُعَاوِيَةَ، فَرَفَعَ لَهُ سَحَابَاتٌ، فَقِيلَ لَهُ: اخْتَرِ إِحْدَاهُنَّ، فَاخْتَارَ مِنْهُنَّ السَّودَاءَ، فَقِيلَ لَهُ: خُذْهَا رَمَادًا رَمَدَدًا، لَا تَذَرُ مِنْ عَادٍ أَحَدًا، وَقَالَ: إِنَّهُ لَمْ يُرْسَلْ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ إِلَّا قَدْرُ هَذِهِ الْحَلَقَةِ؛ يَعْنِي: حَلَقَةَ الْحَاتِمِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] رواه النَّسَائِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ، نَسَأَلُ اللَّهَ حَسْنَ الصَّنَاعَةِ وَالرَّوَايَةِ آمِينَ.

قصة عاد مع سيدنا هود عجيبة، وغريبة، وفيها عبرة، عاد أمريكا وروسيا عصرها، لم يُر مثلهما في القوة والاستكبار والبطش والظلم، سَمَّى الله في كتابه سورة باسم نبيها هود، وسورة أخرى باسم مكانها الأحقاف في اليمن، كرر الله ذكرهم في القرآن؛ ليعتبر بمصرعهم أهل الإيمان، وأنَّ دولة الظلم لا تدوم.

عاد أعظم أهل زمانهم وأطولهم أبدانًا، وصفهم الله: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٨]، مساكنهم أعظم مساكن، ذوات أعمدة ضخام وبنيان شاهق،

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٦، ٧]، يبنون ما لا يسكنون، فتح الله عليهم بالزروع والثمار والقوة أقوى من الدبابات والطائرات والذرة؛ ليشكروا نعمة الله تعالى، فجحذوا وعبدوا الأصنام من بعد سيدنا نوح.

نصحهم سيدنا هود: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥]، فسخروا منه واتهموه بالجنون: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤]، ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦] ﴿هِيَهَاتَ هِيَهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦]، أنكروا البعث والنشور، وزادوا في الطغيان، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]، فأمسك الله عنهم المطر، فمحقطوا وأجدبوا، ثم ساق إليهم سحابة، فلما رأوها قالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]، فقال لهم مولانا: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤] ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]؛ أي: دائمة لا تنقطع، صرصرًا؛ أي: باردة، ﴿تُدمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]؛ أي: تحمل الرجل منهم عاليًا، ثم تنكسه على رأسه، فينقطع عن جسده، ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَحْلِ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]؛ أي: بلا رؤوس، ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

فالله قوي لا يقهر، وعزيز لا يغلب، للظالم بالمرصاد، لا يغفل عنه، يستدرجه ثم يهلكه، ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ [مريم: ٨٤]، وطلب النصر من نهج المرسلين، سيّدنا هود: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٣٩] فنصره الله بالريح، نعم؛ النصر قد يتأخر لحكمة من الله تعالى، ولكنه لا يتخلف عن المؤمنين أبداً، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

* * *

أدلة الإسراء

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١] ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣] قَالَ: رَأَاهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ، رواه مسلم.

لا شك أنكم انتبهتم إلى اسم السورة التي فيها آيات المعراج؛ وهي سورة النجم، ذكر فيها مولانا عز وجل قصة النجم الإنساني العظيم، الذي تحول من إنسانيته إلى نوره السماوي في المعجزة، كانت الإسراء والمعراج تكريماً لنبيه ومصطفاه مما لاقاه من أهل الطائف (ثقيف)، عرض عليهم نصرته فردوه بأقبح رد، فكانت المعجزة الكبرى، وكأن الله يقول لمصطفاه: تعال إلينا؛ لنريك ما لم تُره أحدًا من العالمين، تعال إلينا؛ لنمنحك ما لم يحصل عليه غيرك من المقربين، يا حبيبنا؛ لا تحزن مما نالك من الجاهلين، فإذا كان هؤلاء لا يعرفون قدرك، ويجحدون عظمتك، ويتمارون في تصديقك؛ فإن أهل السماء هم أعرف بك من أهل الأرض، فتح من الله ونصر مبین.

معجزة الإسراء دخلت في صلب المعجزة القرآنية العظمى؛ لذا من أنكرها كفر، حدثت قبل عصر الأقمار الصناعية والمراكب والمحطات الفضائية، حتى لا يتبجح أحد من الغرب الكافر أنه قد سبق المسلمين إلى الفضاء.

هي أمر سهل بسيط أمام القدرة القادرة لله تعالى، وهل السماوات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة للعرش؟ وفضل العرش على الكرسي كفضل

الفلاة على الحلقة ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿أَفْتَأُورُنُهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ [النجم: ١٢]؟ وقدرة الله أعظم من ذلك.

ولما كانت هذه المعجزة قد فاقت كل المعجزات؛ بدأها الله تعالى بكلمة: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] ﴿سُبْحَانَ﴾: كلمة للتنزيه والتعجيب، أراد الله بها - بهذا المجد العالي، وبهذا الشرف السامي، الذي خصَّ به سيّدنا محمدًا - أن يسري به إلى حضرته، ويخصّه بجمال وجهه، وجلال رؤيته، وهل يدعو أحد أحدًا دون أن يلتقيه أو يمتع فيه ناظره؟! «الله أكبر، رأيت نورًا، إنِّي أراه» وفي رواية مسلم والترمذي: «نورًا، أنى أراه؟!»، ﴿سُبْحَانَ﴾: لا تقال إلا إذا كان الأمر غير معهود، ولا مقدور لأحد عليه من البشر، ولو كانت المعجزة منامًا؛ لما اقتضى هذا التعجيب، موكب حفّت به الملائكة، سبعون ألفًا من الملائكة، مع كل ملك سبعون ألفًا حرس شرف للقادم العظيم وسيّد المرسلين.

أسرى بك الله ليلاً إذ ملائكته	والرسل في المسجد الأقصى على قدم
لما خطرت به التفؤوا بسيدهم	كالشهب بالبدر أو كالجند بالعلم
صلّى وراءك منهم كلّ ذي خطر	ومن يفز بحبيب الله يأتّم

كان الوزير الأعظم في هذه الرحلة سيّدنا جبريل طوال هذه الرحلة الأرضية السأوية، كلّما رأى شيئاً سأله: من هذا؟ فيجيبه: هذا النبي فلان، هذا أبوك إبراهيم سلّم عليه، هذا صوت داعي اليهود، هذا صوت داعي النصارى، هذه المرأة العجوز هي الدنيا...

حَتَّى بَلَغْتَ سَمَاءَ لَا يَصَارُ لَهَا عَلَى جَنَاحٍ وَلَا يَسْعَى عَلَى قَدَمٍ
وَقِيلَ: كُلُّ نَبِيٍّ عِنْدَ رَتْبَتِهِ وَيَا مُحَمَّدُ هَذَا الْعَرْشُ فَاسْتَلِمِ
يَرْتَقِي فِي السَّمَاوَاتِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَكَانٍ رَأَى فِيهِ بَحْرًا عَظِيمًا أَمَامَهُ، فَقَالَ: مَا
هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟؟ فَلَمْ يَسْمَعْ جَوَابًا، فَالْتَفَتَ عَنْ يَمِينِهِ، فَوَجَدَ سَيِّدَنَا جَبْرِيلَ بَعِيدًا،
فَعَادَ إِلَيْهِ، وَقَالَ: يَا جَبْرِيلُ؛ أَفِي هَذَا الْمَكَانِ يَتْرَكُ الْحَبِيبُ حَبِيبَهُ؟! قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛
هَهُنَا مَقَامِي، لَوْ تَجَاوَزْتَهُ لَأَحْتَرَقْتَ بِنُورِ الْعِظْمَةِ، اذْهَبْ، فَهَذَا مَقَامُكَ، وَهَذَا بَحْرُ
النُّورِ، فَسَمِعَ صَوْتًا يَقُولُ: أَجْلِسْهُ وَزَجُّوهُ فِي بَحْرِي، فَجَلَسَ جُلُوسَةَ التَّحِيَّاتِ،
وَسَارَ عَلَى بَحْرِ النُّورِ، فَسَلَّمَ عَلَى اللَّهِ: التَّحِيَّاتِ الْمُبَارَكَاتِ وَالصَّلَوَاتِ الطَّيِّبَاتِ
لِلَّهِ...

* * *

فرض الصلوات الخمس

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى؛ قَالَ: انْتَهَى إِلَيْهَا مَا يَعْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ وَمَا يَنْزِلُ مِنْ فَوْقٍ، قَالَ: فَأَعْطَاهُ اللَّهُ عِنْدَهَا ثَلَاثًا لَمْ يُعْطِهِنَّ نَبِيًّا قَبْلَهُ: فُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ خَمْسًا، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِأُمَّتِهِ الْمُقْحَمَاتُ مَا لَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، رواه الترمذي ومسلم.

سدرة المنتهى: شجرة سدرٍ عظيمة، تقع في الجنة، في السماء السابعة، وجذورها في السماء السادسة، بها من الحسن ما لا يستطيع بشر أن يصفه، وعندها جنة المأوى، ينبع منها النيل والفرات، ولها ظل مديد، وطعم لذيد، ورائحة زكية، ينتهي إليها كلُّ شيء من أمر الله لا يعدوها، رواه الضحاك، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال؛ هذه الرواية في «صحيح مسلم»، فلَمَّا غَشِيَهَا من أمر الله ما غَشِيَهَا؛ تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها!!

هناك فرضت الصلاة، كلُّ الأركان فرضت في الأرض إلا الصلاة، وبذلك تعظَّم أمرها، فالصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، ومن عظمها عند الله ما وردت الأحاديث في شأنها: إذ كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أسلم الرَّجُلُ أَوَّلَ ما يعلمه الصلاة؛ لأن الصلاة صلة بين العبد وربِّه، يقول الله تعالى لحبيبه: «إِنِّي فَرَضْتُ عَلَى أُمَّتِكَ خَمْسَ صَلَوَاتٍ، وَعَهْدْتُ عِنْدِي عَهْدًا أَنَّهُ مَنْ صَلَّى الصَّلَاةَ لَوْ قَتَلَهَا، وَحَافِظَ عَلَيْهَا، وَلَمْ يَضِيعْهَا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهَا؛ فَلَهُ عَلَى عَهْدٍ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يَصِلْهَا لَوْ قَتَلَهَا، وَلَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا، وَضِيعَهَا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهَا؛ فَلَا عَهْدَ لَهُ عَلَيَّ،

وإن شئت عذبتَه، وإن شئت غفرت له»، الصلاة جعلها الله لك؛ لتبقى نظيفاً من الذنوب، وليبقى قلبك صافياً من الران، ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] يقول صلى الله عليه وسلم: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ؛ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»، «إِنَّ كُلَّ صلاةٍ تحط ما بين يديها من خطيئته».

تعالوا معي؛ لنرى هذا المشهد اللطيف من صاحب الرسالة صلُّوا عليه: هاهو سيِّدنا سلمان يجلس مع حضرة النبي صلى الله عليه وسلم تحت شجرة، فأخذ منها النبي غصناً يابساً فهزه حتَّى سقطت أوراقه اليابسة، ثم التفت إلى سيِّدنا سلمان قائلاً: «ألا تسألني: لم أفعل هذا؟» فقال: ولم تفعله يا رسول الله؟! فقال: «إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم صلى الصلوات الخمس؛ تحات خطاياه كما يتحات هذا الورق»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] فأنت عندما تتوضأ فتحسن الوضوء؛ يغفر الله لك صغائر الذنوب ما لم تُؤت كبيرة، وذلك الدهر كله، ومن لطف الله بنا: أن يبعث عند كل صلاة منادياً ينادي: يا بني آدم؛ قوموا فأطفئوا عنكم ما أوقدتم على أنفسكم، فيقومون، فيتطهرون، وتسقط خطاياهم من أعينهم، ويصلُّون فيغفر لهم ما بينهما، يفعل ذلك عند حضرة كل صلاة.

أريدكم أن تتلذذوا معي بهذه الكلمات من التعبير النبوي الشريف، اسمعوا، وصلُّوا على صاحبها يقول: «تتحرقون، تحترقون»؛ أي: بالذنوب؛ لأنَّها تسبب

الإحراق بالنار، «فإذا صليتم الفجر غسلتها، ثم تحترقون، تحترقون، فإذا صليتم الظهر غسلتها، العصر غسلتها...، المغرب غسلتها...، العشاء غسلتها...، ثم تنامون، فلا يكتب عليكم حتى تستيقظوا».

كان في زمنه صلى الله عليه وسلم رجلاً استشهد أفضلهما قبل الآخر بسنة، ثم توفي الآخر، فرآهما طلحة بن عبيد الله والمؤخر يدخل الجنة قبل الشهيد، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «أوليس قد مكث هذا بعده سنة، فصام وصلى كذا وكذا سجدة؟؟ فما بينهما أبعد مما بين السماء والأرض...».

أتعرفون ماذا كانت آخر الكلمات التي قالها رسول الله حين حضرته الوفاة؟ «الصلاة الصلاة» وكان آخر مشهد رآه للناس وهم يصلون، كان هذا العهد الأخير، فيا إخوة؛ العهد العهد الذي فارقنا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راضٍ، من كان يحب الله ورسوله؛ فلا يترك الصلاة؛ فإنها عهد الله ورسوله.

* * *

سورة الرحمن

السورة التي بدأها الله باسمه ردًا على المشركين بعد أن قال لهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠] فأراد الله إثبات وصف الرحمن إلى ذاته جل جلاله، وبأنه هو الذي يعلمنا القرآن، وليس كما ادعى المشركون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

هذه السورة فيها من الفضائل كما في القرآن كله، حتى إن سيدنا عليًا سماها (عروس القرآن) لأنها مجمع النعم والجمال والحديث عن الجنة، وفيها التعداد في مقام الامتنان: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] تكررت ٣١ مرة؛ أي: بأي نعم الله تكذبون أيها الإنس والجن؟!

* أُنِعْمَة أَصْلٍ خَلَقَ الْإِنْسَانَ - وهو آدم - من طين يابس؟!

* أو خلق الجن من هب صاف لا دخان فيه؟!

* أم بخلق مشرقى الشمس في الصيف والشتاء ومغربيهما في الصيف والشتاء؟!

* أم بإخراج اللؤلؤ والمرجان من البحار والمحيطات؟!

وبعد هذه النعم كلها زائلة ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ * وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] وعندها سيتم الحساب ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّهَ الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] ولن تستطيعوا أن تفرّوا أو تهربوا من أطراف السماوات والأرض إلا بإذن الواحد الديان.

في هذه السورة خاطب الثقلين الإنس والجن على السواء، بإيقاع فواصلها الجميلة وامتداد التصويت إلى بعيد.

هي السورة الخامسة والخمسون في ترتيب المصحف الشريف، أمر فيها الله سبحانه بإقامة الوزن الحسي بالعدالة، وعدّد نعم الله على الإنسان، وأولها تعليم القرآن، والترغيب لما في الجنان، والخور العين، ففيها أربع جنان؛ كما قال: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢] ثم ذكر مشاهد القيامة، وانشقاق السماء، وتمييز المجرمين بعلامات سواد الوجوه وزرق العيون، وأنّ مآلهم إلى ﴿جَهَنَّمَ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [الرحمن: ٤٣] ومقابل هؤلاء أصحاب اليمين، الذين يأكلون من ثمار الجنة، ويلبسون من الحرير، ويتمتعون بالنساء اللواتي لم يتزوّجن من قبل إنس ولا جان.

هذه السورة العظيمة تبين الدرجات والدركات، فالعمل العمل؛ لتنالوا من فيض قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

يُذَكِّر: أن سيدنا عمر رضي الله عنه كان يواظب على الصلاة خلفه شابٌ بهي الطلعة، ولا ينقطع عن صلاة الجماعة، فمرّت أيام ثلاثة لم يأت فيها إلى الصلاة، فسأل عنه فقالوا: مات يا أمير المؤمنين، فقال: هلاًّ أعلمتموني فصليت عليه؟! دلوني على قبره، وفي أثناء الطريق سألهم عنه فقالوا: دعتُه امرأة ذات جمال إلى بيتها؛ ليصلح لها دارها، فلما دخل عرضت نفسها عليه، وأقفلت الأبواب، فرفض خوفاً من الله تعالى، ومن شدة خوفه من الله وقع ميتاً!! فوقف سيدنا عمر على قبره وناداه: يا فلان؛ ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فسمع صوتاً من القبر يقول: يا عمر؛ لقد أعطانيهما الله أربعاً!!



سورة الواقعة

السورة ٥٦ من بين ١١٤ سورة = ٩٦ آية، الجزء ٢٣، كان صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يداوم على قراءتها في صلاة الفجر، رواه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم، من ميزاتها: أنها تمنع الفقر والفاقة، وتجلب الرزق، وتمنع البؤس، حتَّى سميت بسورة الغنى، من داوم على قراءتها لم يكتب من الغافلين، حديثها الرئيسي عن يوم القيامة؛ لذا كانت من ضمن السور التي شَيَّت حبيبنا رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، رواه الترمذي.

قسم الله الناس فيها إلى ثلاثة أقسام: المقربون، أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، وبين مكانة كل منهم، من أهم ما فيها: وصفها لسكرات الموت.

ورد فيها أحاديث وآثار منها: «من قرأ كل ليلة: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ لم يصبه فقر أبدًا»، «ومن قرأ كل ليلة ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لقي الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر»، رواه ابن عساكر، وقال سيّدنا عثمان لابن مسعود: ألا أمر لك بعطائك؟ قال: لا حاجة لي به، قال: يكون لبناتك، قال: إني قد أمرت بناتي أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، فإنِّي سمعت رسول الله يقول: «من قرأ كل ليلة سورة الواقعة؛ لم تصبه فاقة أبدًا»، وعند الديلمي: «علموا نساءكم سورة الواقعة؛ فإنها سورة الغنى».

وكُلُّها أحاديث ضعيفة الإسناد، لكن أثرها مجرب، الفقير يقول: القرآن صديق لا يخيب، فيجب عليك أن تصادق القرآن، اتخذ من السور الفضيلة صديقًا؛ تقرأها

كل ليلة: يس-الواقعة-تبارك، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «من قرأ في ليلة مئة آية لم يكن من الغافلين، وكان من القانتين»؛ أي: العابدين الطائعين، «ومن قرأ خمس مئة آية كان من المقنطرين»؛ أي: له قناطير من الأجر، نعم؛ القرآن صديق لا يخيب، لا يتركك عند النزع، يصعد إلى الله فيطلب الشفاعة لك، فإذا وُضعت في قبرك ذهب عنك كل من حولك إلا القرآن وعملك الصالح، ويأتي الملكان، فيسألنك: من ربك؟... فيقول لهما: إليكما عنه، فقد شفعني ربي فيه، فيقولان: نم نومة العروس هنيئاً، لا يوقظك إلا أحب الخلق إليك، القرآن يبقى معك، يؤنسك في قبرك، يقول لك: اليوم أؤنس وحشتك، وأقل غربتك، وأشهد بك مشاهد القيامة، وأدخلك الجنة؛ لذلك اتخذ من القرآن صديقاً لك، ولو كلَّ يوم اقرأ سورة: الواقعة-يس-تبارك-الدخان-السجدة-الكهف، كلُّها ندبك رسول الله إليها.

سورة الواقعة تحدث عن أحوال يوم القيامة، وتحدثت عن سكرات الموت، ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٨٥]، اعجب معي إلى سياق القرآن: ﴿تَنْظُرُونَ﴾، ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾؛ أي: تنظرون ما يحدث للميت، ولكنكم لا تبصرون ما يشعر به الميت ويحس به؛ من مشاهدته للملائكة، وقبض الروح، ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦، ٨٧] يعني: إذا كنتم أقوىاء بذاتكم ودباباتكم وطائراتكم وسلاح الجو والبر والبحر؛ فأرجعوا الروح إلى صاحبها، ولكنكم عاجزون بذاتكم، انتهت الدنيا وانقضت، وأفضى الناس إلى

ثلاث فرق: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٩ - ٩٤]، من أين استقيننا هذه الأشياء؟ ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٥، ٩٦].

* * *

الصلح مع الله تعالى

قَالَ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ، رواه مسلم.

أي: ألم يحنْ ويقرب زمن صلحك مع الله تعالى؟! يأتي رمضان ويذهب رمضان وأنت مقيم على المعصية!

ألم يأنِ يا قلب أن أترك الجهلاً وأن يحدث الشيبُ المبين لنا عقلاً؟! ذاك عتاب رقيق من الله الجليل للإنسان المقصر الذي لم يخشع قلبه لذكر الله تعالى، ولم يستجب لأوامر الله تعالى، ولم يلتزم منهج الله تعالى؛ وهو القرآن.

الله يعافيك أيها العبد، استحي من الله تعالى، إلى متى أنت غافل؟ وإلى متى أنت ساهٍ؟ وإلى متى أنت مقصر؟ وإلى متى أنت باللذات مشغول؟ وأنت على ما قدمت مسؤول، أفيقوا يا أهل الإيمان، إن الله يستبطن التوبة منكم، نِعَمه نازلة عليكم، ومعاصيكم طالعة إليه!!

تسمع القرآن ولا تتأثر، وتدخل المسجد ولا تتأثر، وتسمع الخطب والدروس ولا تنعكس على سلوكك وعملك، إلى متى؟ هذا عتاب رقيق لو أحسست به؛ لانهمرت دموع عينيك، ولنطق لسانك، قد آن يا رب، الله تعالى يوقظك من غفلتك، يجب أن تعود إليه، أما آن الوقت الذي تستقيم فيه على شرع الله، وتنقاد

لأوامره؟! أما آن لقلبك أن ينقاد لطاعة الله؟! فقيمتك عند الله على حسب استقامتك وعملك...

عُدْ إليه باختيارك قبل أن يعيدك باضطرابك، ألا فلتعلم أنّه إذا لم يحملك إيمانك على طاعة الله؛ فإيمانك فيه خلل يسمّى عند أهل العقيدة فسقاً؛ لعدم تنفيذ أمر الله، وعندما تستشعر عظمة الله؛ تنقاد جوارحك إلى طاعته، فإذا خشع القلب انقادت الجوارح، وإن قسا القلب تفلتت الجوارح، فالفسق أساسه قسوة القلب، والطاعة أساسها خشية القلب، تصلي وتصوم وتحج وأنت غافل!! لكن الله يريدك أن تخشع وتقرب منه: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]؛ ليتألق بإيمانك.

لما سمع الصحابة هذه الآية؛ قال لهم سيّدنا النبي صلى الله عليه وسلّم: «إِنَّ اللَّهَ لَيْسَبْطُكُمْ بِالْخُشُوعِ»، فقالوا جميعاً عند ذلك: سمعنا وأطعنا وخشعنا، استجابوا لأوامر الله، وتركوا المزاح والضحك.

كان السلف الصالح إذا سمعوا الآية خشعت قلوبهم وأقلعوا عن المعاصي، ألم يأتكم نبأ ابن المبارك؟ سيّدنا عبد الله بن المبارك دخل بستانه يوماً ومعه أصحابه، وأكلوا من ألوان الثمار، وشربوا حتّى الليل فناموا، وكان مولعاً بالضرب على العود، فقام وأمسك العود ليعزف على أوتاره، فما إن ضرب وترًا حتّى نطق العود كما ينطق البشر، فقال له: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]؟! فقال ابن المبارك: بلى والله، وكسر العود، وبدأ طريقه مع الله، وصار من أئمة الهدى.

وهل تعرفون كيف صار الفضيل بن عياض إمامًا من أئمة الهدى؟ وما سبب توبته؟ الإمام الفضيل كان إذا خرج ليقطع الطريق في الليل؛ خافه كلُّ قطاع الطرق، ومكثوا في بيوتهم حتَّى ينتهي تلك الليلة، كان الإمام الفضيل قد عشق جاريةً، فواعدته ليلاً، فبينما هو يرتقي إليها الجدران سمع قارئاً يقرأ من أحد البيوت: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا...﴾، فوقف على الجدار، وانهمرت دموعه، وشعر أن الخطاب له، وصار يردد وهو يبكي: بلى والله قد آن، اللهم إني تبت إليك.

إن هذا رمضان وقت الصلح مع الله، فما أقعدك؟! أما آن لك أن ترجع إلى الله وتقلع عما يغضب الله؟! لعلك تنتظر وقتاً لا يقبل الله فيه التوبة!! فرعون آمن لكن لم يقبل الله إيمانه، وقال له: ﴿الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١] لذلك إياك أن تغادر أيامك دون أن تتوب وترجع إلى الله، وإياك أن يطبَّق عليك قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥].

هلموا إلى مائدة الله، هلموا إلى كرم الله، ارفعوا أكفكم وقولوا: يا الله.



صفة السمع لله تعالى

عن خولة بنت مالك بن ثعلبة رضي الله عنه قالت: ظاهر مني زوجي أوس بن الصامت، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم أشكو إليه، فجادلني فيه، وقال: «أتقي الله، فإنه ابن عمك»، فما برحت حتى نزل القرآن: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ نَحْوُكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] إلى الفرض، فقال: «يُعْتَقُ رَقَبَةً»، قالت: لا يجد، قال: «يَصُومُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ»، قالت: يا رسول الله؛ إنه شيخ كبير، قال: «فَلْيُطْعَمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا»، قالت: ما عنده شيء يتصدق به، قالت: فَأُتِيَ سَاعَتَيْدَ بَعْرِقٍ مِنْ تَمَرٍ، قلت: يا رسول الله؛ فَإِنِّي أُعِينُهُ بَعْرِقٍ آخَرَ، قال: «قَدْ أَحْسَنْتِ، اذْهَبِي فَأُطْعِمِي عَنْهُ بِهَا سِتِّينَ مِسْكِينًا، وَارْجِعِي إِلَى ابْنِ عَمِّكَ»، رواه أصحاب السنن.

هذا الموقف للسيدة خولة بنت ثعلبة أخذ منه العلماء دروسًا في التربية، غير أنه بفضلها نزل حكم الظهار، وأن فيه الكفارة بعد أن كانت تحرم على زوجها مؤبدًا.

وأخذ منه علماء العقيدة عقيدة السمع؛ وهي الصفة التي يسمع بها مولانا جميع الموجودات، وجميع الأصوات الموجودة...، بالطبع سمع الله غير سمعنا، سمعنا بجارحة الأذن، أما الله تعالى فليس كمثله شيء، هو لا يسمع أصوات الآدميين فقط، بل يسمع كل شيء في هذا الوجود، يسمع ديب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء...، حتى إنه سبحانه قال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فهو يسمع تسبيح

الموجودات؛ ولذا وصف نفسه سبحانه: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]،
وقال لسيّدنا موسى وهارون: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦].

وسيدتنا عائشة تقول: كانت السيّدة خولة بنت ثعلبة تجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم في طرف الغرفة ما أسمع ما تقول، ولكن الله سمع قولها!

ولمّا رأى رسول الله أصحابه يرفعون أصواتهم بالتكبير في العمرة؛ أشفق عليهم، وقال: «اربعوا على أنفسكم، إنكم ليس تدعون أصمّ ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا».

وسمع الله تعالى قول اليهود: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]،
فماذا نستفيد من هذه القضية الاعتقادية؟ الحقيقة: فائدتها عظيمة في مراقبة الله تعالى، ففيها حياةٌنا من الله تعالى عندما نعلم أنّه يرانا ويسمعنا، فكيف أذنب وهو يراني ويسمعني؟! ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨] يراني في كل حالاتي، وقد نهاني، وأمرني، وحرم عليّ المعصية... فمن استحضر أنّ الله تعالى يراه في كل الحالات؛ فإنّه لا تحدّثه نفسه أن يقدم على ذنب، أو يفعل أيّ معصية، وهو يعلم أنّه بمرأى ومسمع من الله تعالى.

ذكر أنّ رجلاً عشق امرأة، وأغرم بها، فقال له بعض أصحابه: إن خلوت بها في مكان بعيد عن الناس لا يراكها إلّا الله؛ فماذا تفعل معها؟ فقال: لا أجعل ربي أهون الناظرين إليّ.

أسمعت أيها المسلم؟! لا تجعل الله أهون الناظرين إليك، لا تتهاون بنظر الله تعالى، لو كان ينظر إليك أبوها؛ لهبّت أن تمسّها، أو تراسلها على (الواتس أب) و(الفاير)... وغيرها من أجهزة التواصل الفاسدة، أتظن أنّك عندما تراسل فتاة وتحدثان معاً أن هذه معصية خفيفة؟! هذه بريد الزنى، أتظن أنّ الله تعالى لا يغضب لانتهاك أعراض المسلمين؟!!

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل: خلوت، ولكن قل: عليّ رقيب ولا تحسبن الله يغفل لحظةً ولا أنّ ما تخفي عليه يغيب ما رأيك أن يقوم أحدٌ من رفاقك بمراسلة أختك على (الواتس)، ويتواعدان؟! أترك أختك؟! أترضى لغريب أن يراسل مع امرأتك على (الواتس)، وتقول له: اشتقت لك؟! ولماذا لا تأتينا؟ أين الشرف والنخوة؟! وتحسب نفسك صاحب دين؟!!

ذكر أن رجلاً راود أعرابية عن نفسها في ليلة ظلماء في البرية، فقال لها: ما يرانا إلّا الكواكب، فقالت تلك الأعرابية الجاهلة: فأين مكوكبها؟! فأين الله؟!!

أعرفون قصة ابن عمر مع الراعي؟ هكذا تكون مراقبة الله، إذا علّم المؤمن التقى أنّه دائماً بمراًى ومسمعٍ من الله تعالى، وأنه لا تخفى على ربّه منه خافية؛ لم يستطيع أن يتجرأ على المعصية التي يعلم أنّها حرام، وأنّ الذي حرمها يراه... يراه... يراه... ﴿لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤]؟ قولوا: بلى.

* * *

حكم الوشم

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ، وَالْمُوتَشِمَاتِ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، الْمُغَيِّرَاتِ خُلُقَ اللَّهِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ تُسَمَّى أُمَّ يَعْقُوبَ، فَجَاءَتْ فَقَالَتْ: بَلِّغْنِي أَنَّكَ لَعَنْتَ كَيْتَ وَكَيْتَ، فَقَالَ: وَمَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ هُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟! فَقَالَتْ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ، فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ مَا تَقُولُ، قَالَ: لَوْ قَرَأْتِيهِ لَوَجَدْتِيهِ، أَمَا قَرَأْتَ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّهُ قَدْ نَهَى عَنْهُ، قَالَتْ: فَإِنِّي أَرَى أَهْلَكَ يَفْعَلُونَهُ، قَالَ: فَادْهَبِي فَاَنْظُرِي، فَذَهَبَتْ فَانْظَرَتْ؛ فَلَمْ تَرَ مِنْ حَاجَتِهَا شَيْئًا، فَقَالَ: لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ مَا جَامَعْتُهَا» رواه البخاري.

كما ترون من التقرير النبوي: أَنَّ الوشم كان خاصًا بنساء الجاهلية للترزين، وليس من الرجولة أن يفعله الرجل؛ لأنَّ النهي جاء خاصًا بالواشمة والمستوشمة، فإذا وشم الرجل نفسه يكون متشبهًا بالنساء، فيصبح له لعنتان: لعنةٌ لآلئه وشم نفسه، ولعنةٌ لآلئه تشبه بالنساء، هذا أوَّلاً.

وثانيًا: اللعن: هو الطرد من رحمة الله تعالى، والإبعاد من كرامته، والواشم والموشوم ملعونان؛ كما لعن إبليس وطرده من رحمة الله؛ لعصيانه، فلماذا؟ ثبت علميًا أضرار الوشم؛ لآلئه حقن تحت الجلد بمواد كيميائية، وهي سموم للجسم من الممكن أن تؤدي إلى سرطان الجلد، والأداة المستخدمة في الحقن يستخدمها أكثر من شخص، فتنتقل من جسم إلى آخر ناقلاتٌ من الأمراض على رأسها: الإيدز

المعدي، والتهاب الكبد، لست طبيياً لأقرر الأمراض الناتجة عن المواد المحقونة تحت الجلد، ولكن هذا كلام الأطباء...

ثالثاً: أصل الوشم مرتبط بالخرافات والتعاويذ عند قدماء المصريين، كانوا يعتقدون أنه يشفي من الأمراض، ويدفع العين والحسد؛ لذا كانوا يتقربون إلى آلهة المصريين الوثنية بذلك، وقد جاءت كل الديانات بتحريمه، ولكن الجهلة من الجنود والسجناء والبحارة يفعلونه، وحين حدثت حالات الوفاة بسبب الوشم؛ قامت بريطانية واليابان بتحريمه، نحن لا علاقة لنا بتحريم بريطانية واليابان، نحن عندنا كلام سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى، سيّدنا النبي صلى الله عليه وسلم نهى في «البخاري» عن ثمن الكلب وثمان الدم، ونهى عن الواشمة والمستوشمة، وآكل الربا وموكله، ولعن المصور الذي ينحت التماثيل، وقد خلق الله البديل للنساء؛ وهو الحنّاء، فهي مادة طبيعية تفيد الرأس والجلد معاً، وفترة بقائها على الجلد غير دائمة؛ لأنّها تذهب مع الماء.

القضية الرابعة والأخيرة: جاء اللعن في الحديث بالوصف: «لعن الله الواشمة والمستوشمة»، وليس لأحد أن يلعن أحداً معيّناً إلا إبليس؛ لأنّ الله لعنه فقال: ﴿شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ [النساء: ١١٧، ١١٨]، ولعن إبليس فقال له: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٨].

لذلك اللعن يجوز بالوصف، ولا يجوز للمعيّن؛ كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [المائدة: ٧٨]، ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]،

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧]،
ليس لأحد أن يلعن أحداً معيناً، ليس لك أن تلعن ولدك، ولا الأم أن تفعل ذلك،
اضبط لسانك، عندما تلعن أحداً؛ فأنت تخرجه من ديوان الطائعين إلى ديوان
العاصين؛ يعني: أنت تقول: إِنَّ اللَّهَ طَرَدَ فُلَانًا مِنْ رَحْمَتِهِ، وما أدراك أَنَّ اللَّهَ فَعَلَ
ذلك؟! هذا كذب على الله تعالى وهو لا يدري!

اللعن في الإسلام يكون للأوصاف الذميمة، لعن الله آكل الربا وموكله، لعن
الله النامصة والمتنمصة، ويمتنع اللعن لشخص معين، وخصوصاً المسلم، النبي
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ، وَلَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ لَعَّانًا»، أخرج
البخاري والترمذي، فاللعن ليس من أخلاق أهل الإيمان، ويحرم يوم القيامة من
الشفاعة، جاء في الحديث: «لَا يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شَفَعَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» رواه
مُسْلِمٌ.

* * *

طاعة الله ورسوله

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»، رواه الشيخان.

هذا الحديث من جوامع الكلم له عليه الصلاة والسلام، ويدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام، فينبغي حفظه والاعتناء به، «ما نهيتكم عنه» أي: منعتم منه، فالشيء الذي أنهاكم عنه اجتنبوه ولا تفعلوا منه شيئاً؛ لأن الاجتناب أسهل من الفعل، والاجتناب أعظم من التحريم؛ لأن معناه: كل ما يتعلق بالحكم ابتعدوا عنه، عندما أقول لك: لا تكلم فلاناً؛ فأنت قد تجتمع معه، وقد تماشيه، ولكن عندما أقول لك: اجتنبه؛ فمعنى كلامي: لا تماشه، ولا تختلط به، ولا تقرب منه ولا من كل ما يوصل إليه.

مثلاً: الخمر نزل تحريم شربه بقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]، ولم يقل: فلا تشربوه، فأنت قد تبيعه، وتعصره، وتحمله، وتوصله لجهة ما، أمّا عندما قال لك: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ فمعناه: لا تتعامل معه على الأصعدة كافة؛ لذا لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم شارب الخمر، وعاصره، ومعتصره، وحامله، والمحمولة إليه، وبائعها، ومبتاعها...، فلعن عشرة ممن لهم صلة به، وقال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

انتبهوا: الامتثال لا يحصل إلا بترك جميع المنهيات، وبينَ هذا الحديث وجوب فعل ما أمر الله به، والكف عما نهى عنه، فلا يجب على الإنسان أكثر مما يستطيع، وتكْمُن سهولة هذا الدين أنَّ الحديث لم يوجب على المرء إلا ما يستطيعه، فمن عجز عن بعض الأمور؛ كفاه أن يأتي بما قدر عليه؛ مثلاً: الصلاة يأتي بها قائماً، فإن عجز فبالقعود، فإن عجز فعلى جنب؛ ولهذا استنبط العلماء قاعدة منها قالوا: المشقة تجلب التيسير، وإنما شَدَّدت الشريعة في جانب المنهيات أكثر من المأمورات، فعَلَّقت تنفيذ الأوامر على الاستطاعة، وأما النهي فدَعَه جزماً وقولاً واحداً...

إذا لم تستطع شيئاً فدَعَه وجاوزه إلى ما تستطيع
وحتى تترسخ فيكم هذه العقيدة، والمنهج الدقيق، وخطورة أن تحيد عنه؛ فإنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتمَّ الحديث، وبينَ أثر ترك تنفيذ الشريعة، فقال: إِنَّ سبب هلاك الأمم السابقة اختلافهم على أنبيائهم، فقوم سيِّدنا موسى لما ذبحوا البقرة؛ شددوا على أنفسهم، وظلوا يسألون: ما لونها؟ ما هي؟ فشَدَّد الله عليهم، ولما اختلفوا على أنبيائهم؛ لم يقبل منهم التوبة إلا أن يقتلوا أنفسهم، وعاقبهم الله تعالى بالتيه أربعين سنة، والجزاء من جنس العمل...

* * *

الولاء والبراء

عن علي رضي الله عنه قال: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَا وَالزُّبَيْرُ وَالْمُقَدَّادُ، فَقَالَ: «انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظِعِينََّةً مَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوهُ مِنْهَا»، فَذَهَبْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ، فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ، قَالَتْ: مَا مَعِيَ كِتَابٌ، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجَنَّ أَوْ لَتُلْقَيْنَ الثَّيَابَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أَنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِمَّنْ بِمَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا هَذَا يَا حَاطِبُ؟!»، قَالَ: لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مِنْ قُرَيْشٍ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ هُمْ قَرَابَاتُ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِمَكَّةَ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي النَّسَبُ فِيهِمْ أَنْ أَصْطَنَعَ إِلَيْهِمْ يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ كُفْرًا، وَلَا ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ»، فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ: «إِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ؟! لَعَلَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: ااعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»، وَنَزَلَتْ فِيهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المتحنة: ١] الآية، رواه الأربعة.

من لوازم الإيمان الولاء والبراء؛ أن توالي المؤمنين وتبترأ من الكافرين، فمن لم يوال المؤمنين ولم يوال الحق وأهل الحق والقرآن والسنة، ومن ترك موالاة الأنبياء،

وولي أعداء الله، وولي المنافقين، وولي الكُفَّار، وولي المنحرفين، فأحبَّهم، وجلس معهم، وسافر معهم، واختلط معهم؛ فهذا يخشى عليه ألا يكون فيه ذرَّة من إيمان!

الحدُّ الأدنى لإيمانك أن توالي المؤمنين، وأن تتبرأ من الكُفَّار والمُشركين، فإن كنت تعظَّم الكافر، وتبجِّلُه، وتوقِّرُه، وتحترمه، وتستقوي به، وتعتمد عليه؛ فاعلم عِلْم اليقين أنَّك في كلِّ قضية تفقد ذرَّة من إيمانه حتَّى يفقده كله.

احفظوا: من لوازم الإيِّمان الولاء، ومن لوازم الإيِّمان البراء، بأن توالي المؤمنين، وتبرأ من الكُفَّار والمُشركين.

كان أحدهم له قريب غني جداً لا يصلي، وينكر على أهل الدِّين دينهم، ويستخف بالحق، فرجلٌ مثل هذا لا ينبغي أن تحتفل به، ولا أن تتواضع له، وإلَّا فإيمانك ناقص، ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١]، كيف تحب من لا يخاف الله تعالى؟! كيف تحب الكاذب في دينه؟! هؤلاء الكُفَّار أخرجوا النبي من مكة، وطاردوه، واثتمروا على قتله، ونكلوا بأصحابه، أيعقل أن تواليهم؟! ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ﴾ [الممتحنة: ١] فكيف توادون من أخرجكم؟ وكيف تحبون من شردكم؟ وكيف تصلون من طردكم؟!

الله تعالى يخاطب المؤمنين بشخص حاطب بن أبي بلتعة، ويحذرنا من أعداء الدِّاء، إن تمكنوا منكم آذوكم، وإن لم يتمكنوا منكم ﴿سَلَقُوكُمْ بِالْأَسِنَّةِ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]، فلا ينبغي أن توالي من جعله الله تعالى عدواً لك.

يسمح لك أن تقيم علاقات عمل، ولا يسمح لك أن تقيم علاقات حميمة بينك وبين الكُفَّار والمنافقين، ففي علاقات العمل إن كان عندك مدير غير مسلم وأنت موظف؛ فيجب أن تحترمه، وأن تطيع أمره ضمن العمل، ولكن لا يسمح لك أن تحبّه، ولا أن تواليه، ولا أن تناصره ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

معنى الحب والولاء: التوافق في العقيدة، والتوافق في القيم، وفي المبادئ، وفي الأهداف ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥]، وهذا ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ [الممتحنة: ١].

* * *

أحب الأعمال إلى الله تعالى

قال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَعَدْنَا -نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَتَذَاكَرْنَا، فَقُلْنَا: لَوْ نَعْلَمُ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؛ لَعَمَلْنَاهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، رواه الترمذي.

تنوّعت الأحاديث في أحبّ الأعمال إلى الله تعالى:

-منها: الصلاة على وقتها، ثمَّ برُّ الوالدين، ثمَّ الجهاد في سبيل الله تعالى، روى الشيخان في «صحيحهما» عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مسعود رضي الله عنه قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا»، قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ بَرُّ الْوَالِدَيْنِ»، قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

-وفي بعضها: الإيمان بالله ورسوله، ثمَّ الجهاد، ثمَّ حجٌّ مبرور، كما روى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: «إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ»، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «حَجٌّ مَبْرُورٌ».

-وفي بعضها: ذكر الله تعالى؛ أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله، كما روى ابن حبان عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَمُوتَ وَلِسَانُكَ رَطْبٌ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»، وروى الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِكِكُمْ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الْوَرَقِ وَالذَّهَبِ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قالوا: بلى، قال: «ذِكْرُ اللَّهِ».

-وفي بعضها: الحب في الله والبغض في الله، كما روى أبو داود والطبراني بإسناد جيد عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ».

-وفي بعضها: أن أفضل الإسلام أن تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف، كما في «الصحيحين» أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ».

-وورد عن ابن مسعود: أَنَّهُ الْعِلْمُ، كما ذكر الأوزاعي قال: جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: يا أبا عبد الرحمن؛ أي الأعمال أفضل؟ قال: العلم، ثم سأله أي الأعمال أفضل؟ قال: العلم، قال: أنا أسألك عن أفضل الأعمال، وأنت تقول: العلم!! قال: ويحك! إن مع العلم بالله ينفعك قليل العمل وكثيره، ومع الجهل بالله لا ينفعك قليل العمل ولا كثيره.

لذلك جاء الجواب للسائل عن أحب الأعمال إلى الله تعالى مختلفًا بحسب أحوال السائلين، فأجاب رسول الله كل واحد بما يناسبه، فإذا كنت غنيًّا، فأفضل عمل لك إطعام الطعام، وإنفاق المال، وخصوصًا إذا حدثت فاقة بين المسلمين،

وإذا كان عندك والدان كبيران ضعيفان؛ فأفضل عمل لك بر الوالدين، وإذا كنت قوياً شجاعاً مهاباً؛ فأفضل عمل لك الجهاد في سبيل الله، وإذا كنت فقيراً أو ضعيفاً؛ فأفضل عمل لك ذكر الله تعالى.

وقد أورد الحافظ ابن حجر رحمه الله في كتابه «الفتح» كلاماً نفيساً يحسن ذكره في هذا المقام، قال: (ومحصل ما أجاب به العلماء عن هذا الحديث وغيره مما اختلفت فيه الأجوبة بأنه أفضل الأعمال: أنَّ الجواب اختلف لاختلاف أحوال السائلين، بأن أعلم كل قوم بما يحتاجون إليه، أو بما لهم فيه رغبة، أو بما هو لائق بهم، أو كان الاختلاف باختلاف الأوقات؛ بأن يكون العمل في ذلك الوقت أفضل منه في غيره، فقد كان الجهاد في ابتداء الإسلام أفضل الأعمال؛ لأنه الوسيلة إلى القيام بها والتمكن من أدائها، وقد تضافرت النصوص على أن الصلاة أفضل من الصدقة، ومع ذلك ففي وقت مواساة المضطر تكون الصدقة أفضل، أو أن «أفضل» ليست على بابها، بل المراد بها الفضل المطلق، أو المراد: من أفضل الأعمال، فحُذِفَت «من» وهي مُرادَة) انتهى.

فالصلاة أفضل الأعمال وأحبها إلى الله، ومع ذلك فقد يكون بر الوالدين أفضل في حق من له والدان -أو أحدهما- ويُخشى عليهما الضياع لو خرج للجهاد مثلاً، فيكون البر في حقه أفضل الأعمال، وقد يكون إنفاق المال أفضل في حق الغني إذا حدثت فاقة بالمسلمين، وآخر فقير وضعيف عن الجهاد ولا والد له، فهذا أفضل شيء له ذكر الله تعالى، وآخر قوي شجاع مهاب، فهذا أفضل شيء له الجهاد في سبيل الله تعالى.

فالأجوبة اختلفت؛ لاختلاف أحوال السائلين، فأعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم كل قوم بما يحتاجون إليه، فقد كان الجهاد في أول الإسلام أفضل الأعمال؛ لتثبيت دعائم الدولة الإسلامية، والصلاة أفضل من الصدقة، ولكن جاء وقت على الأمة - وهذا اليوم منها - مواساة المضطر فيها أفضل، وإن تقديم الجهاد على جميع أعمال البدن أفضل؛ لأنَّ فيه بذل النفس، ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠، ١١] إلا أن الصبر على أداء الصلوات في أوقاتها والمحافظة على بر الوالدين أمر لازم متكرر دائم، لا يصبر عليه إلا الصديقون، فتنبه أخي المسلم.

* * *

أَسْمَاءُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِهِ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ» رواه البخاري.

أَسْمَاؤُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَدَّ مِنْهَا الْجَزُولِي فِي «دَلَائِلِ الْخَيْرَاتِ» ٢٠٠ اسْم، وَأَوْصَلَهَا ابْنُ دَحِيةٍ فِي كِتَابِهِ «الْمُسْتَوْفَى فِي أَسْمَاءِ الْمُصْطَفَى» إِلَى نَحْوِ ٣٠٠ اسْم، وَأَلَّفَ فِي أَسْمَائِهِ ١٤ مُؤَلِّفًا، وَالْقَاضِي عِيَاضُ فِي «الشِّفَا» عَقَدَ بَابًا، وَأَفْرَدَ لَهَا الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرَ بَابًا فِي «تَارِيخِ دِمَشْقَ»، وَأَلَّفَ الْقُرْطُبِيُّ كَذَلِكَ وَالسَّخَاوِيُّ، وَالسِّيُوطِيُّ لَهُ: «الرِّيَاضُ الْأَنْيَقَةُ فِي شَرْحِ أَسْمَاءِ خَيْرِ الْخَلِيقَةِ»، وَرَأَوْا أَنَّ كُلَّ وَصْفٍ مِنْ أَوْصَافِهِ فِي الْقُرْآنِ هُوَ اسْمٌ لَهُ: الشَّاهِدُ، الْمُبَشِّرُ، النَّذِيرُ، الدَّاعِي، السَّرَاجُ الْمُنِيرُ، يَقُولُ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ: هَذِهِ صِفَاتٌ، فَيُطْلَقُهَا عَلَيْهِ مَجَازًا، وَبَلَغَ بِهَا بَعْضُ الصُّوفِيَةِ ١٠٠٠ اسْم.



نشر الإسلام عن طريق الأعاجم

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْجُمُعَةِ، فَتَلَاهَا، فَلَمَّا بَلَغَ: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣] قَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِنَا؟ فَلَمْ يُكَلِّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: وَسَلَّمَانُ الْفَارِسِيُّ فِينَا، فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ بِالثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ هَؤُلَاءِ» رواه الترمذي والشيخان.

رأى سيّدنا رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم بنور النبوة ووحىها أنّ الإيمان سينشره رجال من فارس إن تسرب العجز للعرب في نشر رسالة الإسلام، ويمضي قرن وراء قرن، فتتحقق النبوءة والمعجزة، فقد استطاعت الأعاجم أن تقف ضد هجمات أعداء الإسلام، أعاجم دخلوا في الإسلام، وكانوا لا ينطقون بالعربية، فتعلموها، ثم مارسوها، وعرفوها، فهل كان السلطان عبد الحميد ومحمّد الفاتح العثمانيان إلّا أعجميين من الترك؟ وهل كان الملك قطز -بطل معركة عين جالوت وقاهر التتار- إلّا أعجميّاً من خوارزم سمرقند؟ وهل كان صلاح الدّين الأيوبي إلّا كرديّاً لا ينطق بالعربية؟ ولولا هؤلّاء وأمثالهم لكانت بغداد الآن للمغول، والجزيرة العربية والشام كلها لليهود، وتركيا والمغرب العربي كله بيد الصليبيين، فانظروا معي إلى العلماء الذين حملوا الراية، وأوصلوا علوم الدّين والدنيا إلى العالم العربي كله، هل كانوا إلّا أعاجم وموالي؟؟ بدءاً من سيّدنا صهيب الرومي وسلمان

الفارسي الصحابين، وعطاء بن رباح -مفتي مكة- كان عبداً أسمر اللون، والإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه من الموالي، وسيبويه الإمام في النحو من الموالي، وعبّاس بن فرناس، والخوارزمي، وابن رشد، وأبو علي الفارسي؟!...

وجاء بعدهم تيجان الكتب الستة في الحديث؛ الإمام البخاري من بخارى، ومسلم من نيسابور من إيران، وأبو داود من أفغانستان، والنسائي من غرب العاصمة التركمانية عشق آباد، والترمذي من ترمذ في أوزبكستان، وابن ماجه من قزوین إحدى مدن إيران، وبينما كانت الأمة العربية مشغولة برئاستها للعالم؛ كان هؤلاء ينشرون الإسلام في كل مكان.

واليوم قيادة الأمة الإسلامية غير واضحة المعالم، من الدولة التي ستقود صدارة الدولة الإسلامية؟ أمّا السعودية والخليج؛ فيملكون أموالاً يستطيعون بها قيادة الأمة الإسلامية، ولكنهم قوم يغتسلون بالنفط، وإذا جاءهم تهديد خارجي استجاروا بالعم سام؛ ليخلصهم ويفرج كربهم، والعم سام يخادعهم ويستبيح أموالهم، وغير العرب اليوم ينظرون إلى الأمة العربية نظرة إحباط؛ لأنها أمة متقاتلة متنازعة، وأرى الأمة الماليزية الأعجمية تستعد لقيادة الأمة بالصناعة، والثقافة، والتطور العلمي والعمراني، لا أستبعد أبداً أن تكون قيادة المسلمين بيد الأعاجم غداً؛ فإن الله تعالى يمكن من يشاء ويستخلف من يشاء: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] وصدق الله العظيم، وصدق رسوله

الكريم، ونحن على ذلكم من الشاهدين، «لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ بِالشُّرْيَا لَتَنَاولَهُ رِجَالٌ مِنْ هَؤُلَاءِ» رواه الترمذي، وهو حديث متفق عليه.

* * *

النفاق والمنافق

عن جابر رضي الله عنه قال: كُنَّا فِي غَزَاةٍ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لِلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: «دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مُتَّبَعَةٌ»، فَسَمِعَ بِذَلِكَ ابْنُ أَبِي، فَقَالَ: فَعَلُوهَا، أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ دَعْنِي أَضْرِبَ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَعُهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنْ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» رواه الشيخان والترمذي.

ما النفاق الذي نزلت لأجله هذه السورة؟ النفاق: هو التصديق للمراوغة، لا لدرجة العمل، بل للمكر، والخداع، والتمويه، فالمنافق كالهرباء والفأر الصحراوي، تتخذان نفقاً في الأرض؛ للتخفي والاستتار والفرار، المنافق: هو الذي اختار طريقاً مشبوهاً ومخفياً؛ لينفذ من خلاله إلى المجتمع، ويهرب عند الخطر من طريق آخر، والنفاق يعني التصديق، ولكن ليس لدرجة العمل به على حساب المصلحة والمنفعة، بل لكي يتزن نفسياً أمام نفسه، ثم أمام الناس يلجأ إلى المراوغة والمكر والخداع والتمويه، أما في العمل فلا يعمل الصواب إلا إذا كان في مصلحته أو وهو مرغماً كاره.

فالنفاق: هو الدخول في الإسلام من وجه، والخروج عنه من الآخر، فهو مؤمن ظاهراً؛ أي: يستر كفره ويظهر إيمانه، أمّا في العمل فالمنافق يعمل ما فيه مصلحته، وإن من عواقب النفاق على المجتمع أن تفقد الكلمة دلالتها! والقرآن شهد عليهم فقال: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧] ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٦٧] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١] أي: يهربون من التكاليف الشرعية، ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، مع أنهم يؤمنون أن الرسول حق، وأن القرآن حق، ولكنهم يخشون أن يفضحهم القرآن: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤].

انسلوا من الجيش يوم أحد وكانوا ثلث الجيش، وعقدوا الحلف مع يهود، وبنوا مسجد الضرار، وأشاعوا حديث الإفك على أم المؤمنين. لم يتوقف أثر المنافقين على عهد رسول الله، بل بقي ممتداً عبر التاريخ الإسلامي مروراً: ١- بمقتل سيّدنا عمر، ٢- ومقتل سيّدنا عثمان.

٣- وهم الذين حرضوا التتار والمغول على اجتياح عاصمة الخلافة في بغداد، ٤- وكانوا بطانة سوء للخليفة العباسي، وخاصة وزيره ابن العلقمي الخؤون، فمهدوا لهذه المأساة العظيمة التي لم يمر في التاريخ بمثلها في الذل وكثرة القتل!!

٥- واستمر النفاق في عصرنا بأشكال وأنماط خبيثة مأكرة لم يسبق لها نظير، نفاق وخداع وعقائد باطلة؛ ليحققوا من خلالها هدم الإسلام، وأبشع هذه النفاقات: العلمانية، وهي فكرة سبئية سلولية؛ لهدم الإسلام ونصرة الباطل، بحجة: (الدين لله، والوطن للجميع)، وهذه العبارة منذ أن قالها طاغور الهندي الهندوسي؛ تبناها أهل الباطل، فصاروا يقولون: الدين من عند الله وليس لله، والدين لنا وليس لله، وهذا تلبيس نفاقي، واليوم تُقام له المؤتمرات والندوات، ويدعون لها العلماء والدعاة؛ لذر الرماد في العيون، وبينون صروحًا خبيثة تشبه مسجد الضرار الذي بناه المنافقون في عهد رسول الله، فكذبهم الله، وفضح نياتهم، وأمر بتحريقه، فهل آن الأوان لكشف هذه الفتن والخداع؟! والأنكى والأعجب أنهم يتبجحون بأشنع الشبهات، مصداقًا لقول الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]، وهناك كثيرون في زماننا ممن يفعل ذلك ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦] بحجة التيسير، ورفع الحرج، وتغيير الفتوى بتغيير الحال والزمان، وما تلك إلا كلمات حق أريد بها باطل، استخدموها في غير محلها؛ ليرفضوا التحاكم إلى ما أنزل الله.

أصبح المنافق في عصرنا مقدمًا على أهل الحق، أثاروا فتنًا داخل الصف المسلم، فتنه التفريق وإثارة العداوات بين المسلمين؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧] ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: شرًا وفسادًا، ﴿وَلَا وَضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: مطيعون لهم، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧]، فكان رد ربك عليهم: ١ - ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ

بِأَنَّ هُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿ [النساء: ١٣٨] ٢- ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾
 [النساء: ١٤٥] ٣- ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:
 ١٤٠] ٤- ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١] ٥-
 ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ
 اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨]، وآيات بلغت ١٣٩ آية في ١٣ سورة.

اسمعوا البيان الختامي للقرآن في حقهم، اسمعوا التوجيه الإلهي: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ
 فَاحْذَرُهُمْ قَاتِلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤] وكان المنافقون على العهد
 النبوي يحذرون أن تنزل فيهم سورة تفضحهم وتكشف نيّاتهم السيئة تجاه
 الإسلام، فأنزل الله تعالى سورة خاصة بهم، وجاءت آيات عديدة في فضحهم
 والتحذير من شرّهم، ومن أراد الوقوف على هذه الآيات فليقرأ صدر سورة
 البقرة وسورة التوبة وسورة المنافقين وغيرها.

ومن أوضح الآيات التي حذرت من شرّهم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
 تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَتَتْكُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ
 أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَحْنِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل
 عمران: ١١٨].

وكذلك ما وصفهم به في قوله تعالى: ﴿يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ
 إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

ومن الآيات القرآنية التي ذكرت أوصاف المنافقين ووضحتها قوله تعالى:

- ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْغَيْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١] هنا الهروب من التكليف.

- ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] لأنهم يريدون الثمرة دون العمل.

- ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩] لأن المنافق لا يعظم الأمور الغيبية الإيمانية، بل يعنيه المادة والريح والغنيمة.

- ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤] إنهم يؤمنون أن الرسول حق، وأن القرآن حق، ويخشون أن يفضحهم القرآن، ولكنهم لا يعملون إلا ما تهوى أنفسهم.

- ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧] إنهم يأمرون بالمنكر الذي يربحون به، وينهون عن المعروف الذي يتسبب في خسارتهم.

- ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢] ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩] إنهم يتساءلون: أين الغنيمة والربح؟ لأن هذا هو غايتهم.

- ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] وهذه صفتهم يوم القيامة عندما يرون خسرانهم.

- ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١] إنهم أصحاب الوعود البراقة، ولكن ليس لدرجة التضحية بأي شيء.

- ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] فالكذب صفتهم الرئيسية.

- ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧] إنهم يحسبون أن أهل الإيمان مثلهم، وأنهم سوف ينهارون عند غياب المال.

- ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] إن قيمة العقيدة والرسالة لديهم بغير وزن، أما العصبية والقبلية فهي لديهم أعظم.

موقف المنافق من "البشير والنذير":

المنافق لا يعنيه إلا مصلحته، فهو يستجيب للبشرى ويسخرها لأهدافه، ويحقق لنفسه أقصى استفادة منها، وإذا علمها قبل غيره ذهب إليه ليحصل على المكافأة أو جزء منها، أما الإنذار فإنه يتجنب ما يضره وحده، ولا شأن له بغيره.

- ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨].

- ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨].

- ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

- ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١].

- ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨].

- ﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١].

- ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١].
- ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٤].

- ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠].

- ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣].

- ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

كانت فتنة المنافقين من أشدّ الفتن التي تعرّض لها المسلمون في تاريخهم الطويل؛ ذلك لأنّهم يُظهرون الإسلام ويُيطنون الكفر والزندقة، فيُخدع النَّاسُ بظواهرهم، ولا يأخذون حذرهم منهم، وهو ما يهيئ للمنافقين الجوّ المناسب للمكر بالمسلمين والكيد لهم وهم لا يشعرون، وهذا بعكس الكافر الواضح، فإنه يؤخذ الحذر منه ويجاهد، ولا يُمكن له بين المسلمين.

لهذا كان خطر المنافقين في الصف المسلم أكبر بكثير من الكفار المجاهرين بالعداء للمسلمين، ولقد ظهر كيد المنافقين في عهد مبكّر مع الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة، فقد عانى منهم الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون الأمرين، وذلك ممّا يثيرونه من البلايل والمكايد والتخذيل... إلخ.

وما موقف رأس المنافقين وتحذيله يوم أحد، وكذلك إتيانه بالإفك على أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها بخافٍ على أحد، ومن أجل ذلك كان عذاب المنافقين أشدّ من عذاب الكفار، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

وإنّ أثر المنافقين لم يتوقّف على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، بل كان ممتدّاً طوال التاريخ الإسلامي، مروراً بدورهم في قتل سيدنا الفاروق رضي الله عنه، وما تلا ذلك من الفتن الطاحنة بعد مقتل سيدنا عثمان رضي الله عنه، فقد كان المنافقون من وراء ذلك كلّ، كما أنّهم كانوا هم الذين حرّضوا التتار والمغول على اجتياح عاصمة الخلافة الإسلامية في ذلك الوقت، وكانوا بطانة سوءٍ للخليفة العباسي، فمهّدوا لهذه المأساة العظيمة التي لم يمرّ على المسلمين مثلها في الذل وكثرة القتل،

حتى قال المؤرّخ ابن الأثير وهو يرويها: يا ليت أمّي لم تلدني!! هذا وهو لم يشهد هذه الفواجع العظيمة، بل هاله مجرّد سماعها!!

واستمر أثرُ المنافقين حتى ظهر في عصرنا الحاضر بأشكال مأكرة وأنماط خبيثة لم يسبق لها نظير، حتى خيف على خاصّة المسلمين ودُعائهم وعلمائهم من الانخداع بها، فضلاً عن عامّتهم وجَهْلَتهم، ولو أردتُ ذكر أسماءهم لفعلت، ولكننا أمرنا أن نجنب مساجدنا النجس والنجاسة.

وفيما يلي ذكر بعض هذه المكاييد؛ لعلّنا نحذرُها ونقطع الطريق على أهلها:

- ما يقومُ به الباطنيون من نفاق وخداع لبعض من يجهل عقيدتهم وتاريخهم من أبناء المسلمين، وذلك بما يُظهرونه من حبّ خدّاع لأهل السنّة، أو أنّهم تخلّوا عن عقائدهم الباطلة من سبّ الصحابة، وقولهم بتحريف القرآن، وإدّعاء العصمة لأئمّتهم... إلخ، وهذا كلّهُ تقيّة ونفاق؛ ليحقّقوا من خلاله امتصاص العداء الذي يَكُنّه الموحدون لهم، ويكسبوا عواطف المسلمين، وهذا واضح مما تتبنّاه دولتهم اليوم من تقاربٍ مع أهل السنّة جماعاتٍ وأفراداً، وممّا يزيد الأمرُ فتنّةً وخطراً انخداع بعض أهل السنّة وبعض الحركات الجهادية والجماعات الإسلامية بما يُظهرونه من تأييد لبعض القضايا الإسلامية السُّنّية؛ كالقضية الجهادية في فلسطين، ووقوف أحزابهم ضد اليهود وأمريكا، ودخولهم في تحالفات معهم، أو قبول المعونات منهم، وفي هذا خطر على مستقبل الدعوة والجهاد، واحتواء المنافقين لها، وحرفهم لمسيرتها، وهذا فتنة بلا شك، ولكنّ كلّ هذه الأمور لا يصح أن تنطلي على المسلم الواعي بعقيدته، وذلك أنّهم لم يغيّروا من عقيدتهم شيئاً، وإنّما هذا هو

شأنهم في كل وقت يشعرون فيه بمنابذة النَّاس لهم، وهم ينتظرون اليوم الذي يتمكنون فيه ليعلنوا عقائدهم الباطنية، ولا يرقبون بعد ذلك في مؤمن لا يوافقهم إلا ولا ذمّة، فخذوا حذرکم أيّها المسلمون!

-ومن صور الخداع والتلبيس التي قد ينخدع بها بعض السُّدَج من النَّاس ويسقطون في فتنها: ما يرفعه المنافقون في أكثر بلدان المسلمين في وجه أهل الخير والإصلاح من أنَّهم دعاة شرٍّ، وإرهاب وفساد، وما تجلبه وسائل الإعلام المختلفة وتدندن به على وصفهم ورميهم بهذه الأوصاف الظالمة، حتى تأثرت بذلك بعض الأدمغة المخدوعة، فسقطت في فتنهم، وردّدت معهم هذا الظلم والخداع، ومن ثم تعرّض أهل الخير للأذى والنكال باسم المصلحة الشرعية، ومكافحة الإرهاب والفساد، وذلك بعد أن تهيأت أذهان المخدوعين من المسلمين لهذا الزيف والتلبيس.

-اهتمام الحكومات العلمانية ببعض المناسبات الإسلامية؛ كالأحتفال بمولد الرسول، وهجرته صلى الله عليه وسلم، أو ليلة النصف من شعبان، أو الإسراء والمعراج... إلى آخر هذه المناسبات، ومع ذلك يُخدع بهذا التلبيس كثير من دُهماء المسلمين، وتحسّن صورة أولئك المنافقين الذين يضلّلون الناس بهذا الخداع، ويُبدون في أعين المخدوعين أنَّهم يحبون الإسلام ويغارون عليه، وهم أبعد ما يكونون عن الإسلام وأهله، وهل يحبُّ الإسلام ويعتزُّ بالانتماء إليه من يرفض الحكم به والتحاكم إليه؟! وهل يمكن أن نتبع من يبدل شرع الله المطهر بأفكار تافهة وضعيفة وينشرها على أنها من الإسلام؟! لا والله! إنَّ مثل هذا يكذب في

ادعائه حبَّ دين الإسلام، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] فهل يعي هذا المخدوعون المضللون؟!

-ومما يدخل في هذه الصورة أيضًا من صور التلبيس: ما يقوم به بعض المنافقين المحادّين لشرع الله عز وجل من إقامة بعض المؤتمرات أو الندوات الإسلامية، ويدعون إليها بعض العلماء والدعاة، فيستجيب من يستجيب، ويرفض من يرفض، وكلُّ هذا من ذرِّ الرماد في العيون، وتخدير دعاة المسلمين بمثل هذه الصروح الخبيثة التي هي أشبه ما تكون بمسجد الضرار الذي بناه المنافقون في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأدَّعوا أنَّه للصلاة وإيواء المسافرين في الليلة الشاتية المطيرة، فأكذبهم الله عز وجل وفضح نيَّاتهم بقرآنٍ يتلى إلى قيام الساعة، نهى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم عن دخوله والقيام فيه، بل أمر بتحريقه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧، ١٠٨]

فهل آن الأوان أن نعي مثل هذه الحقائق عن الفتن والخداع، فلا نستجيب لمثل هذه الدعوات، ولا نقوم في مثل هذه المؤتمرات أبدًا؟ بلى؛ قد آن الأوان لأن تفضح مثل هذه اللافطات، ويحذر الناس من شرِّها والوقوع في فتنها، ويبيِّن لهم أنَّها ضربٌ من الخداع، وصورة من صور النفاق الماكر الخبيث.

-إظهارهم لفسادهم بمظهر الإصلاح وإرادة الخير بالأمة، كما قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

يقول أهل التفسير عن هذه الآية: إنهم لا يقفون عند حد الكذب والخداع، بل يضيفون إليهما السفه والادعاء: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لم يكتفوا بأن ينفوا عن أنفسهم الإفساد، بل تجاوزوه إلى التبجح والادعاء: ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

والذين يفسدون أشنع الفساد، ويقولون: إنهم مصلحون، كثيرون جدًا في كل زمان، يقولونها لأن الموازين مختلة في أيديهم، ومتى اختل ميزان الإخلاص والتجرد في النفس؛ اختلت سائر الموازين والقيم، والذين لا يُخلصون سريرتهم لله يتعذّر أن يشعروا بفساد أعمالهم؛ لأن ميزان الخير والشرّ والصالح والفساد في نفوسهم يتأرجح مع الأهواء الذاتية، ولا يثوب إلى قاعدة ربّانية.

-ومما يدخل في هذه الصورة من صور الخداع والتليس: ما يستخدمه منافقو زماننا من تحريف لنصوص الشريعة، وتأويلات باطلة لها، في تسويغ فسادهم ومواقفهم الجائرة، فهم مع جهلهم بأحوال الشريعة نراهم يخوضون فيها بلا علم إلى ما أشربوا من أهوائهم، فنراهم يسوّغون الترخّص بل التحلّل من الشريعة بقواعد التيسير، ورفع الحرج، وتغير الفتوى بتغيّر الحال والزمان... إلى آخر هذه القواعد التي هي حقّ في ذاتها، لكنهم خاضوا فيها بجهل وهوى، فاستخدموها في

غير محلّها، فهي حقٌّ أريد به باطل، ومع جهلهم بالشرعية وظهور القرائن التي تدلُّ على خبث طويتهم هناك من ينخدع بهذه الشبه والتحريفات الباطلة.

-ومن عجيب أمر القوم أنّهم يرفضون الحكم بما أنزل الله عز وجل والتحاكم إليه، ولا يذعنون له، ومع ذلك نراهم في أحيان قليلة يرجعون إلى بعض الأدلّة الشرعية ليمرّروا ويسوّغوا من خلال بعضها فسادهم أو مواقفهم الباطلة، فما حاجتهم إلى الشرع في هذه المرّة وهم كانوا يكفرون به من قبل؟! إنّه الهوى والخداع والتليس على الناس، قال تعالى في فضح هذا الصنف من النّاس: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٤٨ - ٥٠].

فينبغي لكلّ مسلم أن يحذر من شبه المنافقين وخداعهم، وأن يقول لهؤلاء الذين يسوّغون فسادهم بتحريف الأدلّة الشرعية: ادخلوا في السلم كافة، وحكموا في الناس شرع الله عز وجل، وارفضوا ما سواه، أمّا أن تُنحوا شرع الله عز وجل عن الحكم، حتّى إذا كان لكم هوى في تمرير فسادكم بشبهة دليل رجعتكم إليه؛ فهذا الذي قاله الله عز وجل عن أهله: ﴿أَفْتَوْمُنُونِ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

-الفتنة داخل الصفّ الإسلامي: وهذا شأنُ المنافقين في كلّ زمان، فعندما تخفق جهودهم في الوقوف في وجه أهل الخير والصّلاح، وعندما ينشط الدعاة ويظهر

أثرهم في الأمة؛ فإنَّ المنافقين يلجؤون إلى وسيلة مأكرة وفتنة شديدة؛ ألا وهي التظاهر بالحماس للدعوة، والدخول في أوساط الدعاة، مظهرين التَّنسُّك والغيرة على الدين، والحرص على العلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى يُجَدَّع بكلامهم المعسول بعض الطيِّبين من الدعاة، فتحصل الثقة بهم، حتى إذا تمكَّنوا من مراكز التوجيه والدعوة؛ بدؤوا فتنتهم الكبرى على الدعوة وأهلها، مع استمرارهم في إظهار الخير والحماس لهذا الدين، وتسويغ ما يقومون به من الممارسات بالحرص على مصلحة الدعوة وتميُّزها وصلابتها.

ومن أخطر صور الفتن التي تنشأ من هذا الصنيع ما يلي:

✽فتنة التفريق وإثارة العداوات بين دعاة الإسلام:

وهذه من أعظم فتن المنافقين داخل الصف الإسلامي، وفي أوساط الدعوة إلى الله عز وجل، وقد فضح الله عز وجل المنافقين الذين بنوا مسجد الضرار، وأظهر أهدافهم الخبيثة بقوله سبحانه: ﴿وَتَقْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة: ١٠٧] قال المفسِّرون لهذه الآية: لأنَّهم كانوا جميعاً يصلون في مسجد قباء، فبنوا مسجد الضرار ليصلي فيه بعضهم، فيؤدِّي ذلك إلى الخلاف وافتراق الكلمة.

وهذا الضرب من الفتن لا يحتاج إلى دليل، فالواقع المرُّ شاهد بذلك، ومع أنَّ للافتراق أسباباً كثيرةً -كالجهل والهوى... إلخ- إلَّا أنَّ أثر المنافقين الذين يدخلون في صفوف الدعاة لا يجوز إغفاله، ولا التهوين من شأنه، فرؤية الفرقة تحصل بين أهل طريقتين مختلفتين في الأصول أمر واضح ومعقول ومقبول، أما أن يفترق أهل

الطريقة الواحدة - طريقة أهل السنة والجماعة من سلف الأمة - فهذا أمر لا يُعقل ولا يُقبل، ولا يكون إلا ووراء يد خبيثة خفية تدعو إلى هذا الافتراق، فينبغي على الدعاة الحذر من هذه الأيدي، والتفتيش عنها، وفضحها، وتطهير الصف المسلم منها.

*فتنة التخذيل والتشكيك:

وهذه أيضًا من أعمال المنافقين المندسين في الصف المسلم، فهم يسعون إلى بث فتنة التخذيل، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك بدعاوى وشبه شرعية خادعة، مؤدّاها توهين عزائم الدعاة، وإضعاف همهم، وبثّ الخوف في النفوس من الباطل وأهله، وتهويل قوة الأعداء وخططهم بصورة تزرع اليأس في النفوس الضعيفة.

*فتنة الإيقاع بالدعوة والدعاة:

لا تقف مساعي المنافقين في إيصال الشر والأذى للدعوة وأهلها عند حدّ، فمن هذه المساعي الخبيثة التي يقومون بها داخل صفوف الدعاة بعد إظهار الحماس، وبعد كسب الثقة والطاعة والسمع لأقوالهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] وتحت ستار الغيرة على الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله عز وجل، فإنّهم يبدؤون في دفع بعض الدعاة إلى مواجهات مع الباطل وأهله، والزجّ بالدعوة في أعمال خطيرة تفتقر إلى المستند الشرعي من جهة، وتؤدّي بالدعوة وأهلها إلى الضمور والانكماش من جهة أخرى، هذا إن لم يُقَصَّ عليها قضاء مبرماً، وهذا هو ما يريده المنافقون المخادعون

الذين قال الله عز وجل عن أمثالهم: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضِعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

يقول الإمام البغوي رحمه الله تعالى عند تفسير هذه الآية: ﴿لَوْ خَرَجُوا﴾ يعني: المنافقين ﴿فِيكُمْ﴾ أي: معكم ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: فسادًا وشرًّا، ومعنى الفساد: إيقاعُ الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الأمر، ﴿وَلَا وُضِعُوا﴾ أي: أسرعوا ﴿خِلَالَكُمْ﴾ أي: وسطكم ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي: بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم بالنميمة، ونقل الحديث من بعض إلى بعض، وقيل: ﴿وَلَا وُضِعُوا خِلَالَكُمْ﴾ أي: أسرعوا فيما يخلُّ بكم، ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي: يطلبون لكم ما تفتنون به، يقولون: لقد جُمع لكم كذا وكذا، وإنَّكم مهزومون، وسيظهر عليكم عدوكم، ونحو ذلك.

وقال الكلبي: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ يعني: العيب والشر.

وقال الضحَّاك: ﴿الْفِتْنَةُ﴾: الشرك، ويقال: بَغَيْتُهُ الشرَّ والخير، أَبْغَيْتُهُ بَغَاءً؛ إذا التمسْتَهُ له؛ يعني: بَغَيْتَهُ له.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ قال مجاهد: معناه: وفيكم محبُّون لهم، يؤدُّون إليهم ما يسمعون منكم، وهم الجواسيس، وقال قتادة: معناه: وفيكم مطيعون لهم؛ أي: يسمعون كلامهم ويطيعونهم، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

* * *

الحج إلى بيت الله الحرام

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ يُبْلَغُهُ حَجَّ بَيْتِ رَبِّهِ، أَوْ يُحِبُّ عَلَيْهِ فِيهِ الزَّكَاةَ، فَلَمْ يَفْعَلْ؛ سَأَلَ الرَّجْعَةَ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؛ اتَّقِ اللَّهَ، إِنَّمَا يَسْأَلُ الرَّجْعَةَ الْكَفَّارُ، قَالَ: سَأْتُكَ عَلَيْكَ بِذَلِكَ قُرْآنًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ * وَأَنْفَقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ... ﴿إلى آخر السورة [المنافقون: ٩، ١٠]، قَالَ: فَمَا يُوجِبُ الزَّكَاةَ؟ قَالَ: إِذَا بَلَغَ الْمَالُ مِثْقَى ذَرَّةٍ مِنْ نِصْفِ دِرْهَمٍ فَصَاعِدًا، قَالَ: فَمَا يُوجِبُ الْحَجَّ؟ قَالَ: الزَّادُ وَالْبَعِيرُ. رواه الترمذي.

سَيِّدُنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ هُنَا الزَّادَ وَالرَّاحِلَةَ، وَجَمْعًا بَيْنَ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ أَقُولُ: ١- إِذَا وَجَدَ الْعَبْدُ زَادَهُ، وَنَفَقَةَ سَفَرِهِ، وَنَفَقَةَ أَهْلِهِ عِنْدَ غِيَابِهِ، ٢- وَكَانَ الطَّرِيقَ إِلَى الْحَجِّ آمِنًا، ٣- وَكَانَ مُسْتَطِيعًا لَمْ يَمْنَعِهِ مَرَضٌ مَزْمَنٌ، ٤- وَوَفَّى دَيْنَهُ، أَوْ اسْتَأْذَنَ صَاحِبَ الدِّينِ؛ وَجِبَ الْحَجُّ فِي حَقِّهِ عَلَى الْفَوْرِ عِنْدَ الْمَذَاهِبِ غَيْرِ الشَّافِعِيَّةِ، وَوَجِبَ عَلَى التَّرَاخِي عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ إِلَّا لِمَنْ خَشِيَ مُسْتَقْبَلًا مَرَضًا مَزْمَنًا؛ فَإِنَّهُ يَحْرُمُ التَّأْخِيرُ فِي حَقِّهِ، فَإِنْ أَخْرَهُ وَمَاتَ؛ تَبَيَّنَ أَنََّّهُ مَاتَ عَاصِيًا، وَيُخْرَجُ مِنْ تَرْكِهِ حُجَّةٌ بَدَلَ بَلَا وَصِيَّةٍ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ، فَمَنْ أَيْنَ أَتَيْنَا بِهِذِهِ الْأَنْبَاءُ؟

فِي حَدِيثٍ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ مُوسِرٌ وَلَمْ يَحْجِ؛ فَلِيَمْتَ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا، وَإِنْ شَاءَ نَصْرَانِيًّا»، وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ مُوقِفًا عَلَى عَمْرِ وَعَلِيٍّ.

وفي رواية: «من لم تحبسه حاجة ظاهرة (كخدمة والديه)، أو مرض حابس (عجز أو إقعاد)، أو سلطان جائر (منعه)، ولم يحج؛ فليمت إن شاء يهوديًا، وإن شاء نصرانيًا».

ليس لأحد مهما بلغت مرتبته أن يمنع الناس من الحج، لا السعودية ولا غيرها، وليس لأحد أن يهدم الركن الخامس في الإسلام، فعلى المسلمين التوجه إلى البيت العتيق قبل أن يمنعوا نهائيًا من الحج، وقد بدت بوادره في أيامنا هذه، والنبي صَلَّى الله عليه وسلّم يقول: «استمتعوا بهذا البيت، فقد هُدم مرتين، ويرفع في الثالثة» أخرجه ابن خزيمة وابن حبان وصححه العراقي.

إن النبي صَلَّى الله عليه وسلّم صرح في أكثر من حديث أن الحج سيمنع، وأن الكعبة ستهدم، ففي حديث متفق عليه: «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة، يهدمها حجرًا حجرًا، يطرحونها في البحر، يجردونها من حليها وكسوتها».

ولا يهدم البيت الحرام إلا بعد أن يستحله أهله، ويرتكبوا فيه المحرمات، فإذا استحلوه يقول صَلَّى الله عليه وسلّم: «فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب»، وقد استحله جيش يزيد بن معاوية زمن الحجاج، وقذفوه بالحجارة والمنجنيق، وقتلوا عبد الله بن الزبير، واستحلّه القرامطة سنة ٣١٧هـ، فقتلوا من المسلمين في المطاف ثلاثين ألفًا، وخلعوا الحجر ونقلوه إلى بلادهم، ثم أعاده الله تعالى بقدرته بعد ٢٢ سنة، واستحله محمد بن عبد الوهاب أواخر القرن الثاني عشر وجماعته، فقتلوا في الطواف وما حوله مئة ألف مسلم؛ بحجة أنهم صوفية كفار عبّاد للقبور!!

وقد وردت الآيات والأحاديث تحذّر من ترك الحج والتهاون في أداء هذا الركن، فقال تعالى: ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي: بنكران هذه الفريضة وعدم الحج؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «تعجلوا الحج؛ فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له» رواه أبو داود وأحمد وابن ماجه، وفي رواية: «من أراد الحج فليتعجل، فإنه قد يمرض المريض، وتضل الراحلة، وتعرض الحاجة»، وتغلق السفارة، ويصير الحج تهمةً من التهم يعاقب عليها العبد.

وقد وردت الأحاديث الضعيفة أيضًا تأمر بالحج قبل فوات الأوان، وفي الحديث: «حجوا قبل ألا تحجوا، فوالذي خلق الجنة وبرأ النعمة؛ ليرفعن هذا البيت من بين أظهركم، حتّى لا يدري أحدكم أين مكانه بالأمس»، وعند البيهقي في «الشعب»: «حجوا قبل ألا تحجوا، فكأنى انظر إلى حبشي أفدع (بيده اعوجاج) بيده معول يهدمها حجرًا حجرًا».

وإليكم هذا المشهد الذي وصفه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نحن فيه اليوم من الحدود بين الدولة العربية والسعودية، وكيف أن السعودية ستمنع الحجاج من الحج، يقول فيه: «حجوا قبل ألا تحجوا، تعقد أعرابها على أذنان أوديتها (على مسالك الحدود)؛ فلا يصل إلى الحج أحد»، قولوا: صدق رسول الله.

* * *

سورة تبارك

«سُورَةُ تَبَارَكَ هِيَ الْمَانِعَةُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» حديث صحيح.

«إِنَّ سُورَةَ فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ؛ وَهِيَ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾» حديث حسن لغيره، رواه النسائي وأحمد وأبو داود (٥٧ / ٢)، والترمذي (٥ / ١٦٤٠)، وابن ماجه (٢ / ١٢٤٤).

«إِنَّ سُورَةَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَا هِيَ إِلَّا ثَلَاثُونَ آيَةً، شَفَعَتْ لِرَجُلٍ، فَأُخْرِجَتْهُ مِنَ النَّارِ، وَأُدْخِلَتْهُ الْجَنَّةَ» حديث حسن.

«سُورَةُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هِيَ إِلَّا ثَلَاثُونَ آيَةً خَاصَمَتْ عَنْ صَاحِبِهَا حَتَّى أَدْخَلَتْهُ الْجَنَّةَ، وَهِيَ تَبَارَكَ» حديث حسن.

«مَنْ قَرَأَ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ كُلَّ لَيْلَةٍ؛ مَنَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»، وكنا في عهد رسول الله نسميها المانعة، وإنها في كتاب الله عز وجل.

«سورة من قرأ بها في ليلة فقد أكثر وطاب» حديث حسن.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ: ﴿أَلَمْ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، و﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾» حديث صحيح.

«وَدِدْتُ أَنَّهُمَا فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ» (تَبَارَكَ) حديث ضعيف.

* * *

الملائكة

قال الله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

الملائكة لها وظائف؛ منها لمحاسبة القبر، ومنها لكتابة الأعمال، ومنها الحفظة، ومنها النصر للمسلم، ومنهم الخافون حول العرش، وهناك صنف من الملائكة هم حملة عرش الرحمن، وقد جاء ذكر حملة العرش في موضعين من كتاب الله تعالى، هذا الموضع من سورة الحاقة: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، والموضع الثاني في سورة غافر: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، فالآيتان تدلان على أن لعرش الله حملة يحملونه اليوم ويوم القيامة، ملائكة يحملون العرش، وملائكة يطوفون حوله، ومعهم الكروبيون.

والسنة الشريفة مليئة بالأحاديث والآثار الدالة على ذلك، فحبيبك النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ: أَنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ»، وكذا الحديث الوارد عن الملائكة على صورة أوعال ما بين ظفرهم إلى ركبهم مسيرة ما بين سماء وسماء، ثم فوقهم عرش الرحمن، هذا الحديث عند الحاكم، وهو صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي وغيره من مسندي الحديث.

والعرش: جسم نوراني عظيم، خلقه الله تعالى فوق العالم، تحمله الملائكة بقدرة الله تعالى، وهل هم ثمانية أملاك، أم ثمانية أصناف، أم ثمانية صفوف؟ وهل هم اليوم ثمانية أم أقل؟ المعتمد أنهم اليوم أربعة ملائكة، يزيدهم الله تعالى يوم القيامة إلى ثمانية؛ هيبةً لملك الملوك جلَّ جلاله، يسبحون الله تعالى بصوت حزين رخم، ويستغفرون للذين آمنوا.

والعرش أعظم من الكرسي، هنالك السماوات السبع، ثم فوقهن الكرسي، وفوقه العرش، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] وليس معنى ﴿استوى﴾ أنّه جالسٌ على العرش، تعالى سبحانه، بل استوى على الوجه الذي أراد، وبالمعنى الذي شاء، استواءً منزهاً عن الحلول والانتقال، فلا العرش يحمله، ولا الكرسي يسنده، بل العرش وحملته والكرسي وعظمته محمولة بلطف قدرته، مقهورة بجلال قبضته، كان الله ولا شيء غيره، لم يتغير عمّا كان، علم ما كان، وما يكون، وما لا يكون لو كان كيف كان يكون؟ فالاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فسبحوا من لا يغفل ولا ينام، سبحانه!.

* * *

سياسة سيدنا رسول الله

أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَالًا، فَأَعْطَى قَوْمًا وَمَنَعَ آخَرِينَ، فَبَلَغَهُ أَنَّهُمْ عَتَبُوا، فَقَالَ: «إِنِّي أُعْطِيَ الرَّجُلَ، وَأَدْعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدْعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِيَ، أُعْطِيَ أَقْوَامًا لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ، وَأَكِلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغِنَى وَالْحَيَرِ، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ»، فَقَالَ عَمْرُو: مَا أَحَبُّ أَنَّ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُمْرَ النَّعَمِ.

تلك سياسة حكيمة من سيدنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا الموقف له نظائر في السيرة النبوية؛ كيوم حنين، لكم أن تتخللوا غنائم حنين! لقد بلغت ستة آلاف من النساء والأبناء والأموال، وأربعة آلاف أوقية فضة، ومن الإبل ٢٤ ألفًا، ومن الشياه أكثر من أربعين ألف شاة، حبسها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجعرانة، فأعطى المؤلفة قلوبهم، وأعطى أبا سفيان أربعين أوقية ومئة من الإبل، وأعطى ولده مثله، وأعطى حكيم بن حزام مئة ثم مئة، ثم أعطى المجاهدين، فأعطى لكل رجلٍ أربعًا من الإبل وأربعين شاة، وكان المقصد أن يبذر حُبَّ الإسلام في المسلمين الجدد؛ تأليفًا لقلوبهم، حتَّى إِنَّهُ أعطى رجلًا غنمًا بين جبلين، فذهب إلى قومه فقال: أي قوم؛ أسلموا، فوالله إنَّ محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر!

لكن شباب الأنصار تأثروا من هذا العطاء، فقالوا: أعطى النبي قريشًا والعرب ولم يعط الأنصار شيئًا!! وكثر الكلام بين الصحب الكرمين، حتَّى قال بعضهم: لقي رسول الله قومه! [أي: ونسينا] فدخل سيدنا سعد بن عبادة يخبر رسول الله

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَرَهُ بِجَمْعِهِمْ، فَجَمَعَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؛ مَا قَالَهُ بَلَّغْتَنِي عَنْكُمْ وَجِدْتُمُوهَا عَلَيْكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ؟! (لماذا حزنتم؟) أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ؟ وَعَالَةً فَقَرَأَ فَأَغْنَاكُمُ اللهُ؟ وَأَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟؟»، قَالُوا: بَلَى، اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنٌ وَأَفْضَلُ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا تُحْيِيُونَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟» قَالُوا: بِمِ نُحْيِي وَبِاللهِ وَرَسُولِهِ الْمُنُّ وَالْفَضْلُ؟ قَالَ: «أَمَّا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ، فَلَصَدَقْتُمْ وَصَدَّقْتُمْ: أَتَيْنَا مُكَذِّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمُخَذُّوًّا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَأَوْيَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَاسِينَاكَ، أَوْجَدْتُمْ -يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ- فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفَتْ بِهَا قَوْمًا لِيُسَلِّمُوا وَتَرَكْتُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟! أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللهِ إِلَى رِحَالِكُمْ؟! فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَوْ لَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا؛ لَسَلَكَتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اَللّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ» فَبَكَى الْقَوْمُ وَاحْضَلَّتْ لِحَاهُمُ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللهِ، رَضِينَا بِرَسُولِ اللهِ.

لذلك يا معشر المسلمين؛ ليس لكم بديل عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
يا هذه الدنيا أصيخي واشهدي أَنَا بغير رسول الله لا نقتدي
ونزل القرآن بمديح الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

* * *

عبادة الأصنام

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: صَارَتِ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدَهُ، أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوعٌ كَانَتْ هُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَعُوثٌ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ عِنْدَ سَبَأٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لَهُمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحَمِيرٍ لَالٍ ذِي الْكَالَاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ: أَنْ أَنْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا، وَسَمُّوْهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِخَ الْعِلْمُ؛ عُبِدَتْ» رواه البخاريُّ، نسأل الله تعالى حسن الرواية والسلامة والختم، آمين.

انتهى زمن مشركي مكة في عبادة الأصنام، وتم الفتح المبين لسيّدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحطَّم الأصنام، وظنَّنا أنَّنا قد عرفنا الشرك الصريح، فلا يمكن أن نقع فيه، ولكنَّا وقفنا بسذاجة في الشرك الخفي، أتعرفون ما الشرك الخفي؟ هو كلُّ من يؤمن بفكرة ليست في كتاب الله تعالى، ولا سنَّة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويرفض ما سواها، فهذا مشرك بالله تعالى ولو كان يردد بأعلى صوته بالشهادتين.

مشركو مكة كانوا مؤمنين بالله تعالى خالقًا، إلَّا أنهم أصرُّوا على إدخال أمر في عقيدتهم؛ وهو شفاعة الأصنام لتقرَّبهم إلى الله زلفى، فعبدوها في النهاية، ومَرَّت قرون عديدة، وتحرر الناس من عبادة الأصنام، ووصلنا إلى القرن الحادي والعشرين، وهو عصر التقدم، فتخلصنا من عبادة الأصنام الحسية بعد أن هدمها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكنَّا شرَّعنا اليوم عبادة أصنام من نوع آخر، لقد

شرّعنا تشريعاتٍ وحدودًا وأصنامًا ليست من الحجر! فالיום يعبد الناس أصنامَ الفكرة، وأصنام الشهوة، وأصنامًا بشريةً، اليوم في تونس تقرر إعطاء الأنثى مثل الذكر في الميراث، وهذه مخالفةٌ صريحةٌ للقرآن، فهذا صنم، واليوم تقرر في تونس أيضًا تحريم تعدد الزوجات، وهذه قوانين مخالفةٌ للشريعة، فهذه أصنام، والطامة الكبرى أن جميع أفراد المجتمع التونسي يعبدون صنم تلك الفكرة، حتّى لم نسمع عن شيوخهم أنّهم تصدّوا لهذه الأصنام، ولا أنهم قاموا بهدمها.

صنم الفكرة من أشدّ أنواع الشرك بالله تعالى، اليوم في العالم يعبدون صنم فكرة الإلحاد ويدافعون عنها، روسية كلّها اليوم عابدة لصنم فكرة الإلحاد التي أتى بها حقير الإلحاد ماركس، فقال: لا إله، والكون مادة، عياذًا بالله تعالى!

والفلاسفة عندهم صنم العلة، نفّوا وجود الله، وقالوا: هذا الكون مخلوق من علة، وعبّاد الدينار والدرهم شرّعوا صنم عبادة الدنيا، فصار يقاتل لأجلها، ويقطع رحمه لأجلها، ويغشّ لأجلها، ويأكل حقّ إخوته لأجلها، إنّ صنم الدنيا أعظم سحرًا من هاروت وماروت، فهاروت وماروت يفرقان بين المرء وزوجه، وصنم الدنيا يفرق بين العبد وربّه!!

انظروا إلى الأصنام حولكم، وانتبهوا واحذروا منها، هناك صنم (اليوتيوب) و(الفيسبوك) وغيرها من الأجهزة التي نظل لها عاكفين وقتًا طويلاً، ونجد التكاليف الشرعية تناديه ولا يرد عليها؛ لأنّه عاكف على هذا الصنم، ذهبت الأصنام الحجرية، فظهر ألف صنم بدلها!!

اليوم من الناس من يعبد صنمًا من البشر، أصنامًا بشرية قدّسناها وربطنا مستقبلنا بمستقبلها، ونسينا أنّهم بشر مثلنا، لا يملكون ضرًا ولا نفعًا، ففي العهد الجاهلي كانت الأصنام تصنع باليد من التمر، واليوم تصنع وتعبد بالأفكار، والعقول، والأشخاص، إذن صنم البشر ليس حديثًا كما رأيتم، فهو من زمن سيّدنا نوح وزمن فرعون، فلقد عبدوا فرعون من دون الله تعالى، قال لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، واستمرت عبادة الأصنام البشرية بعده، مثل: هتلر وموسوليني وستالين، فانقلبت الأصنام من طينيّة إلى بشريّة، واليوم هناك أصنام دولية؛ مثل: صنم أمريكا، وصنم روسية، وصنم أوروبا، ربطنا مستقبلنا بمستقبلهم، واستنصرنا بهم، وتركنا الاستنصار بالله تعالى، فماذا كانت النتيجة؟ بالأمس القريب سقط صنم دولة العراق، وداسته الأقدام، وسقط بعده صنم دولة تونس، ودولة ليبيا؛ كما سقط صنم فرعون بالماء، وصنم النمرود ببعوضة، وسقط صنم وصنم وصنم... ستزول دولة الأصنام بأسرع مما تتصورون وسيبقى الحقُّ، لا تشغلوا بالكم كيف سينهي الله تعالى الباطل؟ ولكن اشغلوا بالكم كيف تدافعون عن الحق؟ وكيف تكونون من أهله ورعاته وجنده؟ وتذكروا دائماً: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

* * *

أنواع الجنّ

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشُّهُبُ، فرجعت الشياطين، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشُّهُبُ، قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاريها، فانظروا ما هذا الذي حدث؟ فانطلقوا ينظرون، فالذين توجهوا نحو تهامة سمعوا قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي الفجر بأصحابه بنخلة، فتسمّعوا له فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء!! فرجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا؛ ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢]، وأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١]، وإنما أُوْحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ. رواه البخاري والترمذي، وزاد: لما رأى الجن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يصلون بصلاته، فيسجدون بسجوده؛ فعجبوا من طواعية أصحابه له، وقالوا لقومهم: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩] نسأل الله كمال الطاعة آمين.

ذلك عالم الشياطين، والنفاريت، والأشباح، والجن، أو العالم السفلي للأبالسة والشياطين، أو عالم إبليس اللعين ونسله وأتباعه، في يوم من الأيام كان إبليس مؤمنًا، حتى خلق الله سيدنا آدم أبا البشر، فرفض إبليس أن يسجد لسيدنا آدم

بحسب النص القرآني الصريح، ومن هنا كانت البداية للعالم السفلي، فهبط إبليس
مرجوماً ملعوناً من الله تعالى جراء فعلته الشنيعة، وتوعد بني آدم بالنص القرآني:
﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]،
﴿فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] تعدياً على بني آدم، وتعدياً على الأوامر
الإلهية، وبدأ برسم المخططات التي سيوقع بها ابن آدم في الخطيئة، ووزع الوظائف
على أبنائه؛ فضرب للوسوسة في الصلاة، والولهان للوسوسة في الوضوء، ومنهم
من يتشبه بالحيوانات.

الجن من عالم التكوين، أخذ الحق قبضة من النار وقال: كوني جنّاً، فكانت،
وهي مخلوقات نارية، والمسلمون منهم يُسمّون جنّاً، والكفار منهم يُطلق عليهم
اسمُ الشياطين.

لكن كيف تفرق بين الجنّي المسلم العلوي وبين الجنّي الكافر السفلي؟ الجنّي
المسلم لا يأمر إلا بخير، النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «ما منكم من أحد إلا
وكل به قرينه من الجن»، قالوا: حتّى أنت؟! قال: «حتّى أنا، إلا أنّ الله مكّنني منه،
فأسلم»، أمّا الجنّي الكافر؛ فيأمر بالشر، فينام في فراشك؛ لذا أمرت بنفضه قبل
النوم عليه، ويلبس ثيابك؛ لذا أمرت ألا تعلقها، بل تطويها، وتُسمّي الله عليها،
ويأكل من طعامك؛ لذا أمرت بالتسمية قبل الطعام، وإن أحبّ الأمانة إليه الحَمَام؛
لأنّه تكشف فيه العورات، فاستر عورتك، وأفضل الأطعمة له الساخنة؛ لذا برّد
طعامك، وإنّه يأكل طعامه بإصبع وإصبعين، فكل بثلاثة، وأكثر شيء يغیظه

السجود والركوع، فأطيلوا بهما، وأسوأ نومة له القيلولة، فقليلوا فإنَّ الشياطين لا تقيل، وأكثر ما يقطع أمله ويعذِّبه الاستغفار والذكر، وسلام المسلم على المسلم، وأثقل شيء عليه الصدقة؛ فتصدقوا، وأحب النوم إليه قُبيل الفجر، فقم قبل الفجر وناج ربَّك بالليل؛ لذلك كونوا من الجنِّ على حذر.

والذي رحمه الله تعالى في أوَّل مشيخته كانت تأتيه كوكبةٌ ظنهم من الملائكة، فكلَّمَا وضع جنبه على الفراش، وبدأ بالذكر المسنون؛ ذكرت معه، وكأنَّه في حضرة ذكر، فإذا قال: بسم الله الرحمن الرحيم؛ كرَّروا: بسم الله الرحمن الرحيم، وإذا قال: باسمك ربِّي وضعت جنبي وبك أرفعه؛ كرَّروها وراءه، وإذا سبح يسبحون، وإذا حمد يحمدون، وإذا كبر يكبرون، وبقي على هذه الحالة أيامًا، حتَّى التقى بشيخه قطب الشام: الشيخ عبد الرزَّاق غلاً الحليب، شيخ مشايخ الشام، فأخبره، فقال: هؤلاء جنٌّ وليسوا ملائكة، الآن يوافقونك الذكر وبعدها تطمئن إليهم، ثمَّ بعد حين سيأمرونك فتطيعهم، قال: وماذا أفعل؟ قال: اقرأ عليهم آية الكرسي... وفي الليل جاؤوه، فبدأ بآية الكرسي، وكلَّمَا قرأ آية قرؤوها، فلمَّا قرأ: ﴿وَلَا يُؤْذِهِ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥] انطفؤوا ولم يعودوا، فأنت دواؤك مع الجن والتابعة آية الكرسي؛ أن تقرأها بعد كلِّ صلاة، وقبل النوم، وعند خروجك من البيت...، وذلك دواء مجرَّب.



سورة المزمل

أول فائدة نستفيدها من سورة المزمل: تعظيم سيّدنا النبي صلى الله عليه وسلّم إذ ناداه بصفته، ولم يناده باسمه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ﴾ [المزمل: ١]؛ أي: يا أيها المتغطّي بثيابه، الله جلّ في علاه يعلمنا الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم؛ لأنّ هناك بعض المذيعين عندما يخاطبون الرؤساء والوزراء ينادونهم: يا سيادة فلان...، وعندما يأتون على ذكر سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلّم؛ يقولون: يا محمّد!! من جهلهم وقلة أدبهم، الله جلّ في علاه نادى نبيه بالتعظيم: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ﴾ [المزمل: ١]، وهذا اللفظ فيه تعظيمان: ﴿يَا أَيُّهَا﴾ ومناداته بصفته، فالله سبحانه نادى كلّ نبيّ باسمه المفرد: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥]، ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]، ﴿يَا آدَمُ﴾ [البقرة: ٣٣]، إلا سيّدنا محمّدًا ناداه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤]، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١] ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ﴾.

والفائدة الثانية: في كلمة: ﴿الْمَزْمُلُ﴾ * قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١، ٢]، وفيها تنبيه لكلّ راقِدٍ ليله أن يقوم لمناجاة ربّه، قيام الليل يقول عنه حبيبك: «إنّه شرف المؤمن» رواه الحاكم والبيهقي في «الشعب» وهو حديث حسن، والله نادى حبيبه: ﴿قُمْ اللَّيْلَ﴾ بفعل أمر؛ ولهذا كان قيام الليل واجبًا على رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ثم نسخ بآخر هذه السورة، ولعظمة قيام الليل عند الله تعالى؛ بدأ السورة بقيام الليل، وختمها بقيام الليل؛ تعظيمًا شأنه؛ لأنّه يثقل على النفس، كما

قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]، لذا قال حبيبك في حديث رواه مُسلم: «أفضل الصلاة بعد المكتوبة الصلاة في جوف الليل».

الفائدة الثالثة: حبُّ نبينا الأعظم للسيدة خديجة، لما جاء خائفًا من رؤية الوحي لأوّل مرّة قائلاً: «زملوني»، فضمته إلى صدرها، وطمأنته بكلماتها: (كلا، والله لا يخزيك الله أبدًا، إنَّك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الدهر...) هذا الموقف وغيره جعل لها مكانة في قلب سيّدنا النبي صلّى الله عليه وسلّم، ومحبة كبيرة لم ينسَ فضلها، وقلّمَا خرج من البيت إلّا وذكرها، وأثنى عليها أحسن الثناء، ومرة غارت السيدة عائشة، فقالت: ما أكثر ما تذكر حمراء الشّدقين! هل كانت إلّا عجوزًا قد أبدلك الله خيرًا منها؟! فقال: «لا والله؛ ما أبدلني الله خيرًا منها، آمَنْتُ بِإِذْ كَفَرْتُ بِالنَّاسِ، وَصَدَّقْتَنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَأَسْتَنِي بِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ»، فقالت في نفسها: لا أذكرها بسيئة أبدًا! رواه الترمذي وأحمد وغيرهما.

الفائدة الرابعة: في السورة: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]؛ أي: ترسل فيه، ولا تعجل به، اقرأه على بينة، وعلى تودة، وعلى مهل، وبالبيان، وتدبر معانيه، إنّ قراءة آية بتدبر وفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وفهم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان، قال مجاهد: (أحب الناس في القراءة إلى الله أعقلهم عنه)، تدبر لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرك بالإقبال عليه؛ لذلك كان صلّى الله عليه وسلّم يمدّ صوته بالقرآن مدًّا.

الفائدة الخامسة: فضيلة الذكر: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتَلًا﴾ [المزمل: ٨]؛ أي: انقطع إلى الله تعالى انقطاعك لحوائجك وعبادتك دون سائر الأشياء، ويقال للعابد المنقطع عن الدنيا: قد تبتَّل، فأخلص له العبادة إخلاصًا.

الفائدة السادسة: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠] أمر رسوله بالصبر على كلام الناس، والهجر الجميل؛ أي: ترك مخالطة الناس دون أذى، احفظوا القواعد: الهجر الجميل: هو الهجر الذي لا أذية معه.

الفائدة السابعة: إمهال الطغاة والمكذبين، وشديد عقاب الله لهم بعد ذلك: ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١]، من سَنَ الله في خلقه أن يمهل العاصي المتكبر، ولا يأخذه بمعصيته مباشرة؛ لعله يتوب، فقوم نوح أمهلهم الله ألف سنة إلا خمسين، ثم أخذهم بالطوفان؛ لذا قالوا: إِنَّ الله يمهل ولا يمهمل، هذه المقولة مأخوذة من آية وحديث: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الله غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، واسمع إلى حبيبك حين يقول في الحديث المتفق عليه: «إِنَّ الله لِيُمْلِي للظالم، حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْ»، فلا تعجل على الطغاة والمتجبرين، فَإِنَّ الله إِذَا أَخَذَهُمْ؛ أَخَذَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ، ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]، ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤]؛ أي: أيامهم معدودات مهما طالَت، ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهَلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧].

* * *

أَوَّلُ وَآخِرُ آيَةِ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

عَنْ يَحْيَى قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ أَوَّلُ؟ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ قُلْتُ: أُنَبِّئُ أَنَّهُ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ فَقَالَ: لَا أَخْبِرُكَ إِلَّا بِمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جَاوَزْتُ فِي حِرَاءٍ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جَوَارِي هَبَطْتُ، فَاسْتَبَطَنْتُ الْوَادِيَّ، فَتَوَدَّيْتُ، فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى عَرْشٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي، وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، ففعلوا وَأُنْزِلَ عَلَيَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣]» رواه الشيخان.

لا شكَّ أنَّ معرفة تاريخ نزول السور والآيات لها فائدتها العظيمة في التشريع، من أهمها: ١- معرفة الناسخ والمنسوخ: حينما يكون هناك نصان مختلفان في الحكم، ولا يمكن التوفيق بينهما بمثل التقييد والتخصيص؛ مثلاً: عدَّة المرأة كانت سنة كاملة، ثم نسخت إلى أربعة أشهر وعشرة أيام، فدلَّ أنَّ الأوَّل منسوخ، والثاني ناسخ له، وهذا يُعلم من تاريخ التشريع، ٢- معرفة تدرج التشريع، ٣- وبيان اهتمام المسلمين بالقرآن، ٤- والبحث عن تواريخ نزول السور والآيات.

وأصح ما قيل في أوَّل ما نزل من القرآن: أَنَّهُ صدر سورة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] في غار حراء؛ كما رواه البخاريُّ ومسلم عن السيِّدة عائشة في حديث: «أول ما بدئ به الرسول من الوحي...».

وقيل: إن أول ما نزل إطلاقاً هذه السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١] وذلك لحديث متفق عليه أيضاً عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، ولكن رُدَّ عليه بأنَّ ذلك أوَّل ما نزل بعد فترة الوحي؛ للنص عليه في رواية أخرى التي جاء فيها: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعدًا على كرسي بين السماء والأرض، فرجعت إلى بيتي، وقلت: زملوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾».

وقيل: إنَّ أوَّل ما نزل هو سورة الفاتحة، بناءً على حديث رواه البيهقي، ورُدَّ بأنه حديث مرسل سقط من الصحابي، فلا يقوى على معارضته حديث السيِّدة عائشة السابق، بل قيل: إنَّ سورة الفاتحة هي أوَّل ما نزل من السور الكاملة.

وقيل: إنَّ أوَّل ما نزل هو البسملة: (بسم الله الرحمن الرحيم) بناءً على حديث أخرجه الواحدي عن عكرمة والحسن، ورُدَّ بأنه حديث مرسل كسابقه.

فهذه أربعة أقوال أصحُّها وأقواها الأوَّل.



أنواع النفس

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم قال: «مَنْ قرَأ مِنْكُمْ بِالتَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ، فَانْتَهَى إِلَى آخِرِهَا؛ فَلْيَقُلْ: بلى وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ، وَمَنْ قرَأ: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، فَانْتَهَى إِلَى آخِرِهَا؛ فَلْيَقُلْ: بلى، وَمَنْ قرَأ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾، فَبَلَغَ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؛ فَلْيَقُلْ: آمَنَّا بِاللَّهِ» رواه أبو داود في (الركوع والسجود)، والترمذي.

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿[القيامة: ١، ٢] أقسم الله تعالى بالنفس المؤمنة التقية التي تلوم صاحبها على ترك الطاعات وفعل الموبقات، ﴿لَا﴾ هذه زائدة فائدتها تأكيد القسم؛ أي: أقسمُ بالنفس اللوامة قسمًا مؤكدًا.

و(النفس) في القرآن: هي الضمير الحي اليقظ، والنفس اللوامة: واقية للمسلم من الانحراف والمعاصي، هي درجة وسطى بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة بالسوء، هي نفسٌ مضطربة لا تثبت على حال، وتقرّف المعاصي، ثم تندم وتلوم نفسها، فتتعثّر ثم تصحو، إنها مرحلة من مراحل الإيمان عند الإنسان.

علماء التصوف يقولون: في الإنسان لطيفة واحدة؛ أي: ملكة واحدة، بحسب متعلقاتها: تسمّى نفسًا إن تعلّقت بالشهوات، وتسمى روحًا إن تعلّقت بالملاّ الأعلى، وإن تعلّقت بالروحانيات تسمّى قلبًا، وإن تعلّقت بالمعارف تسمّى عقلاً، والنفس بطبيعتها أمارّة بالسوء كما قال سيدنا يوسف: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]؛ أي: تأمر وتأمّر بالسوء، وهي نفس مذمومة، تأبى أن تطيع

صاحبها، وهي مستعصية عليه كالحصان غير المروض، يلقي بصاحبه عن ظهره، ويأبى أن يركبه على ظهره مرات ومرات، والفارس الحقيقي لا يئس عن محاولة ترويضه، ومرة وراء مرة يتروض الحصان، حتى يصبح مطوعاً للفارس، يجيبه بكلمة واحدة، فابذل جهدك أن تنقل نفسك من الأمانة بالسوء إلى اللوامة، ومن اللوامة إلى المطمئنة الثابتة الساكنة لأمر الله تعالى؛ لتسري تلك الطمأنينة في نفسك وقلبك وقواك؛ بسبب كثرة الذكر والطاعة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وأما النفس المطمئنة فهي التي بلغت مرتبة الرؤية؛ أي: ترى الحق حقاً والباطل باطلاً، وتنتقل بصاحبها من التلويح إلى التمكين: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ...﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]، وحتى تصل إلى النفس الملهمه للخير والعلم والأخلاق؛ بين لها ما يجب أن تأتيه أو تذر من خير أو شر، فألهمها الله تعالى فجورها وتقواها؛ أي: علّمها الطاعة والمعصية، هذا حسن وهذا قبيح، ومكّن صاحبها من اختيار ما يشاء، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]؛ أي: من الفجور، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ١٠]؛ أي: بالفجور، فهي بين حسنة وسيئة، إن خالطت الصالحين نجت، وإن خالطت الفاسقين خسرت.

وكذلك يبقى العبد مع مجاهداته لها حتى تنتقل نفسه إلى الراضية عن الله تعالى التي تسلّم له أمره، وترضى منه بالقليل من الرزق، ولا تسخط على قدر الله تعالى، وهذا غاية الشرف!! فعندئذ يستقر فيها النور، وتأخذ تترقى في شعب الإيمان،

وتعمل على إرضاء الله تعالى حتَّى يرضى عنها، ويقول لها: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٨]، النفس المرضية يبدو فيها أثر رضاه، وهي منبع الكرامة والإخلاص والذكر، تنتقل من عالم المحبِّ إلى عالم المحبوب، وتتوارد عليها لطائف الله تعالى، محبةً عشق يتوق صاحبها، فيتذوق أنوار التوحيد، وتشرق عليه الفتوحات الربانية، أرضاها الله تعالى بعد أن سعت في رضاه، حتَّى تصير لها الكمالات طبعاً وسجيةً، وما تزال ترتقي في الكمالات حتَّى تصبح كاملة، فلا يصير مبتغها إلا الله، تبقى بالله، وتسير بالله، وإلى الله، ليس لها من مأوى سواه، تستقي علومها من الله تعالى، فهذه كانت حقيقتها، واستقرت فيها أنوار القرب من الله تعالى، فعرفت حق المعرفة، فمغناها التناهي في الفضائل وخصال الخير، ولا شكَّ أنَّ أكمل نوع للإنسان هم الأنبياء والصديقون والأولياء، الشيخ محمَّد الهاشمي كان يردّد:

إنَّ النفوس	سبعة	منظمة	أمانة	لؤامة	وملهمة
وذاات	الاطمئنان	بالله	وله	راضية	مرضية
				وكاملة	

* * *

مسير أم خير؟

قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾
[الإنسان: ٣٠].

هناك من يفهم الآية فهمًا سيئًا، فيؤمن بالجبر، والله سبحانه منزّه عن أن يجبر أحدًا من عباده على معصية، والمعنى الدقيق لها: أن الله تعالى ربط بين مشيئة العبد ومشيئة الله ربطًا فضلًا، وليس ربطًا جبرًا، فكيف ذلك؟ كأنه يقول: أنتم يا عبادي تسعدون بهذا الاختيار، لكن هذا الاختيار أنا الذي خلّفته لكم، وأنا الذي منحتكم إياه، فإن سعدتم بهذا الاختيار فلائي منحتكم إياه؛ يعني: ما كان لكم أن تنعموا به وتسعدوا لولا أنني شئت لكم أن تشاؤوا، ما كان لكم أن تشاؤوا الخير فتكون لكم هذه المشيئة من قبلكم سبب سعادتكم لولا أنني شئت لكم أن تشاؤوا، انتبهوا واعتقدوا: لولا أن الله شاء لكم أن تشاؤوا؛ لما سعدتم، ولولا أن الله شاء لكم أن تشاؤوا؛ لما كنتم في الجنة، ولما كنتم في أعلى عليين، هذا ربط فضل، وليس ربط جبر، ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩]، لكن ما كان لكم أن تشاؤوا الخير لولا أن الله شاء لكم أن تشاؤوا، هذا هو المعنى.

لا تعتقدوا أن الإنسان مجبور على أعماله، تلك عقيدة الجبر الباطلة؛ لأن الله أثبت في كتابه مشيئته للعبد، فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ [التكوير: ٢٧، ٢٨]، لكن علينا أن نعتقد أن مشيئتنا منطقية تحت مشيئة الله تعالى ومخلوقة له؛ لذا قال لنا: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

[التكوير: ٢٩]، فالله تعالى يقول لك: عبدي؛ هذا الاختيار الذي عندك أنا خلقتك لك، وأنا منحتك إياه، فما كان لك أن تشاء إلا أنني شئت لك أن تشاء، هذا ربط فضل لا ربط جبر، ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

لذلك إياك أن ترتكب المعصية وتقول: هكذا أراد الله! لكي تتخلص من العقوبة أو ملام المعصية، هذه عقيدة الجبر، وإنما أنت الذي أمرت، وأنت خططت، وأنت نفذت، ثم تنسب معصيتك لله تعالى وتقول: مجبور!! عقيدة الجبر تقول: (إنَّ الإنسان ليس له إرادة ولا اختيار؛ كالريشة في مهب الرياح)!! وحاشا لله أن يجبر عباده على أعمالهم، ثم يحاسبهم عليها، ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟! [الأعراف: ٢٨]، إياك أن تعزو أخطاءك إلى القدر، فتظلم نفسك، وتكذب عليها.

أخي؛ إذا كنت مكلفًا مختارًا فأنت غير مجبر، أتاح الله لك حرية أن تريد أي شيء، وهذه المشيئة مخلوقة لله تعالى، ليس الإنسان بخالق لشيء من أفعاله، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، فما معنى الآية؟ معناها: إذا اتجهت إرادة الإنسان نحو الشكر والكفر، واتخذ الأسباب لتحقيق مراده؛ سهَّل الله له ما يريد، وسخَّر له الأسباب حتَّى تكون بين يديه، وتحقق له مراده، هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩]، ولا يعني إجبارًا على الطاعة ولا المعصية بحال، فالإنسان مهدي إلى سبل الضلالة والرشاد، فعلى أيِّها استقرت وجهته؛ وطأ الله له سبيل ما أراد.

اسمعوا هذه العقيدة من القرآن: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] لاحظتم: ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ إرادتك المستقلة لا تستطيع فعل شيء حتى تتدخل إرادة الله تعالى، ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]، ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا وَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يَزُوجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَّا وَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ عَقِيًّا﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

لذلك سلّم أمرك إلى الله تعالى، واعتقد أنّه ليس بالإمكان أبدع مما كان؛ لأنّ كلمة الله تعالى مقترنة بالخير المطلق في كلّ شيء، بل إنّ هناك من الأزواج من يتخذ عدّة احتياطات ووقايات منعاً للولد، ولكن يشاء الله تعالى أن تتسلل نطفة في غيابات الرحم إلى البويضة، فإذا بالزوجين يظلان مشدوهين أمام الطبيب وهو يبشرهما بمقدّم طفل جديد!! ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]، لإرادة الله تعالى هي الغالبة!

ويضرب لنا القرآن أمثلة لحالات مستعصية أو مستحيلة عند البشر، لكن الله تعالى أنفذها بإرادته: سيّدنا زكريا عليه السلام الذي لو عرض حالته على أيّ طبيب؛ لجزم بناءً على علمه المحدود أن لا أمل له فيما يبتغي من الولد، ولكن مشيئة الله فوق قدرات البشر وتوقعاتهم، ﴿قَالَ رَبِّ ائْنِي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]، فمشيئة الله قاهرة فوق البشر، واعلم بأنّ الأمر ليس كما تشاء، بل كما يشاء الله تعالى أحكم الحاكمين.

* * *

سورة المرسلات

عرضت هذه السورة أصنافاً من المكذبين، وجاءت آية ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥] عشر مرات كأنّها لفحة من نار تلفح بها وجوههم، هؤلاء المكذبون من الأمم السالفة الذين كذبوا رسلهم، فأتاهم العذاب ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٣]، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وكما أتى العذاب المتقدمين؛ فإنّ التاريخ سيعيد نفسه مع المكذبين الآخرين المعرضين عن أوامر الله ونواهيه، ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾؛ كما أصاب من قبلهم ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: الذين يحدون بنعم الله تعالى عليهم، وينكرونها، أو يوظفونها في معصية الله، ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ * وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿[هود: ٥٩، ٦٠].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: من المنافقين الذين يبيعون دينهم بديناهم ويداهنون على حساب الشريعة، ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: الذين يوظفون قوتهم في قهر العباد وإذلالهم، والعدوان عليهم، متحدّين آيات الله وآيات العذاب، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ

يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْحَزَنِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٥، ١٦﴾ [فصلت: ١٥، ١٦].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: الذين يوظفون ثروتهم وغناهم في ظلم العباد، والاعتداء على حقوقهم، وأكل أموالهم بالباطل، ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: الذين يسخرّون عقولهم وتفكيرهم في المكر والخديعة ونصرة الباطل، ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: أصحاب القرية التي كفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: الذين منعوا زكاة أموالهم، ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٩، ٢٠].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: الذين يأكلون المال الحرام، ويعتدون على شركائهم وأموالهم وإخوانهم، ﴿وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦١].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: من نساء وجب عليهنّ الحجاب، فخرجن سافرات يتحدّين أوامر الله ونواهيه، ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: الذين نبذوا الإسلام وراء ظهورهم، واتخذوا القرآن ظهرًا، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: الذين تستقبلهم الملائكة ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ﴾ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧، ٢٨].

سيقف كل هؤلاء يوم القيامة على أطراف جهنم بجحودهم وكفرانهم، ويقولون: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، فيقول الله لهم: ﴿بَلْ بَدَأْتُمْ مَا كَانُوا يَخْشَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، هناك ينادون: ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

* * *

سورة ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾

سورة ﴿عَمَّ﴾ من السور التي شَيَّبَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا هُوَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ؛ لِأَنَّهَا تَتَحَدَّثُ عَنْ أَهْوَالِ الْبَعْثِ، فَإِنَّ مَحْوَرِ السُّورَةِ يَدُورُ حَوْلَ إِثْبَاتِ عَقِيدَةِ الْبَعْثِ الَّتِي طَالَمَا أَنْكَرَهَا الْمُشْرِكُونَ فَقَالُوا: ﴿إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١٦، ١٧] يَبْعَثُ اللَّهُ ابْنَ آدَمَ مِنْ عَجَبِ الذَّنْبِ؛ أَي: آخِرَ ذَرَّةٍ فِي الْعَمُودِ الْفَقْرِيِّ، «مِنْهُ خُلِقَ وَمِنْهُ يَرْكَبُ» رَوَاهُ مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ»، يَأْتِي اللَّهُ بِجَسَدِهِ مِمَّا تَفَرَّقَ مِنْهُ فِي التُّرَابِ، وَمَا تَفَرَّقَ مِنْهُ فِي الْبَحَارِ، وَمَا ذَهَبَ مِنْهُ فِي بَطُونِ السَّبَاعِ، فَتَكْتَمِلُ الْأَجْسَادُ فِي الْقُبُورِ، وَفِي حَدِيثٍ مُتَّفَقٍ عَلَيْهِ: «تَنْبِتُ الْأَجْسَادُ فِي الْقُبُورِ كَمَا يَنْبِتُ الْبَقْلُ»، وَحِينَئِذٍ يَأْمُرُ اللَّهُ إِسْرَافِيلَ أَنْ يَنْفُخَ نَفْخَةَ الْبَعْثِ، فَتَخْرُجُ الْأَرْوَاحُ؛ أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ لَهَا نُورٌ، وَأَرْوَاحُ الْكَافِرِينَ لَهَا ظِلْمَةٌ، فَتَسْرِي الْأَرْوَاحُ فِي الْأَجْسَادِ كَمَا يَسْرِي السَّمُّ فِي اللَّدِيغِ، قَالَهُ الْغَزَالِيُّ، وَحِينَئِذٍ يَأْمُرُ اللَّهُ الْأَرْضَ أَنْ تَنْزِلَ وَتَتَشَقَّقَ، فَيَخْرُجُ مِنْهَا النَّاسُ مِنْ لَدُنْ سَيِّدِنَا آدَمَ إِلَى آخِرِ رَجُلٍ قَامَتْ عَلَيْهِ الْقِيَامَةُ، وَأَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ: سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَاحِبَاهُ، ثُمَّ أَهْلُ الْبَقِيعِ، ثُمَّ أَهْلُ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُتَشِيرٌ﴾ [القمر: ٧].

وَتَأَمَّلُوا مَعِيَ افْتِتَاحَ هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [النبا: ١]؛ أَي: عَمَّاذَا تَتَنَاقَشُونَ؟ وَفِيمَ تَخْتَلِفُونَ؟ هَذَا تَشْوِيقٌ لِمَا سَيَذْكُرُهُ مِنْ أَهْوَالِ عَظِيمَةٍ يَسْمِيهَا الْبَلَاغِيُونَ: بَرَاعَةَ الْاسْتِهْلَالِ، وَجَاءَتْ كَلِمَةُ ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ [النبا: ٢] لَتَهْوِيلِ فَوْقَ تَهْوِيلٍ، وَتَعْظِيمِ فَوْقَ تَعْظِيمٍ؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ ﴿النَّبَأِ﴾ وَحَدَّهَا لَا تَسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي

الأخبار الخطيرة، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣]، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ [ص: ٦٧]، وأكدته بوصفه بـ﴿العظيم﴾ لهول هذا الموقف، ثم قال: ﴿كَلَّا﴾ [النبا: ٤] وفيها ردٌّ شديد وعنيف على المنكرين للبعث، ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهُ حَقٌّ.

ثم صارت الآيات تصور ألواناً من العذاب: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا [النبا: ٢٤، ٢٥]؛ أي: نحاساً منصهرًا، وصديد أهل النار، وجاءت أخوف آية في القرآن: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠]، حتى يتمنى الكافر أن يكون ترابًا ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمُرءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠].

ألا فلتعلموا أنكم على خبر يوم القيامة، فقولوا: إن شاء الله والحمد لله؛ لأنَّ المبعوثين من قبورهم أصناف ثلاثة: ١- قسم طاعمون كاسون، راكبون على نوق رحائلها من ذهب؛ وهم الأتقياء، ٢- قسم حُفَاة عُرَاة؛ وهم المسلمون من أهل الكبائر، ٣- وقسم يحشرون على وجوههم؛ وهم الكُفَّار، إلى أين يحشرون؟ إلى الحساب؛ لعرض الأعمال على الله تعالى، ويتكلم الله تعالى مع العباد جميعهم بكلام يفهمونه، وفي الحديث الصحيح الذي رواه أحمد والترمذي: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكَلِّمُهُ رَبُّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ»، إن من يقرأ السورة ويعلم أنها حقائق ثابتة يشيب من هولها؛ كما شاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «شَيَّبَنِي هُوْدٌ وَأَخَوَاتُهَا» صلُّوا عليه وسلموا تسليماً.

* * *

لا يجوز أن نقول: أخطأ النبي

عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء ابنُ أمِّ مكتومٍ الأعْمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعل يقول: يا رسول الله؛ أرشدني، وعند رسول الله رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: أترى بما نقول بأساً؟ فيقول: لا، ففيه هذا نزلت: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ الآيات [عبس: ١، ٢]، رواه الترمذي.

هذا الموقف النبوي في السورة الكريمة أشكل على بعض من كتب في السيرة؛ لقلة علمه، وبعد أن ناقش وحلل انتهى إلى نتيجة خطيرة لم يسبق إليها في العصر الأولى للإسلام، فكتب: إن سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم يخطئ في الأمور الدنيوية، وراح يستدل على زعمه بالأدلة التي فهمها هو غلطاً، ولا مجال لذكرها هنا، ولكن أريد أن أقرر هنا ثلاث نقاط مهمة، أريدكم أن تحملوها عني بين حناياكم وتعتقدوا بها؛ لأنها الأسلم لدين المسلم:

النقطة الأولى: أن المقرر في علم الأصول أن المعصوم صلى الله عليه وسلم لا يخطئ.

النقطة الثانية: أن الأنبياء معصومون عن ارتكاب الكبائر، والصغائر، والمكروه، وخلاف الأولى، قبل النبوة وبعدها.

النقطة الثالثة: لم يقل هذه الكلمة: (أخطأ النبي صلى الله عليه وسلم) صحابي، ولا تابعي، ولا إمام من الأئمة الأربعة، ولا أحد من القرون الأولى، إنها كلمة لا

تطاول عني نفسي أن أقولها!! ولو عرضنا هذا الموقف على عقلاء الدنيا؛ لقرروا أن سيّدنا النبي صلى الله عليه وسلّم لم يخطئ، وحاشاه أن يفعل!

انتبهوا: هل لأحد أن يقول بأن في موقف النبي صلى الله عليه وسلّم ما ينتقد لو لم ينزل مولانا هذه الآيات؟! أم يقرر الجميع أن ما فعله عين الصواب؟! رجال من كبار القوم يتألفهم النبي الكريم صلى الله عليه وسلّم، ويحاول أن يكسبهم لنصرة الدعوة، وهو عليهم حريص، والله تعالى عاتبه عليهم بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، فماذا جرى؟ أتى واحد من أتباعه يسأله مسألة ليست مستعجلة، ولا ينشأ عن تأخيرها ضرر، وهو يستطيع أن يسأل عنها في كل وقت، فأرجأ الحبيب جوابه حتّى ينتهي مما هو فيه، هل يفعل أحد من الناس غير ذلك؟! هل في الدنيا من يقول: إن عمل سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم ليس صواباً؟! إنّه عين الصواب في مقياس المنطق البشري، ولكن لما نزل الوحي نزل بمقياس آخر يبين أن ميزان الله تعالى أقوم من موازين الناس، وأنّ حكم من خلق العقل أصح من حكم العقل، بل هو الحكم القويم، فالنبي صلى الله عليه وسلّم فعل خلاف الأفضل؛ لأنّ هؤلاء كفرة، وهذا الأعمى مؤمن، والله تعالى قرّر حقيقة سابقة، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

انتبهوا: الصحابي الأعمى لم ير عبوس رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ولكن الله رآه؛ لأنه لا تخفى عليه خافية، وعاتب حبيبه ومصطفاه معاتبه الحبيب لحبيبه،

وليس معاتبة مذنب -والعياذ بالله- لكمال عصمة الأنبياء، وهكذا كُلُّ موقف وقفه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممَّا عاتبه عليه القرآن.

* * *

أنواع المطففين

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نَكَتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءٌ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ، وَاسْتَغْفَرَ، وَتَابَ؛ سَقَلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]» رواه الترمذي، نسأل الله التوفيق آمين.

التطفيف خيانة، سواء في كيل، أو وزن، أو غير ذلك، كلُّ من يخون غيره، ويبخسه حقه، أو ينتقص مما وجب عليه؛ فهو داخل في الوعيد، فالتطفيف ليس خاصاً بالكيل، أو بالوزن، أو بالزرع، بل هو عام يدخل فيه كلُّ بخس سواء كان مادياً أو معنوياً، والتطفيف ليس مع الخصري فقط، ولا مع السَّمان والخبَّاز، انظروا إلى المعلم عندما يتأخر عن دخول الحصة، أو يتأخر عن الخروج منها؛ لانشغاله بغير الدرس... أو عندما يرئُ جواله فيردُّ عليه... هذا تطفيف وخيانة؛ لأنَّ الواجب إعطاء الحصة للطلاب كاملةً، وصرف الوقت لمصلحتهم.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ أي: من الموظفين الذين يتأخرون عن أعمالهم، أو الذين يخرجون مبكراً، أو يؤخرون معاملات الناس من غير عذر، ثم يأخذون أجرهم كاملاً...، فهذا تطفيف.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾؛ أي: من رؤساء الموظفين الذين يوزعون مكافآت على غير المستحقين، ويحرمون المستحقين؛ بسبب تقرير ظالم!

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾؛ أي: من الآباء الذين يعطون الذكر ويحرمون الأنثى، ويفضلون بعضهم على بعض من غير سبب.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾؛ أي: من الآباء الذين يهجرون أبناءهم بسبب الخلاف مع أمهم.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾؛ أي: من الأبناء الذين يبخسون حقوق آبائهم، ولا يبرونهم، ولا يحسنون إليهم، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾؛ أي: من الأزواج الذين يطالبون الزوجة بحقوقهم كاملة، ويتناسون الحقوق التي فرضها عليهم لزوجاتهم، مع أنه ﴿وَكُنَّ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، هلا سألت نفسك أيها الزوج: إذا قصرت في حق زوجتي؛ فإن لها أن تقصر هي الأخرى في حقِّي؟! ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]؟! أليس مقابلة السيئة بالسيئة جائزا في الإسلام؟!

وبالمقابل: ويل للمطففات اللواتي ينكرن فضل أزواجهن؛ بسبب خلاف وقع، هذا كفران للنعمة توعده عليه الإسلام، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «أُرِيتُ النَّارَ، فإذا أكثر أهلها النساءُ يكفرن»، قيل: أيكفرن بالله؟ قال: «يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئا؛ قالت: ما رأيت منك خيرا قط» حديث متفق عليه.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ؛ حينما تمرون بهذه السورة فقفوا مع أنفسكم وقفة محاسبة، فربما كانت السورة تتوعد أحدنا! وخاصّة حين نسمع: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ - ٦].

* * *

سورة ﴿والسما والطارق﴾

آيات هذه السورة مخيفة، فلقد أقسم الله تعالى أنّها ستحصل، وسنراها بأعيننا يوم القيامة، أقسم الله تعالى بالسما ونجومها التي تطرق السما وتظهر ليلاً، فعلى ماذا أقسم؟ أقسم على شيء خطير يدل على ألوهيته وربوبيته وقدرته العظيمة، أقسم لنصدق، مع أنّه تعالى ليس بحاجة إلى القسم حتّى نصدقه! ولكنّه تنبيه لنا ولذوي العقول الضعيفة، وتأكيد على المعلومة الخطيرة: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤].

كم عدد الخلائق منذ خلق آدم إلى يوم القيامة؟ لا يحصون، مع كلّ مخلوق ملك عن اليمين وعن الشمال قعيد، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، لا يضع مثقال ذرة عند محاسب من الدرجة الأولى، يدوّن كلّ صغيرة وكبيرة، وهذان الملكان يحفظان على العبد أعماله، يكتبانها في كتاب يخرج له يوم القيامة يلقاه منشوراً، ويقال: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، حتّى ورد أنه يخرج له ٩٩ سجلاً!

إنّهُ اليوم الذي تبلى فيه السرائر، يوم يظهر كذب الإنسان من صدقه، ويظهر إخلاصه من شركه، يوم يظهر فيه الإنسان على حقيقته العارية، وتنكشف النيات الحقيقية، يوم يكشف للناس لماذا دخل المسجد ليصلي؟ ولماذا تصدّق بصدقه على المسكين؟ ولماذا حمل السيف وخرج مجاهداً؟ يوم يظهر هل كان مؤمناً أم منافقاً؟ كنا نحسبه من الصالحين، ونمدح أعماله الخيرة، فيستخرج الله تعالى منه ما كان

خبياً، ويظهر على حقيقته، يوم تبلى السرائر وتمتحن، ويظهر للخلق الوجه القبيح، ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] هذه القلوب ستبلى وتختبر عند الله تعالى، والنبى صلى الله عليه وسلم حذرَك: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»، كما في رواية مُسلم، فالقلب وعمله هو محلُّ نظر الرَّبِّ.

وقف رجل من الصحابة فقال: مَا النَّجَاةُ غَدًا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ سَيِّدُنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُخَادِعِ اللَّهَ تَعَالَى»، قَالَ: وَكَيْفَ يُخَادِعِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ سَيِّدُنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْ تَعْمَلَ بِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ تُرِيدُ بِهِ غَيْرَهُ» يصلي في الجماعة في الصف الأول؛ لينخدع به الناس، ويحضر مجالس الذكر، ومجالس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم؛ ليشترخوا منه ويعاملوه، وهو غشاش يأكل الحرام؛ لذلك اسمع النبي صلى الله عليه وسلم ماذا يقول: «فَاتَّقُوا الرَّيَاءَ، فَإِنَّهُ الشَّرْكُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّ الْمُرَائِيَّ يُنَادِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ بِأَرْبَعَةِ أَسْمَاءَ: يَا فَاجِرٌ، يَا كَافِرٌ، يَا خَاسِرٌ، يَا غَادِرٌ، ضَلَّ عَمَلُكَ، وَبَطَلَ أَجْرُكَ، فَلَا خَلَاقَ لَكَ الْيَوْمَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، فَالْتَمِسْ أَجْرَكَ مِمَّنْ كُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ يَا مُخَادِعٌ».

اسمعوا وأنصتوا لعلكم تفلحون، حبيبك يقول: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ عِلْمًا وَفَرَأَ

الْقُرْآنَ...، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَأَعْطَاهُ أَصْنَافًا مِنَ الْمَالِ...» كُلُّهُمْ وَغَيْرُهُمْ يُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتَ، وَيَسْحَبُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ...، فَصَحَّحَ مَسَارِكَ قَبْلَ أَنْ تَخْسِرَ عَمْرُكَ، وَتَبْلَى السَّرَائِرَ، فَلَيْسَ مِنَ الضَّرُورِيِّ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَرْمِمَ مَسْجِدًا أَنْ تَكْتُبَ عَلَيْهِ: رَمَمَهُ فُلَانٌ، أَوْ: الْمُحْسِنُ الْكَبِيرُ فُلَانٌ، لَقَدْ ضَيَعْتَ أَجْرَكَ!

سورة الطارق فضحت المرائين، فحذارِ ثُمَّ حذارِ ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿[الطارق: ٩، ١٠]، وانظروا إلى نهاية السورة؛ لتستيقنوا أَنَّ التَّائِجَ الَّتِي صَدَرَتْ عَنِ السُّورَةِ صَحِيحَةٌ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ﴾ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ * إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُؤَيْدًا ﴿[الطارق: ١٣ - ١٧].

* * *

سورة الأعلى

ما سر التسبيح بالسورة؟ وما معناه؟ وما فائدته؟ ولماذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]؟ ولماذا خص سيدنا النبي التسبيحات خلف الصلوات المكتوبات؟

أسئلة تجيب عن سر مطالبة الله لنا بالتسبيح.

التسبيح يعني: تنزيه الله عن كل ما لا يليق به في علاه، تنزيهه عن كل نقص وعيب، فإذا حضر القلب والعقل والجوارح أثناء التسبيح؛ استشعر العبد قربته من مولاه، وحفَّت الملائكة، وتنزلت على قلبه السكينة.

فهلأ سألت نفسك: لماذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾؟ ذلك لأنه محتاج إلى رحمة ربه، فالجمادات كلها تسبح وأنت مُعرض عن مولاك!! لذلك أمرك هنا بالتسبيح؛ لتشارك الكون بتمجيد الله وتعظيمه، وليكن بعلمك أنك المستفيد الأكبر من التسبيح، احفظ عني القاعدة: حاصر همومك بالتسبيح، فالتسبيح تسليح، فمن سبح لا يخيب، ومن سبح أخذ أسلحته معه.

اسمع إلى حبيبك يقول: «مُعَقَّاتٌ لَا يَحِبُّ قَائِلُهُنَّ - أَوْ فَاعِلُهُنَّ - دُبُرُ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ: ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَسْبِيحَةً، وَثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَحْمِيدَةً، وَأَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ تَكْبِيرَةً».

معنى (معقبات): أنها تُفَعَّل خلف الصلوات مرة بعد مرة، وأنها تأتي خلف المؤمن لتحفظه، وهذا مصرَّح به في رواية النسائي، لما قال النبي الكريم للصحابه:

«خذوا جُنَّتْكُمْ!» قالوا: أَمِنْ عَدُوٍّ قَدْ حَضَرَ؟ قال: «لا، جنتكم من النار، قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإنهم يأتين يوم القيامة مجنَّبات ومعقبات» مجنَّبات: عن اليمين وعن الشمال، ومعقبات: من خلفه.

فهل عرفت الآن معنى أن التسبيح تسليح؟!

جاء أعرابي إلى سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله؛ علمني خيراً قال: «قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» فأخذها الأعرابي وذهب، ثم عاد، فقال: هذا كله لله، فما لي؟ قال رسول الله: «إذا قلت: سبحان الله؛ قال الله: صدقت، وإذا قلت: الحمد لله؛ قال الله: صدقت، وإذا قلت: لا إله إلا الله؛ قال الله: صدقت، وإذا قلت: الله أكبر؛ قال الله: صدقت، فتقول: اللهم اغفر لي؛ فيقول: قد فعلت، فتقول: اللهم ارحمني؛ فيقول الله: قد فعلت، وتقول: اللهم ارزقني؛ فيقول الله: قد فعلت» فعقد الأعرابي سبعاً في يديه.

لذلك الدعاء مستجاب بعد التسيحات؛ بدليل: «لا يخيب قائلهن»، فإياك أن تسبح ثم تغفل عن الدعاء بعدها!! أتعرف مثال من تكون؟! تكون كالذي استأذن على الملك فأذن له، فلما وصل إليه سكت ولم يطلب حاجة.

وإذا سألتني: لماذا دعوتي مستجابة بعدها؟ أقول: لأن الله يكون قد غفر لك خطاياك، وإذا غفر لك استجاب لك دعاءك، وحيبك قال: «من قالهن غفرت خطياه وإن كانت مثل زبد البحر» رواه مسلم، وهذا غير تثقيب الميزان، والنخلات والغرسات التي تزرع لك في الجنة.

باختصار سيدنا النبي يقول لك: «لأن أقول؛: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحبُّ إلي مما طلعت عليه الشمس» رواه مسلم، فالتسبيح كله خير، وعندك تسبيحة إذا قلتها صبَّ الله عليك الخير صبًّا، وصرت غنيًّا ببركتها، ولكن بشرط: أن تسبِّحها كلَّ يوم مئة مرة، ولا تسأل عن الأرزاق التي ستأتيك بعدها، ستصير غنيًّا ببركتها!! هذه التسبيحة هي: (سبحان الله وبحمده)، وهي تسبيح الملائكة كما قال تعالى: ﴿دَعَوْاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠]، أتعرف أخي المسلم أنَّ هذه الكلمة تعدل آلافًا من الصدقة وقيام الليل والجهاد في سبيل؟!؟

اسمع إلى حبيبي وأنت تصلي عليه ماذا يقول: «مَنْ هالَه الليل أن يكابده، أو بخَلَّ بالمال أن ينفقه، أو جُبِنَ عن العدو أن يقاتله؛ فليكثر من سبحان الله وبحمده، فإنها أحبُّ إلى الله من جبل ذهب ينفقه في سبيل الله عز وجل» (رواه الطبراني والبخاري).

أتعرفون ماذا يروي ابن أبي الدنيا؟ أتريد أن تعرف ماذا يفعل الله بهذه التسبيحات التي ترددها؟ اسمعوا الحديث الشريف: عندما تسبح يصعدن نحو العرش «ينعطفن نحو العرش لهن دوي كدوي النحل تذكر بصاحبها...» قال عليه الصلاة والسلام: «أما يحب أحدكم أن يكون له من يذكر به؟!؟».

أخيرًا اسمعوا الحديث الذي ختم به الإمام البخاري «صحيحه» آخر حديث في «صحيح البخاري» أرويه عنه بالسند المتصل إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم -بيني وبين البخاري أربع عشرة واسطة- قال: «كلمتان خفيفتان على

اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

* * *

سورة الغاشية

القرآن متعدد الأساليب، وفي هذه السورة أراد ربنا سبحانه لفت نظرك بأسلوب الاستفهام؛ ليشوقك ويغريك بمعرفة الجواب، فقال:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١] الغاشية اسم من أسماء يوم القيامة، ومعنى ﴿الْغَاشِيَةِ﴾ الداهية الشديدة التي تغطي الناس جميعاً بأهوالها وشدائدها ﴿يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧] يساق الناس فيه إلى أرض المحشر، الأحرار والعبيد، الملوك والسوقة، الحكام والوزراء، بلا شارات ولا سيارات ولا رايات، يخرجون بأكفانهم ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّتَشَتِّرٌ﴾ [القمر: ٧] إلى أين؟ إلى محكمة العدل الإلهية، جلسة علنية للمحكمة الربانية، يتم الاستجواب على مشهد من الملائكة والأنبياء، يتم استجواب أصناف الخلائق كافة؛ هؤلاء الذين عبدوا سيدنا عيسى، وهؤلاء الذين عبدوا سيدنا العزيز، وهؤلاء الذين عبدوا الجن، وهؤلاء الذين عبدوا الملائكة، وهؤلاء الذين عبدوا الملوك والحكام.

هناك تسقط الألوهيات المزعومة، وتمحى الزعامات الباطنة المكذوبة، وتنفصل عُرَا الأحزاب الشيطانية.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٢ - ٤] لن يعلن أحد الفرار يوم القيامة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥].

لن يستطيع أحد أن يأخذ إجازةً مرَضِيَّةً أو إداريةً أو شهريةً ريشما ينتهي التحقيق

والحساب؛ لأنَّ الملائكة تدفعه للعذاب والحساب، بل يمشي هرولة، ﴿وَنُفَخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩].

يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذابًا: «لو كانت لك الدنيا كلها أكنت مفتديًا بها؟ فيقول: نعم، فيقول: أردتُ منك أيسر من ذلك وأنت في صلب آدم: ألا تشرك بي شيئًا ولا أدخلك النار وأدخلك الجنة، فأبيت إلا الشرك» رواه مسلم.

يقول العبد: يا رب؛ لم لم تحضر لي إنذارًا بحضور الجلسة؟ فيقول مولانا: لقد أنذرتك بحضورك، وكنت تتلوه في كل يوم سبع عشرة مرة: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] فهذا يوم الدين وأنا المالك.

يا رب؛ من أوصل لي الإنذار؟ فيقول: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]

يا رب؛ اسمح لي بإحضار الشهود، فيقول مولانا: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]

يا رب؛ سأدفع كفالة مالية أو جاهية، فيقول مولانا: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]

يا رب؛ سأستأنف الحكم، فيقول: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩].

وأول ما يصلون إلى جهنم يجدونها مفتحة الأبواب تنتظرهم، على الأبواب مزاليج ضخمة كأنها أعمدة ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّصَدَّاتٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٨،

[٩]

وأول ما يصلون إلى جهنم يقولون: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧] فيقول لهم مولانا: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

فتحت لكم باب التوبة لغاية الغرغرة، ولكنكم أبيتم.

حتى إذا ألقوا فيها استقبلتهم زبانية جهنم التسعة عشر، وقالت لكل منهم: قف حتى تتحف (ضيافة) فيسقى من ﴿عَيْنِ آنِيَّةٍ﴾ [الغاشية: ٥] كأسًا من سم الأسود والعقارب، يتفطر منها جسمه، فيتفرق جلده على حدة، وشرايينه على حدة، وعظمه على حدة ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] فيصيبهم الجوع، فيطعمون من شجرتي الضريع والزقوم ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦] وشجرة الزقوم ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ﴾ [الدخان: ٤٤، ٤٥]؛ أي: عكر الزيت ﴿يَغِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٥، ٤٦] ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٧] هذا حال الكافر.

فما حال المؤمن؟ المؤمن، وما أدراك ما المؤمن؟ يدينه مولانا حتى يضع كنفه عليه -أي: ستره- فلا يسمع أحد محاسبته، فيقره بذنوبه: «أتذكر ذنب كذا وكذا؟» فيقول: أعرف يا رب، أعرف يا رب، ويقر بذنوبه كلها، ثم يقول مولانا: «عبدى سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم» في الحديث المتفق عليه.

* * *

سورة الفجر

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ *
وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ *
فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾

[الفجر: ٦ - ١٤]

صيغة الاستفهام في مثل هذا السياق أشد إثارةً لليقظة والالتفات.

والخطاب لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ابتداءً؛ تثبيتاً لنفسه، وربطاً على
فؤاده، حتى يعلم أن العاقبة له؛ كما كانت لإخوانه من المرسلين، ثم هي لكل من
تتأتى منه الرؤية أو التبصر في مصارع أولئك الأقوام.

وانتبهوا إلى هذه الإضافة: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ ففيها راحة للمؤمن وطمأنينة،
خاصة لأولئك الذين كانوا في مكة يعانون طغيان الطغاة، وعسف الجبارين، وظلم
المشركين.

وقد جمع الله في هذه الآيات القصار مصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم
التاريخ القديم:

١- مصرع عاد في إرم: وهي عاد الأولى، وسكنهم بالأحقاف تجاه اليمن،
وكانوا بدوًا ذوي خيام تقوم على عماد، وقد وصفوا في القرآن بالقوة والبطش،
وبالتميز والعتوّ: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ في ذلك الأوان، واغتروا بقوتهم
واستكبروا، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

٢- ﴿وَتُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾: ثمود كانت تسكن بالحجر بين المدينة المنورة والشام، وقد قطعت الصخر وشادته قصوراً، ونحتت في الجبال ملاجئ ومغارات.

٣- ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ وهي على الأرجح الأهرامات التي تشبه الأوتاد الثابتة في الأرض، وفرعون هنا هو فرعون موسى الطاغى الجبار. هؤلاء الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد؛ والطغيان: هو مجاوزة الحد، والطاغية إذا طغا أفسد الحياة من حوله، فرعون من طغيانه وفساده قال: أنا ربكم الأعلى، وجعل الشعب أرقاء أذلاء، يشعرون بالقهر العظيم، وأذهب الكرامة والحرية، وحطم الموازين والقيم، وذلك ما يفعله الطغيان.

فلما أكثروا في الأرض الفساد؛ كان العلاج تطهير وجه الأرض من فسادهم، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦] فما أشبه الليلة بالبارحة!! الدول الكبرى الثلاث اليوم: أمريكا وروسية وأوروبية يتكالبون على البلاد الإسلامية، ويجعلونها ساحة حرب لهم، يدمرون فيها ويفسدون، ولسان حال كل منهم يقول: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قوة؟! لكن نهايتهم قريبة كنهاية عاد وثمود.

إن من يقرأ التاريخ يجد أن الطغيان مهما طال عمره، ومهما استحكمت حلقاته على رقاب الضعفاء والمساكين؛ فلا بد أن ينتهي، ولا بد لشمسه أن تغيب؛ لأن الباطل لا يدوم، وإن كانت له جولة؛ فللحق جولات، وتلك سنة الله في خلقه؛ أن يميل للظلمة والظلمة، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ

الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ [هود: ١٠٢]، فَثَقُّوا بِالنَّصْرِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى،
فَإِذَا اشْتَدَّ الْكَرْبُ؛ قَرَّبَ الْفَرْجَ.

وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ بِهَا الْفَتَى ذَرَعًا وَعِنْدَ اللَّهِ مِنْهَا الْمَخْرُجُ
ضَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُهَا فُرِجَتْ وَكَنتَ أَظْنُهَا لَا تُفْرِجُ

* * *

سورة البلد

لَمْ خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْإِنْسَانَ فِي كِبَدٍ؟ يَكَابِدُ أَهْوَالَ الدُّنْيَا وَبَلَايَاهَا وَكَرْبَهَا، دَعَاهُ إِلَى مَاذَا؟ دَعَاهُ لِقِتْحَامِ الْعُقْبَةِ، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقْبَةُ﴾؟ شَاطِرٌ ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾ [البلد: ٦]؛ أَي: كَثِيرًا مُجْتَمِعًا فِي الْمَعَاصِي وَالْمُبَاحَاتِ، وَيَفْتَخِرُ بِذَلِكَ، فَإِذَا أَرَدَتْ الْمَفَاخِرَةُ وَالْمَغْفِرَةُ؛ فَاقْتَحَمَ الْعُقْبَةَ، وَاطْلَبَ مُعَالِيَ الْأُمُورِ، كُلَّمَا كَانَ الْمَهْدَفُ نَبِيلًا؛ كَانَتِ الْعُقْبَةُ أَكْبَرَ، وَكُلَّمَا كَانَتِ الْعُقْبَةُ أَكْبَرَ؛ عَظُمَتِ دَرَجَةُ الْجَنَّةِ؛ لِذَلِكَ: «حُقَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ»؛ أَي: بِالْعُقْبَاتِ، فَمَا الْعُقْبَةُ الَّتِي أَشَارَتْ إِلَيْهَا الْآيَاتُ؟ بِذَلِّ الْمَالِ، وَالصَّدَقَةِ، وَإِطْعَامِ الطَّعَامِ، فَهِيَ شَبِيهَةٌ بِعُقْبَةِ الْجَبَلِ؛ وَهِيَ مَا صَعُبَ مِنْهُ، فَالصَّدَقَةُ مَثَلًا لَا تَخْرُجُ مِنْ يَدِ الْعَبْدِ حَتَّى يَفُكَّ عَنْهَا لَحْيَيَّ سَبْعِينَ شَيْطَانًا، كَمَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَابْنُ الْبَزَارِ وَابْنُ الْبَيْهَقِيِّ وَابْنُ خَزِيمَةَ، هَذَا الْفَخْرُ، ﴿فَكَ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١٣] فِي وَقْتٍ انْتَشَرَ فِيهِ الرُّقُّ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤]؛ أَي: مُجَاعَةً.

أَتَعْرِفُونَ؟! أَحْيَانًا تَعْمَلُ عَمَلًا صَغِيرًا يَكُونُ النَّاسُ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ، فَيَنْبَلِكُ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى؛ لِأَنَّكَ تَغْلِبْتَ عَلَى نَفْسِكَ، فَالْنَفْسُ بِطَبِيعَتِهَا بَخِيلَةٌ، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]؟! أَي: الْبَخْلُ، وَقَدْ صَرَحَ إِمَامُ الدُّنْيَا سَيِّدُنَا الْجِيلَانِي بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، صَعِدَ مَرَّةً الْمَنْبِرَ لِيُخَطِّبَ الْجُمُعَةَ وَالنَّاسَ فِي قَحْطٍ وَجَدْبٍ، اسْمَعُوا الْخُطْبَةَ الرَّائِعَةَ، أَقْصَرَ خُطْبَةً فِي عَصْرِهِ! قَالَ: (لَقَمَةٌ فِي بَطْنٍ جَائِعٍ خَيْرٌ مِنْ بِنَاءِ أَلْفِ جَامِعٍ، وَخَيْرٌ مِنْ كَسَا الْكَعْبَةِ وَالْبَسِّهَا الْبَرَّاقِعِ، وَخَيْرٌ مِنْ جَاهِدِ الْكُفَّارِ بِسَيْفٍ مُهَنْدٍ قَاطِعٍ، وَإِذَا نَزَلَ الدَّقِيقُ فِي بَطْنٍ جَائِعٍ كَانَ لَهُ نُورٌ كَنُورِ الشَّمْسِ سَاطِعٍ، فَيَا بَشْرَى لِمَنْ أَطْعَمَ جَائِعًا!).

تذكروا إخواني أن الله تعالى غفر لبغي من بني إسرائيل؛ لأنها سقت كلباً كاد يقتله العطش، فكيف بمن سقى الناس، وأطعمهم، وكساهم؟! انتبهوا إلى العبارة القرآنية كيف عبرت: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٦]؛ أي: لا فراش له، ولا لباس، ولا لحاف، وإنما صار لا يقيه من التراب شيء، انظروا إلى إخوانكم من أهل الشام، إنهم في شدة، وجوع، وقتل، وحصار، لا مأوى لهم، ولا أمان، الآن الآن وقت الصدقة أشد من أي وقت.

أخي المسلم؛ إياك أن تأتي يوم القيامة وأنت لم تفك رقبة من الفقر، ولم تطعم مسكيناً من الجوع، ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ [القيامة: ٣١]، ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٤] سمى الله ذلك بالعقبة التي لا يقتحمها إلا صاحب العزيمة، والقوة، والصبر، والشجاعة...

لكن القرآن شرط شرطاً لقبول العبادة عند الله تعالى، ذكره في السورة فقال: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧] أي: لا يقبل الله عبادة إلا من المسلم، ففي «صحيح مسلم» عن السيدة عائشة رضي الله عنها قلت: يا رسول الله؛ ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: «لَا يَنْفَعُهُ؛ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»؛ أي: لم يكن يؤمن بالبعث، ولا كان يرجو لقاء الله، فيا أخي؛ جاهد نفسك، واقتحم العقبة...

* * *

سورة الشرح

قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ٢]

الوزر: هو الذنب، ولا يمكن حمل الوزر هنا على أنه الذنب؛ لأن الأنبياء معصومون عن ارتكاب الصغائر والكبائر، وعن خلاف الأولى، قبل النبوة وبعدها، والعصمة تعني عدم حصول الذنب، وعدم وقوع الوزر. فيكون مقصود الآية: عصمتك عن الوقوع في الذنوب والمعاصي، فهي لا تحصل منك.

ويمكن حمل المعنى على ما نقله اللغويون: أنه حمل أعباء النبوة والرسالة وهمومها التي أثقلت ظهر النبي، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل: ٥] ويشهد له أيضاً ما كان يحدث معه صلى الله عليه وسلم من ثقل الوحي أثناء نزول القرآن، فقد كان يتصبب عرقاً ويثقل جسمه، حتى كانت ساقه مرةً على رجلٍ صحابي لما نزل الوحي، فثقلت عليه حتى كادت ترضها. وهذا المعنى هو الذي يرتاح له القلب، فالوزر: هو الحمل الثقيل الذي كاد يثقل ظهر النبي الكريم من هموم الرسالة، وإرادته هداية الناس، وحرصه البالغ الشديد على أمته، حتى قال الله تعالى له: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

ولذلك جاءت الآية بعدها: ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٣] لتبين هذا المعنى، فالنقيض: صوت صرير المحمل، وصوت عظام المفاصل وفرقة الأصابع، والمعنى: أن الوزر كان عظيماً حتى كاد ينقض ظهره.

وأنتم تعرفون أن الله تعالى رَفَى حبيبه مقامات لم تتوقف، ولكل مقام ذنوب معنوية؛ وهي رؤية التقصير عن القيام بحقوق ذلك المقام، وكما يقال: (حسنات الأبرار سيئات المقربين)، فكلما علا المقام طُوب صاحبُه بشدة الأدب، فكأنه صلى الله عليه وسلم خاف ألا يكون قام بحق المقام الذي أقامه الله فيه، فاهتمَّ من أجله، وجعل منه حملاً على ظهره، فأسقطه الله تعالى عنه، وبشَّره بأنه مغفور له على الإطلاق؛ ليتخلى عن ذلك الاهتمام، وهذا تمامًا معنى الآية: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وزاده شرفاً بقوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] أي: نوَّهنا باسمك، وجعلناه شهيراً في المشارق والمغارب، ومن رفع ذكره صلى الله عليه وسلم أن قرن سبحانه اسمه مع اسمه في الشهادة والأذان والإقامة والخطب والشهد، وفي مواضع من القرآن: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩] ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [النساء: ١٣] ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢]

فمَبْلَغُ العلم فيه أَنَّهُ بشرٌ وَأَنَّهُ خيرُ خلقِ الله كُلِّهِم

* * *

سورة التين

عظمة هذا الإنسان أن الله هو الذي خلقه، وصوّره، وشقّ سمعه وبصره، كما قال: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤] ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] أي: خلقه منتصب القامة، يمشي مرفوع الهامة، وأما البهائم فخلقها مكفأة وجوهها على الأرض تمشي على أربع، إنّها عناية الله بك من بين المخلوقات!

اعلم أيّها الإنسان أنك مخلوق بقدره الواحد الديان، وقد اعتنى بك من البداية إلى النهاية، حينما قال: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ*فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩] وقال: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ [ص: ٧٥] رأيت كم تكريمًا أكرمك الله؟! فأنت الجسماني الذي صنعه الله بيديه، وأنت الروحاني الذي نفخ فيك الله من روحه، مكتوب عليك: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] فهل أدركت هذه العناية الإلهية فيك؟!

فماذا فعل هذا الإنسان حينما انحرف عن فطرة الاستقامة؟ وماذا حلّ به عندما عدل عن منهج الله؟ صار إلى أسفل السافلين! ماذا فعل حينما هوى بمعصيته إلى الحد الذي لا يبلغه مخلوق قط؟! لقد أصبحت البهائم أرفع وأقوم منه! لاستقامتها على فطرتها، وإلهامها تسبيح ربها، وأداء وظيفتها على الأرض، وهذا المخلوق في أحسن تقويم يححد ربه، ويرتكس مع هواه إلى درك لا تملك البهيمة أن ترتكس

إليه!! هؤلاء الذين خرجوا عن فطرتهم ظلوا ينحدرون في مستنقع الفساد حتى استقروا في الدرك الأسفل من النار، وهناك هُدرت آدميتهم!

أتعصيه بيدك التي خلقها لك؟! أتعصيه بعينك التي خلقها لك؟! أتعصيه بأذنك؟! أتعصيه برجلك؟! أتعصيه بكل ما أعطاك؟! أما استحييت من الله؟! إذا أردت أن تعصيه فاخلق لنفسك يداً واعصه بها!! أو اخلق لك عيناً واعصه بها!! فإذا كنت تقول: لا أستطيع، لا أستطيع؛ إذن لا تعصيه!!

أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ فهؤلاء هم الذين استقاموا على الفطرة، واكملوا بالإيمان والعمل الصالح، وارتقوا إلى الكمال، فأما هؤلاء ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦] أي: دائم غير مقطوع، فهل أدركتم الآن النعم التي أنتم فيها من قيمة الإيمان في حياة الإنسان؟ إنه الحبل الممدود إلى السماء، فلا تقطعوا هذا الحبل، ولا تطفئوا هذا النور، ولا تهدروا آدميتكم، ولا تعودوا إلى الطين الذي خلقتكم منه بعدما رفعكم الله ونفخ فيكم من روحه، إنكم إن فعلتم ذلك خسرتم، وندمتم، ولات ساعة مندم.

أخي الإنسان؛ إذا عرفت هذه الحقيقة؛ ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ * أليس الله بأحكم الحاكمين ﴿ [التين: ٧، ٨]؟ قولوا: بلى؛ لأنَّ رسول الله قال: «قولوا: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين» أخرجه الترمذي وأبو داود.

وفي نهاية المطاف في هذه السورة نذكر: أن فريقاً يابانياً اكتشف علاجاً للشيخوخة في مادة تسمى المثالونيدز، وهي مهمة جداً لتقوية القلب، وخفض الكولسترول، وضبط التنفس، تفرز تدريجياً من المخ من سن ١٥-٣٥ ثم تقل إلى

سن الستين، وتتحد مع بعض العناصر؛ كالحديد والفوسفور، بحثوا عنها في النباتات، فلم يجدوها إلا في التين والزيتون، ووجدوها بنسبة قليلة في الحيوان!

* * *

سورة العلق

في هذه السورة أمر إلهي واجب التنفيذ، وقاعدة مهمة يسير عليها كل مسلم، وقبل أن أنقل لكم هذه القاعدة اسمحوا لي أن أنقل لكم هذا المشهد من أمام الكعبة المشرفة:

إني أرى بعين الإيمان واليقين الحبيب الأعظم يسجد أمامها، ويمر أبو جهل فيرى رسول الله يصلي، فيقول له: ألم أنك عن هذا؟! فيُغلظ له رسول الله الكلام وينتهره، فيقول: يا محمد؛ بأي شيء تهددني؟! أما والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً! فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۖ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧، ١٨] يقول سيدنا ابن عباس: لو دعا نادية -أي: أنصاره- لأخذته ملائكة العذاب من ساعته. أخرجه الإمام أحمد والترمذي.

وأنزل الله القاعدة المهمة في حياة كل مسلم: ﴿كَأَلَّا لَا تَطْعُمَهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩] أي: صلِّ يا حبيبي حيث شئت، فإن الله ناصرك وحافظك، وأنت إذا دعاك مدير مؤسستك لترك صلاة الجمعة بحجة العمل، وأنذرك بالطرد إن لم تفعل؛ فلا تطعه واسجد واقترب.

حبيبك النبي أعطاك قاعدة أخرى، فقد قال لك: «لا طاعة لمخلوق في معصية الله عز وجل». (أخرجه الإمام أحمد بسند صحيح) أتعرف متى تكون طاعة المخلوق شركاً أكبر؟ إذا شرع لك قانوناً يخالف قانون الله وشرعه، فأخذت به وتركت شرع الله، فإذا حرم عليك ما أحل الله، أو أحل لك ما حرم الله؛ فهذا شرك

أكبر، واليوم شركة التسويق الشبكي تحل ما حرم الله: تبيع أكل الربا، وأكل أموال الناس بالباطل، فإذا شاركتَ فيها يكون شرًّا أكبر.

لما نزلت الآية الكريمة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] قال صحابي: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، قَالَ: «أَجَلْ، وَلَكِنْ يُحِلُّونَ لَهُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَسْتَحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَيُحَرِّمُونَهُ، فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ هُمْ» (السنن الكبرى للبيهقي) فهذا شرك أكبر.

فعندما تترك طاعة الله وتطيع المخلوق؛ يكون شرًّا أكبر، وعندما تأخذ إرث إخوتك البنات، وتحل لنفسك ما حرم الله عليك؛ يكون شرًّا أكبر؛ لذلك عندما يخبرونك بين الإرث بالقانون والإرث بالشرعية؛ فلا تطعمهم، واختر أمر الشرعية؛ كي لا تقع في الشرك الأكبر.

والي البصرة زمن يزيد بن عبد الملك كان يقول: إن يزيد يأمرني أن أنفذ كذا وكذا، وإن نفذت الأمر عصيت الله، فقال سيدنا الحسن البصري: إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله!! ﴿كَأَلَّا لَا تُطِيعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾. إذا تعارض معك أمران؛ أمر أمرك به الله تعالى، وأمر أمرك به مخلوق؛ فيجب عليك أن تختار أمر الله؛ لأنه «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

عندما قالت أم سعد بن أبي وقاص لولدها سعد: إما أن تكفر بمحمد، وإما أن أدع الطعام حتى أموت، فقال لها: يا أماه؛ لو كانت لك مئة نفس، فخرجت واحدة تلو الأخرى؛ لما كفرت بمحمد، فإن شئت كلي أو لا تأكلي! هكذا فهموا أمر الله: ﴿لَا تُطِيعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾. ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

* * *

سورة القدر

ليلة القدر عطية ربانية للأمة المحمدية، فخيرية هذه الليلة في أنها نزل فيها القرآن كاملاً إلى السماء الدنيا، في ليلة القدر من رمضان نزل القرآن كله إلى بيت العزة، وبعدها أصبح ينزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم متفرقاً بوساطة سيدنا جبريل، على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

وهناك العديد من المذاهب في تحديد ليلة القدر، ذكر لها الحافظ ابن حجر العسقلاني أربعين قولاً؛ فمنهم من يقول: إنها ليلة سبع وعشرين، ومنهم من يقول: إنها تنتقل في العشر الأواخر، وخصوصاً ليلة إحدى وعشرين وثلاث وعشرين، وفي «الصحيحين»: «التمسوها في العشر الأواخر في الوتر».

وإنما أخفاها الله تعالى حتى يجتهد العباد بالعبادة طوال العشر، فمن اجتهد فيها وأدركها؛ كان كمن عبد الله ألف شهر؛ أي: كعبادة ٨٣ سنة وأشهرًا، وهذا من فضل الله على الأمة لما كانت أعمارهم قليلة وأجسادهم ضعيفة.

وسميت بليلة القدر؛ لمكانتها عند الله، وقيل: لأن الله يقدر فيها الأرزاق للعباد، ويحدث العفو عنهم، ويعم السلم والسكينة، ويفتح أبواب الدعاء، وتنزل الملائكة مع الأمين سيدنا جبريل ليصافحوا كل مسلم قائم وذاكر.

والأكثرون على أنها تنتقل في العشر الأواخر؛ لتعارض الأحاديث الصحيحة في ذلك، ولا طريقة إلى الجمع بين الأحاديث إلا بانتقالها؛ كما قال الإمام النووي في «المجموع».

لكن بعض العلماء استطاعوا بفراستهم الصادقة اكتشاف أي ليلة هي؛ إذ أن كلمة ﴿ليلة القدر﴾ تكررت في السورة ثلاث مرات، وحروف (ليلة القدر) تسعة، ف ضربوا ٣ × ٩ فتحت ليلة سبع وعشرين.

ومن الاستنباطات المهمة أيضًا في السورة: أن عدد كلماتها ٣٠ كلمة، وأن كلمة: ﴿هِيَ﴾ جاء رقمها ٢٧، فقالوا: إنها ليلة سبع وعشرين.

فإذا أضفنا إلى ذلك حديثًا صحيحًا ورد في «صحيح مسلم» اتضح الأمر وانجلي، وهو حديث عن سيدنا أبي بن كعب، قال فيه: (والله إني لأعلم أي ليلة هي؟ هي الليلة التي أمرنا رسول الله بقيامها، وهي ليلة سبع وعشرين).

ثم إذا أضفنا إلى كل ذلك نتيجة المؤتمر الذي عقده سيدنا عمر مع الصحابة لمعرفة وقتها؛ إذ جمعهم وجمع معهم سيدنا ابن عباس، وقال لهم لما تعجبوا من وجوده: إنه فتى، له قلب عَقول، ولسان سَوول، وليُثبت لهم ذلك سألهم سؤالًا: متى ليلة القدر؟ فأجمعوا على أنها في العشر الأواخر من رمضان، فسأل سيدنا ابن عباس، فقال: إني لأظن أين هي، هي ليلة سبع وعشرين، فقال سيدنا ابن عمر: وما أدراك؟ فقال: إن الله تعالى خلق السماوات سبْعًا، وخلق الأرضين سبْعًا، وجعل الأيام سبْعًا، وخلق الإنسان من سبع، وجعل الطواف سبْعًا، والسعي سبْعًا، ورمي الجمار سبْعًا، فقال سيدنا عمر: لقد فُطِنْتَ لشيء غاب عنا!!

إن ليلة يُنزل فيها ربُّ العزة والقدر، كتابًا ذا قدر، تحمله ملائكة ذات قدر، على نبي ذي قدر؛ لخلْقٍ بالمسلم أن يُحييها بأصناف العبادات، وصدق رسول الله صلى

الله عليه وسلم إذ قال: «مَنْ قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا» -أي: كان مصدقًا بها،
وكانت نيته خالصة لله- «غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه».

* * *

سورة البينة

مطلعها قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿[البينة: ١، ٢].

الفرق بين الذين كفروا من أهل الكتاب والذين آمنوا منهم: أن الكفار منهم لم يؤمنوا بسيدنا عيسى ولا بسيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام، وأما المؤمنون منهم فآمنوا بسيدنا موسى وسيدنا عيسى وسيدنا محمد عليهم الصلاة والسلام.

ومعنى ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، كانوا يظنون أن نبي آخر الزمان سيخرج منهم، فلما خرج من العرب كفروا به، رغم أن اسمه ووصفه ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فكانوا يسمونه الفارقليط، ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

نحن أمة الإسلام نؤمن بجميع الأنبياء ﴿لَا نَفَرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومن جميل ما يذكر أن الملك المصري فؤاد -أو فاروق- اجتمع عنده في يوم عيد شيخ الأزهر، وراهب النصراني، وقس اليهود، فقال لهم: أريد من كل منكم أن يثبت الآن أنه هو من أهل الجنة، فقال قس اليهود: أُحيل الإجابة إلى راهب النصراني، وقال راهب النصراني: أُحيل الإجابة إلى شيخ الأزهر، فقال شيخ الأزهر: إن اليهود يعتقدون أن من يؤمن بموسى من أهل الجنة، والنصارى يعتقدون أن من يؤمن بموسى وعيسى من أهل الجنة، ونحن المسلمون نؤمن بسيدنا موسى وعيسى ومحمد، فنحن داخلوها داخلوها داخلوها.

من الذين آمنوا من أهل الكتاب زيد بن سعة، ومنهم سيدنا عبدالله بن سلام، كان من يهود بني قينقاع، وقال فيه الإمام الذهبي: إنه الإمام الحبر المشهود له بالجنة، توفي سنة ٤٣ هجرية.

حين قدم رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى المدينة سمع به، فجاءه فقال له: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمها إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول ما يأكل أهل الجنة؟ ومن أين يشبه الولد أباه وأمه؟ فقال: «أخبرني بهنَّ جبريل آنفًا»، قال ابن سلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة، قال: «أما أول أشراط الساعة فنار تخرج من المشرق فتحشر الناس إلى المغرب، وأول ما يأكله أهل الجنة زيادة كبد حوت، وأما الشبه فإذا سبق ماء الرجل نزع إليه الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزع إليها» فقال ابن سلام: أشهد أنك رسول الله، وقال: يا رسول الله؛ إن اليهود قوم بُهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي بهتوني، فأرسل إليهم فسلهم عني، فأرسل إليهم فقال: «أيُّ رجل فيكم ابن سلام؟» قالوا: حبرنا وابن حبرنا، وعالمنا وابن عالمنا، قال: «أرايتم إن أسلم تسلمون؟» قالوا: أعاذه الله من ذلك، قال: فخرج سيدنا عبدالله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا، وجاهلنا وابن جاهلنا.

وفي أسباب النزول أن هذه الآية نزلت في سيدنا عبدالله بن سلام عندما أسلم: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠].

فهذا من الذين آمنوا من أهل الكتاب له ثلاثة أجور: أجر لإيمانه بسيدنا
موسى، وأجر لإيمانه بسيدنا عيسى، وأجر لإيمانه بسيدنا محمد، عليهم الصلاة
والسلام.

* * *

سورة الزلزلة

لما ذكر الله تعالى في (سورة البينة) أَنَّ جزاء الكفار النار، وجزاء المؤمنين الجنة؛ يَبِّنُ في هذه السورة وقت ذلك الجزاء، وإن من كمال عدل الله تعالى أن يخبرك عن المحكمة الكبرى، ويحذرك من مقدماتها؛ حتى تستعد للعمل.

مولانا عز وجل يقول لنا: انتبهوا، هناك ارتباك عظيم هائل قادم سيحدث للأرض دون أدنى ريب، ومن شدة فزع الناس وخوفهم سيتحدثون إلى الأرض كما لو كانت كائناً يسمع ويتكلم.

يا شباب؛ زلزال الدنيا ليس بشيء أمام زلزال الآخرة، اسمعوا الوصف جيداً: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] وكأن الله تعالى يقول لنا: انتظروا زلزالاً أعظم للأرض كلها، إنها زلزلة مهما سمعتم عن وصفها فإن العقل لا يستطيع بلوغ عظمتها، ولا معرفة حقيقتها، إنه زلزال تسير على إثره الجبال، وتسجر البحار، وتنفطر السماء، وتنتثر الكواكب، ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤] فهل يستوعب عقلك أن ترى الجبال الرواسي تتلاشى وتتطاير كالصوف المندوف؟! كذلك قال الله: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، وهل يستوعب عقلك أن ترى الأرض تُخرج ما بداخلها من كنوز وأموال؟! كذلك قال الله: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢] وهل يستوعب العقل أن تتكلم الجهادات؟! كذلك قال الله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤].

إنه مشهد مخيف ومرعب، فربما لا تدرك معنى أن تكون هادئاً مطمئناً تسعى إلى رزقك وعملك، فتنتزل بجوارك قذيفة أو صاروخ فجأة، فلا تعرف لنفسك قراراً ولا ثباتاً ولا اتزاناً!! فكيف بك بالزلازل الأكبر الذي يهلك الحرث والنسل!! هل شاهدتم زلزالاً يدمر مدناً في ثوانٍ من الزمن حتى صارت أثراً بعد عين؟! كل أنواع الزلازل التي سمعتم عنها إنما هي نماذج مصغرة للزلازل العظيم الذي أخبر الله تعالى عنه، وذلك عندما تُخرج الأرض من بطنها الموتى ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣، ٤].

والكفار يتعجبون فيقولون: ﴿مَا لَهَا؟﴾! لماذا اضطربت وارتجت؟! فيجيهم الله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤، ٥] أي: أمرها بالزلزلة والاضطراب، ويقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]؟؟ فيجيهم أهل الإيمان: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢] فقارن بين القولين؛ بين من يقول: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ ومن يقول: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ الأول دهشٌ فزعٌ، مصدوم مفجوع، والثاني مطمئن مصدق عارف بما جرى.

سُئِلَ عن كل شيء، يا غافلاً تيقظ! هذا الغافل الساهي اللاهي الذي يأكل المال من حله ومن حرامه، ويفعل ما يريد، ويميل إلى المنافقين، ويقول: جماعتي ورفاقي، ليسمع البيان القرآني: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦] أي: يخرجون من الأرض إلى يوم الحشر متفرقين، فلا جماعات ولا أحزاب، لا أحد سيسأل عنك، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئِذٍ

يَتَفَرَّقُونَ ﴿[الروم: ١٤] سَتُحْشَرُ فَرْدًا، ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥] ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

بالله أخبرني؛ إذا علمت أن الله لا يظلم مثقال ذرة؛ فكيف ستستعد ليوم المعاد؟ كيف ستعلق قلبك بالآخرة؟ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] وقد أخبرك حبيبك فقال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة».

زعم الملحدون أن القرآن وقف عند الذرة، وأن العلم الحديث فتت الذرة، وما علم هؤلاء الجهلة أن الله تعالى قال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

* * *

سورة الكوثر

في القرآن ثلاث سور قصيرة: الكوثر، والعصر، والنصر، فالكوثر: عشر كلمات، والعصر: أربع عشرة كلمة، والنصر: تسع عشرة كلمة، فسورة الكوثر أقصر سورة في القرآن.

وأريد أن أشير إلى فن مهم في التفسير؛ وهو: تناسب الآيات والسور بعضها مع بعض، والسؤال الذي يُسأل في هذا الفن: ما علاقة سورة الكوثر بما قبلها (سورة الماعون)؟ وما علاقتها بما بعدها (سورة الكافرون)؟

في (سورة الماعون) حديث عن أسوء البشر، ما صفاته؟

- يمنع خيره عن الناس.

- لا يصلي.

- لا يخلص لله (يُرَائِي).

و(سورة الكوثر) عكسها، فيها صورة تقابل صورة تلك السورة، فهي تتحدث

عن خير البشر، ما صفاته؟

- خيره عميم.

- يصلي.

- يخلص لربه.

فما علاقة (سورة الكوثر) بـ(سورة الكافرون)؟ بماذا انتهت (سورة الكوثر)؟

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] أي: إن مُبْغِضَكَ هو المنقطع خيره، فما صفة

مَنْ أَبْغَضَ النَّبِيَّ الْكَرِيمَ؟ كافر، فما موقف النبي من هذا الكافر؟ هنا جاءت (سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾).

هذا يسمى بِفَنِّ تناسب الآيات والسور، وهو علمٌ أكثر من رائع، ينبهك على معانٍ لا ينتبه إليها إلا ذو علمٍ عليم، يبحث في التناسب المعنوي بين السور بعضها مع بعض، وبين الآيات في السورة الواحدة بعضها مع بعض، ووجوه البلاغة فيها، وبين الكلمات في الآية الواحدة بعضها مع بعض، وأسرار النظم القرآني فيها، وقد ألّف الإمام إبراهيم بن عمر البقاعي المتوفى سنة (٨٨٥هـ) كتاباً في هذا الفن، بلغت عدد أجزاءه ٢٢ مجلداً، واختصرها الإمام السيوطي في مجلد.

عظمة هذه السورة أنها جمعت كل أنواع العبادات، فالعبادات نوعان:

-عبادة بدنية خالصة؛ كالصلاة.

-وعبادة مالية خالصة؛ كالزكاة.

- وعبادة بدنية مالية؛ وهي الحج، فهو نوع ثالث جمع بينهما.

سورة الكوثر جمعت بين نوعي العبادات في آية واحدة: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾

[الكوثر: ٢] وعظمة السورة أنها جمعت الإخلاص في العبادتين بكلمة واحدة:

﴿لِرَبِّكَ﴾ أي: إخلاصاً لربك، فكل العبادات إذا أردت أن يقبلها الله فلا بد فيها

من الإخلاص، وفي الحديث: «من عمل عملاً أشرك به غيري؛ فهو له ولشريكه».

وجمال السورة أنها بدأت بكلمة: ﴿إِنَّا﴾ بأسلوب توكيدي يقيني، فيه منحة

ربانية للأمة المحمدية من أجل سيدنا محمد: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ واستعمل

مولانا عز وجل (نون العظمة) في بداية السورة، ومعناها: عظمة المُعْطِي؛ وهو الله،

وعظمة العطاء؛ وهو الكوثر، وعظمة المعطى له؛ وهو سيدنا رسول الله، فلم يعط أحداً مثل ما أعطى سيدنا محمدًا.

وقال له: ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ ولم يقل: آتيناك، لأن معنى (آتيناك): لك ولغيرك؛ كما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] فالقرآن لك ولغيرك، وأما كلمة ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ فتعني: أن هذا العطاء لك خاصة، إنه عطاء غير مجذوذ؛ لذلك سماه الكوثر، و﴿الكوثر﴾ معناه: الخير العميم، بلا حدود ولا نهاية، وهو حوض نبينا في الجنة، من شرب منه لا يظمأ بعده أبدًا، ومن صلى على النبي كثيرًا يشرب منه مكافأة على صلاته؛ لذلك أنت مطالبٌ شاذليًا أن تصلي على النبي ١٠٠ مرة، وقادريًا أنت مطالب أن تصلي ٣١٣ مرة على عدد أهل بدر، فادفع الثمن لتنال السلعة الغالية.

* * *

سورة الكافرون

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ﴾.

قولوا لي بربكم؛ هل من نصٍّ أبلغ وأصرح من هذا النص في حرمة متابعة الكافرين؟! فكيف تريدون غيره؟ ماذا أبقى لدينه هذا المقلد للغرب الكافر حينما ترك تعاليم الإسلام واتباع الغرب في عاداتهم وتقاليدهم وشعائهم؟!

هذا القرآن تتلوه آناء الليل وأطراف النهار، يأمرك أمرًا شديد اللهجة بأن تقول: ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١، ٢]، وهذه السنة الشريفة تحذرك من تقليد أتباع الكفر، ففي الحديث المتفق عليه: «لتتبعن سنن من قبلكم، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» أي: ستقلدونهم في كل شيء؛ في لباسهم، وفي شعورهم، وفي أعيادهم، ومنها: عيد الحب الوثني، وعيد الميلاد، وعيد رأس السنة، حتى لو باعوا دُبًّا أحمر لفعلتم فعلتكم! ولو عملوا حفلات مختلطة -ماتينية وسواريه- وفعلوا فيها الفاحشة؛ لفعلتم!!

هذا خلط بين الشرك والتوحيد، وتقليد للأمة الضالة، وتهديد لعقائد المسلمين، وتشبه بالكافرين والوثنيين، والنبى حذرک، ولكنک لا تسمع، فقد قال: «من تشبه بقوم فهو منهم» (رواه أحمد وأبو داود)، والقرآن حذرک، ولكنک لا تتنبه، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ

أَوْ عَشِيرَتِهِمْ ﴿٢٢﴾ [المجادلة: ٢٢] فإذا تشبهت بالكفار في لباسك وشعرك، وفي احتفالاتك واختلاطاتك؛ فماذا أبقيت لديك؟!

أنت مسلم، وشخصية المسلم تأبى أن تنخرط في شخصية الكفار، أنت مسلم وتقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣] فأنت في كل حركة وسكنة تقول بلسان حالك ومقالك: إني من المسلمين، الآن وإلى الممات، إذن ألم تسمع السورة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: الآن ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي: الآن ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ أي: في المستقبل ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي: في المستقبل.

أنت عزيز عند الله، فلا تجعل نفسك ذليلاً عند أعداء الله، فالكفر ذلٌ أبدي في الدنيا والآخرة، فكيف ترضى بالذل والإسلام أعزك ورفعك بنص القرآن: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]؟!

تعالوا وانظروا حال سيدنا رسول الله؛ كيف كان يتمسك بشعائر الإسلام، ويرفض رفضاً باتاً تقليد الكفار، فلما أرسل إلى كسرى: «أَسْلِمَ تَسْلِمَ» مَزَقَ كسرى الرسالة، وبعث إلى ملك اليمن أن يأتيه بسيدنا رسول الله على وجه السرعة، فأرسل ملك اليمن رجلين، فأتيا المدينة، ودخلا المسجد ينتظران خروج القائد الأعلى للأمة، وما إن خرج رسول الله للصلاة حتى رآهما حليقي اللحية، مُفْتَوِيَّ الشاربين، فنظر إليهما شذراً وسأل عنهما، فقالوا: رسولاً يا رسول الله،

والآن اسمعوا القرار النبوي يا من تحبون رسول الله ورضيتم بسُنَّته دينًا: قال: «أما أنا فأمرني ربي بإعفاء لحيّتي وحفّ شاربي».

فهل أنت مدرك لهذا الكلام من الله لأشرف أنبيائه؟! يا رجال الإسلام! يا شباب الإسلام! يا نساء الإسلام! ارفعوا رؤوسكم عاليًا بهذا الدين، ولا تنكسوا راياته بشهواتكم الباطلة، لا أمر إلا أمر الله، ولا قرار إلا قرار رسول الله، ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ونحن قوم أعزنا الله بالإسلام، ومهما ابتغينا العزة بغيره؛ أذلنا الله.

اجعل برّك كلّ عزّ زكّ يستقرّ ويثبت
فإن اعتزّزتَ بمنّ يمّو تُ فإنّ عزّك ميّت
ألا هل بلّغت؟ اللهم فاشهد.

* * *

سورة النصر

تضمّنت سورة النصر الأحكام الآتية:

- يتوجّب على المسلم أن يشكر الله سبحانه وتعالى ويحمده ويثني عليه بما هو أهل له؛ وذلك لما أنعم الله عليه من النعم الكثيرة، ومن أعظم النعم التي من الله بها على نبيّه وعلى المؤمنين فتح مكة، وتحقيق النصر على الأعداء.

- ختم الله سبحانه وتعالى سورة النصر بأمر نبيّه صلى الله عليه وسلم بالإكثار من الصلاة والاستغفار، وتسبيح الله وتنزيهه عمّا لا يليق به سبحانه، وحمده على ما أنعم به عليه من الفتح والنصر، فإذا كان النبي المعصوم قد خوطب بذلك؛ فمن باب أولى قيام الأمة بالاستغفار.

- ورد أمر الله سبحانه وتعالى بالتسبيح بدايةً، ثم بحمده ثانيًا، ثم بالاستغفار ثالثًا، فقدّم الاشتغال بما يتوجّب للخالق -وهو التسبيح والتحميد- على الاشتغال بالنفس، وقدّم الأمر بالتسبيح أيضًا حتى لا يتبادر إلى الذهن أن تأخير النصر لعدد من السنين كان لإهمال الحق للخلق مثلاً، تعالى الله وتنزه عن ذلك، ثم جاء الأمر بالاستغفار حتى لا يفكّر النبي صلى الله عليه وسلم بالاشتغال بالانتقام ممن آذاه.

- للتسبيح والتحميد فضل عظيم، فقد كانا كافيين لأداء ما وجب على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أمته من شكر نعمة النصر والفتح.

- دين الله سبحانه وتعالى هو الإسلام، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ

الله الإسلام﴾ [آل عمران: ١٩].

- ذهب جمهور العلماء إلى أنَّ إيمان الشخص المقلِّد صحيح، وذلك لأنَّ الله سبحانه وتعالى حكم بصحَّته من إيمان أولئك الأفواج الجُدد الذين يدخلون في دين الله، وجعل ذلك من أعظم المننِ على نبيِّه محمَّد صلى الله عليه وسلَّم، وهؤلاء لو لم يكن إيمانهم صحيحًا لما ورد ذكره هنا.

- اتَّفَق الصَّحابة رضوان الله عليهم على أنَّ (سورة النصر) دلَّت على نَعْي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

* * *

سورة المسد

مناسبتها لما قبلها: ذكر في السورة السابقة (سورة النصر): أن ثواب المطيع حصول النصر والاستعلاء في الدنيا، واستحقاق الثواب الجزيل في العقبى، وهنا ذكر أن عاقبة العاصي الخسارة في الدنيا، والعقاب في الآخرة.

وسبب نزول السورة: نزلت بحق أبي لهب وزوجته، والمصير الذي ينتظرهما في نار جهنم، فنزلت هذه السورة ردًّا على الحرب المعلنة من أبي لهب وامرأته، وتولى الله سبحانه وتعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم أمر هذه المعركة.

روى البخاري عن ابن عباس أنه قال: خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى البطحاء، فصعد الجبل فنادى: «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش، فقال: «أرايتم إن حدثتكم أن العدو مصبّحكم أو ممسّيكم؟ أكنتم تصدقونني؟» قالوا: نعم، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد» فقال أبو لهب: تبًّا لك!! ألهذا جمعتنا؟ وفي رواية: أنه قام ينفض يديه ويقول: تبًّا لك سائر اليوم!! ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] و(التَّبَاب): هو الهلاك والبوار والقطع، وكلمة ﴿تَبَّتْ﴾ الأولى دعاء، و﴿تَبَّ﴾ الثانية تقريرٌ لوقوع هذا الدعاء.

ففي آية قصيرة واحدة في مطلع السورة تصدر الدعوة وتحقق، وتنتهي المعركة، ويسدل الستار عليها، ويأتي بعد آية المطلع وصف ما كان: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ٢] والمقصود: لقد تبّت يداه وهلكتا، وتب هو وهلك، فلم يُغنِ عنه ماله وسعيه، ولم يدفعه عنه الهلاك والدمار، وذلك كان في الدنيا، أما

في الآخرة؛ فإنه ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ٣] ويُذكر اللمع تصويرًا وتشخيصًا للنار، وإيحاءً بتوقُّدها وتلهُّبها، ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤] أي: وستصلي النار معه امرأته حالة كونها حمالة الحطب، وحالة كونها ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥] أي: مِن ليفٍ، تُشَدُّ به هي في النار، أو هي التي تُشَدُّ بالحبل الحطب، على المعنى الحقيقي إن كان المراد الشوك، أو المعنى المجازي إن كان حمل الحطب كنايةً عن حمل الشر، والسعي بالأذى والوقعة.

وفي الأداء التعبيري للسورة تناسقٌ دقيق ملحوظ مع موضوعها وجوِّها، وتناسق من لونٍ آخر في جرس الكلمات مِن الصوت الذي يحدثه شد حبال الحطب، وجذب العنق بحبل من مسد، اقرأ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ تجد فيها عنف الحزم، والشدة الشبيهة بحزم الحطب وشدّه، والشبيهة أيضًا بغلّ العنق وشده، وبجوِّ الحنق والتهديد الشائع في السورة.

وهكذا يلتقي تناسق الجرس الموسيقي، مع حركة العمل الصوتية، بتناسق الصور في جزئياتها المتناسقة، بتناسق الجناس اللفظي، ومراعاة النظر في التعبير، ويتسق مع جو السورة وسبب النزول، ويتم هذا كله في خمس آيات قصار، في سورة من قصار سور القرآن.

* * *

فضل سورة الإخلاص

حديثنا هذا اليوم عن سورة عظيمة جمعت فضائل كثيرة وحسنات جليلة، من قرأها كان كمن قرأ القرآن.

جمعت هذه السورة العظيمة أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وقد وردت أحاديث عدة في فضلها وفضل قراءتها، في الصلاة وخارجها، وفي أدبار الصلوات، وفي الصباح والمساء، وعند النوم والقيام منه، وللاستشفاء بها، وفي أنها تعدل ثلث القرآن... إلى غير ذلك، إنها سورة التوحيد والإخلاص.

ومما يدل على فضل هذه السورة كثرة أسمائها، وإن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، وهي نحو عشرين اسمًا، تصب كلها في فلك التوحيد، ومعرفة حق الله على العبيد، والرد على عبادة الأصنام والأوثان والتنديد، القائلين بالثنوية والتثليث، وعلى جميع الأديان الباطلة.

وأشهر أسمائها: (الإخلاص)، وسُميت بذلك لأنَّ في قراءتها خلاصًا من عذاب الله، أو لأنَّ فيها إخلاصًا لله من كل عيب، ومن كل شريك، أو لأنَّها خالصة لله، ليس فيها أمر ولا نهي، وقيل: سميت بالإخلاص لأنَّها أخلصت التوحيد لله، أو لأنَّ قارئها وتاليها قد أخلص دينه لله.

ومن أسمائها: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وقد بَوَّب البخاري في «الصحیح» (باب فضل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾).

ومن أسمائها: التوحيد، والأساس؛ لأن التوحيد أساسٌ لسائر أصول الدين.

ومن أسمائها: التَّفْرِيد، والتَّجْرِيد، والنَّجاة، والولاية، والمعرفة -لأنَّ معرفة الله إنما تتمُّ بمعرفة ما فيها- والنَّسبة، والصَّمد، والمعوَّدة، والمانعة، والمذكَّرة، والنُّور، والإيمان، والمُقَشَّقشة، والمعولة، والبراءة.

سبب نزول هذه السورة:

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: إن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: انسُب لنا ربَّك، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن أعرابياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: انسُب لنا ربك، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ...﴾ إلى آخرها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم -منهم كعب بن الأشرف وحبيُّ بن أخطب- فقالوا: يا محمد؛ صف لنا ربَّك الذي بعثك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ﴾ فيخرج منه شيء ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ فيخرج من شيء.

ومحصَّل هذه الروايات بمجموعها: أن المشركين من أهل مكة ومن أهل الكتاب سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن ينسب لهم ربه ويصفه، فأنزل الله هذه السورة.

ومن فضائلها: أنَّها صفةُ الرحمن، ففي «صحيحَي البخاري ومسلم» من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً على سرية،

فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «سَلُوهُ: لأي شيء يصنع ذلك؟» فسألوه، فقال: «لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أخبروه أن الله يُحِبُّه».

ومنها: أَنَّ حُبَّهَا يُوجِبُ مَحَبَّةَ اللَّهِ؛ لهذا الحديث المذكور آنفاً، ومنه قول ابن مسعود: (مَنْ كَانَ يَحِبُّ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَحِبُّ اللَّهَ).

ومنها: أَنَّ حُبَّهَا يُوجِبُ دُخُولَ الْجَنَّةِ، قَالَ عبيدُ اللَّهِ عَنْ ثَابِتٍ: عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُؤْمِنُهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ، وَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً يَقْرَأُ بِهَا لَهُمْ فِي الصَّلَاةِ مِمَّا يَقْرَأُ بِهِ؛ افْتَتَحَ بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْهَا، ثُمَّ يَقْرَأُ سُورَةً أُخْرَى مَعَهَا، وَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ...، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ: فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا فُلَانُ؛ مَا حَمَلَكَ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ؟» فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّهَا، فَقَالَ: «حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ».

ومنها: أَنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ».

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «احْشُدُوا، فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ» فَحَشَدَ مِنْ حَشَدٍ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثُمَّ دَخَلَ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: قَالَ

رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني سأقرأ عليكم ثلث القرآن» إني لأرى هذا خبراً جاءه من السماء، ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «إني قلت: سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا إنها تعدل ثلث القرآن» أخرجه مسلم.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي الدرداء: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ كل يوم ثلث القرآن؟» قالوا: نعم، قال: «إن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، ف﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلث القرآن».

ومنها: أن قراءتها تكفي من الشر وتمنعه، ويستحب قراءتها قبل النوم، فقد ثبت في «صحيح البخاري» عن عائشة: (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه قرأها مع المعوذتين، ومسح ما استطاع من جسده).

وفي «مسند الإمام أحمد» عن عقبة بن عامر قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العظيم؟» قلت: بلى، قال: فأقرأني: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم قال لي: «يا عقبة! لا تنسهن، ولا تبت ليلة حتى تقرأهن».

وفي «المسند» عن مجتن بن الأدرع: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل المسجد؛ فإذا هو برجل قد قضى صلاته، وهو يتشهد، وهو يقول: اللهم إني أسألك بأنك الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، أن تغفر لي ذنوبي، إنك أنت الغفور الرحيم، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: «قد غفر له، قد غفر له، قد غفر له» ثلاث مرات.

فَاقْرَءُوا هَذِهِ السُّورَةَ الْحَافِظَةَ لِمَنْ حَافِظَ عَلَيْهَا، وَاجْعَلُوهَا فِي كُلِّ أَوْقَاتِكُمْ،
وَسَائِرِ أَحْوَالِكُمْ، كَمَا كَانَ نَبِيُّكُمْ يَفْعَلُ ذَلِكَ، فَقَدْ كَانَ صَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ
يَقْرَأُ بِهَا عِنْدَ نَوْمِهِ، وَفِي مَسَائِهِ وَفِي صَبَاحِهِ، وَفِي أَذْبَارِ صَلَوَاتِهِ، وَكَانَ إِذَا اشْتَكَى
نَفْسَ فِي يَدَيْهِ بِ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَالْمُعَوِّذَاتِ، وَمَسَحَ بِهَا رَأْسَهُ وَسَائِرَ جَسَدِهِ
الشَّرِيفِ، فَاقْرَءُوهَا بِتَدْبِيرٍ وَتَفَكُّرٍ، اقْرَءُوهَا بِتَمَعْنٍ وَتَعَبُّدٍ، اقْرَءُوهَا، فَهَذَا أَنْتُمْ قَدْ
عَلِمْتُمْ فَضْلَهَا وَعَرَفْتُمْ أَجْرَهَا.

ومن فضائلها: أنَّها تضمنت الردَّ على اليهود والنصارى والمشرِّكين، وهي حجة
الله على خلقه، حتى قال الإمام السيوطي في «الإكليل»: فيها الرد على اليهود
والنصارى والمجوس والمشرِّكين والمجسِّمة والمشبَّهة والحلولية والاتحادية، وجميع
الأديان الباطلة، ويدل على هذا ما رواه البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة عن
النبي صلى الله عليه وسلم عن ربِّه: «كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ
يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ
بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ
أَلِدْ وَلَمْ أُوَلَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ».

يقول الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى: ومن فضائلها أنه يُبنى لقارئها بيت في
الجنة:

روى الإمام أحمد عن سهل بن معاوية بن أنس، عن أبيه، عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال: «مَنْ قَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ عَشْرَ مَرَّاتٍ؛ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ»

فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إِذَنْ نَسْتَكْثِرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُ أَكْثَرُ وَأَطْيَبُ».

وَمِنْ فَضَائِلِهَا: أَنَّ الدُّعَاءَ بِهَا مُسْتَجَابٌ، فِي «السنن الأربعة» عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ رَجُلًا يُصَلِّي، يَدْعُو يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَقَدْ سَأَلَهُ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أُجَابَ» وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ يُصَلِّي عَلَى قَارِئِهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الثَّقَفِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَبُوكَ، فَطَلَعَتِ الشَّمْسُ بِضِيَاءٍ وَشِعَاعٍ وَنُورٍ لَمْ نَرَهَا طَلَعَتْ فِيمَا مَضَى، فَأَتَى جَبْرِيلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ: «يَا جَبْرِيلُ؛ مَا لِي أَرَى الشَّمْسَ الْيَوْمَ طَلَعَتْ بِضِيَاءٍ وَنُورٍ وَشِعَاعٍ لَمْ أَرَهَا طَلَعَتْ بِهِ فِيمَا مَضَى؟» قَالَ: ذَاكَ أَنَّ مَعَاوِيَةَ بْنَ مَعَاوِيَةَ اللَّيْثِيَّ مَاتَ بِالْمَدِينَةِ الْيَوْمَ، فَبَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ، قَالَ: «وَفِيمَ ذَاكَ؟» قَالَ: كَانَ يَكْثُرُ قِرَاءَةُ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَفِي كَمَاشِهِ وَقِيَامِهِ وَقَعُودِهِ، فَهَلْ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ أَقْبِضَ لَكَ الْأَرْضَ حَتَّى تَصَلِّيَ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ رَجَعَ. ذَكَرَهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي «صِفَةِ الصَّفْوَةِ».

وَمَعْنَى (الْأَحَدِ): هُوَ الَّذِي تَفْرُدُ بِكُلِّ كِمَالٍ وَمَجْدٍ وَجَلَالٍ وَجَمَالٍ وَحَمْدٍ وَحِكْمَةٍ وَرَحْمَةٍ، وَغَيْرِهَا مِنْ صِفَاتِ الْكِمَالِ، فَلَيْسَ لَهُ فِيهَا مِثِيلٌ وَلَا نَظِيرٌ وَلَا مَنَاسِبٌ بَوَاجِهٍ

من الوجوه، فهو الأحد في حياته وقيوميته، وعلمه وقدرته، وعظمته وجلاله،
وجماله وحده، وحكمته ورحمته، وغيرها من صفاته، موصوف بغاية الكمال
ونهايته، من كل صفة من هذه الصفات.

وأما معنى (الواحد): فهو الفرد الأول الذي لا نظير له ولا مثل؛ كقولهم: فلان
واحد قوم في الشرف أو الكرم أو الشجاعة.

ومعنى ﴿الصَّمَدُ﴾: أنه هو وَحْدَه المقصود في الحوائج، فهو السند الدائم الذي
يُصَمَد إليه في الأمور؛ أي: يُقَصَد، و(الصمد) عند العرب: شريف القوم، أو السيد
المطاع، أو السيد المقصود الذي لا يُقضى دونه أمر.

وقيل: (الصمد) الذي ليس بأجوف، والذي ليس بأجوف شيئان؛ أحدهما: مَنْ
هو دون الإنسان؛ كالجملادات، والثاني أعلى منه؛ وهو الباري والملائكة، والقصد
بقوله: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ التنبيه على أنه بخلاف مَنْ أثبتوا له الإلهية، وإلى نحو هذا
أشار بقوله: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] وموضع الإشارة:
أن في هذه الآية كناية؛ لأن من يأكل الطعام لا بد له من قضاء الحاجة، ومن كان
كذلك لا يكون إلهًا.

* * *

المعوذتان

لا يخفى على أحد ممن ينتمي إلى الإسلام عظمة هاتين السورتين في الاستعاذة والاستجارة بالله عزَّ وجلَّ، حتى قال سيدنا رسول الله - كما عند الترمذي وغيره -: «إنهما أفضل ما تعوذ به المتعوذون»، وقال: «تكفيك من كل شيء» يعني: التعوذ بهما من الجن وعين الإنسان.

وكان عليه الصلاة والسلام يتعوذ بالأدعية، فلما نزلتا أخذهما وترك ما سواهما (أخرجه الترمذي).

وقد اشتملت السورتان على ثلاثة أصول: الاستعاذة، والمستعاذ به، والمستعاذ منه.

فالاستعاذة: هي التحرز والتحصن والنجاة؛ أي: الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه؛ ولهذا يسمى المستعاذ به معاذًا؛ كما يسمى ملجأً، فمعنى ﴿أَعُوذُ﴾: ألتجئ وأعتصم وأتحرز.

فالعائد: من هرب من عدوه الذي يبغى هلاكه إلى ربه ومالكه، وفرَّ إليه، وألقى نفسه بين يديه، واعتصم به، واستجار والتجأ.

والمستعاذ به: هو الله تعالى وحده، ربُّ الفلق، وربُّ الناس، وملك الناس، وإله الناس، الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به.

والمستعاذ منه في السورتين: أنواع الشرور المذكورة فيهما بأوجز لفظ وأجمعه، حتى لم يبقَ شر من الشرور إلا دخل تحتها، فقد تضمنت: شرَّ المخلوقات عمومًا،

وشرَّ الفلق، وشرَّ الغاسق إذا وقب، وشرَّ النفاثات في العقد، وشرَّ الحاسد إذا حسد، وشرَّ الوسواس الخناس.

وأريدكم أن تميزوا بين السورتين: سورة الفلق: سورة يستعاذ بها من العدو الخارجي، وسورة الناس: سورة يستعاذ بها من العدو الداخلي.

سورة الفلق: تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات، وسورة الناس: تتضمن الاستعاذة من شر العيوب التي أصلها كلها الوسوسة.

فأنت تستجير برب الناس الذي هو ملك الناس، وهو إله الناس المتصرف بالكون، الجدير بك ألا تستعيز بغيره، ولا تستنصر بسواه، ولا تلجأ إلى غير حماه، وإذا قرأت هاتين السورتين فأنت تستعيز بالله من أولئك جميعاً؛ لذلك كان رسول الله يأمر بقراءتهما دبر كل صلاة، كما أخرجهم أحمد وأبو داود والنسائي، وصححه الحاكم وقال: على شرط مسلم، وابن خزيمة وابن حبان في «صحيحهما».

فالشر الأول: شر المخلوقات عموماً، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] و﴿الْفَلَقِ﴾ هو الصبح، أمرنا أن نستعيز برب النور الذي يقهر الظلمة ويزيلها، ويقهر عسكرها وجيشها؛ ولذلك ذكر الله تعالى في القرآن أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور، ويدع الكفار في ظلمات كفرهم، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

والشر الثاني: شر الغاسق إذا وقب؛ وهو الليل إذا أقبل بظلمته من الشرق، و(الغسق): الظلمة، قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾

[الإسراء: ٧٨] والسبب في الاستعاذة من الليل إذا وقب: أن الليل إذا أقبل كان محل سلطان الأرواح الشريرة الخبيثة، وفيه تنتشر الشياطين؛ لذلك كان سيدنا النبي يأمر أصحابه أن يكفوا صبيانهم، ويحبسوا مواشيهم إذا أقبل الليل، حتى تذهب فحمة العشاء، كما أخرج البخاري ومسلم، ولذلك أيضًا كان سلطان السحر وعظم تأثيره إنما هو بالليل دون النهار، وكلما كان القلب أظلم كان الشيطان أطوع.

الشرُّ الثالث: شرُّ النَّفَّاثَاتِ في العقد، وهو شر السحرة الذين يعقدون العقد، وينفثون على كل عقدة منها؛ حتى ينعقد ما أرادوا من السحر، ولا يقع السحر إلا بإذن الله تعالى، و(النفث): هو النفخ مع ريق، وهو دون التفل، و﴿النَّفَّاثَاتُ﴾ هنا: هي الأرواح والأنفُس النافثات، نفوس خبيثة وأرواح شريرة.

الشر الرابع: شر العائن والحاسد، وأصل الحسد: هو بغض نعمة الله على المحسود، وتمني زوالها عنه، فالساحر والحاسد عدوٌّان للنعم، يستعينان بالشياطين على إزالتها عن صاحبها.

الشر الخامس: شر الوسوسة، وتكون في ساحة القلب؛ وهي الصدر، والوسوسة: الصوت الخفي الذي تسمعه من داخلك، وإنما يلقيه الشيطان الخناس.

أتعرفون ما معنى ﴿الْخَنَاسُ﴾؟ معناه: أن العبد إذا غفل عن ذكر الله التقم الشيطان قلبه، وبَدَرَ فيه أنواع الوسوس التي هي أصل الذنوب، فإذا ذكر الله واستعاذ به؛ انخنس الشيطان وانقبض، وتوارى، فذهب شره، فأنت معك سلاح رهيب هو سلاح الذكر، تضرب به شيطانك فيخنس.

يا شباب!! لاحظوا كيف أن إبليس معنا في كل حركة، إلا الذاكر فيهرب منه، وفي الحديث: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَجْرِيَ مِنْ بَنِي آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ».

إبليس لصٌّ؛ كل طعام أو شراب لم يذكر اسم الله عليه يسرقه ويخطفه، وكل بيت لا يذكر فيه اسم الله يبيت مع أهله؛ كما في «صحيح مسلم» عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ؛ قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ؛ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَذْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ؛ قَالَ: أَذْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ».

وانظروا ماذا يفعل إبليس مع كل واحد منا كل ليلة: في «صحيح البخاري» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنْ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ؛ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسَلَانَ».

ومن شره: أنه يبول في أذن الإنسان حين ينام، فلا يستيقظ إلى الصباح، في «البخاري»: «ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ».

ومن شره: أنه يقعد له في طرق الخير، يمنعه منها، وأقسم ليأتين ابن آدم من بين يديه وخلفه، وعن يمينه وشماله.



تعبير الرؤيا

عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ» رَوَاهُ الْأَرْبَعَةُ.

علم تعبیر الرؤيا من العلوم الشرعية التي يثاب الإنسان على تعلمها وتعليمها، وهو علمٌ داخل في الفتوى؛ لقول سيدنا يوسف للفتيين: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١] ولقول الفتى لسيدنا يوسف: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ﴾ [يوسف: ٤٦] فلا يجوز الإقدام على تعبیر الرؤيا بغير علم، ففي الحديث: «أَجْرُكُمْ عَلَى الْفُتْيَا أَجْرُكُمْ عَلَى النَّارِ» أخرجه الدارمي، وسئل الإمام مالك: أيعبر الرؤيا كل أحد؟ فقال: أبالنبوة يلعب؟ ثم قال: الرؤيا جزء من النبوة، فلا يلعب بالنبوة.

إن علم تأويل الرؤيا من علوم الأنبياء وأهل الإيمان، والأحاديث والآيات على ذلك كثيرة، ولقد ورد في القرآن سبع مرات؛ خمس منها في الأنبياء، والله أثنى على سيدنا يوسف بأنه علّمه من تأويل الأحاديث، فهو جزء من علم النبوة، ولئن انقطعت النبوة فإنّ علمها باق، فلا يُتكلّم في الرؤيا وتفسيرها بغير علم؛ كما لا يُخاض في النبوة بغير علم.

وتذكرون أن نبينا صلى الله عليه وسلم عند البعثة أول ما بدئ به الرؤيا الصادقة، فبقي ستة أشهر وهو يرى الرؤيا فتأتي مثل فلق الصبح، وبهذا عليكم أن تفهموا حديث: «إن الرؤيا من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءًا من

النبوة» كيف؟ بأن بعثته صلى الله عليه وسلم ٢٣ سنة، فكم ستة أشهر فيها؟ ٤٦؛ لذلك كانت الرؤيا جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا صلى الفجر التفت إلى أصحابه وسألهم: «هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا؟» يفعل ذلك ليُعلم الصحابة كيفية التعبير؛ لأن الرؤيا من أخبار الغيب، وفيه نفع لدينهم، وبشرى أو إنذار، فالرؤيا تارة تكون مبشرة بخير، وتارة تكون منذرة بشر؛ من معصية ارتكبتها العبد أو هم بها، فتأتي الرؤيا فتحذّره من مكروه إن فعلها، ولذلك قالوا: منام الصادقين علم اليقين؛ لأنها تنبئ بما يكون في المستقبل.

أما الرؤيا التي لا تعجب صاحبها؛ فإن سيدنا النبي علّمنا ألاّ نحدث بها؛ لئلا تقع، بل يبصق الرائي لها عن يساره ثلاثاً، ويتعوذ بالله من الشيطان، فإنها لا تضره. وأشهر من عرف بتأويل الرؤيا الإمام ابن سيرين من التابعين، والإمام الشيخ عبد الغني النابلسي من المتأخرين، ومنهم أيضاً والذي رحمه الله، كانوا يأتون إليه ليعمل لهم استخارة، فيرى الرؤيا، ثم يفسرها لهم، وكان الشيخ صالح العقاد رحمه الله شيخ الشافعية يرسل إليه الناس، فيقول لهم: رؤيا الشيخ سهيل لا تخيب.

الإمام مالك رأى ملك الموت في منامه، فسأله: كم بقي من أجلي؟ فأشار إليه بأصابعه الخمسة، فقال: هل هي خمس سنين أو خمسة أشهر أو خمسة أيام؟ فلم يجبه، فجاء إلى ابن سيرين يسأله عن المنام، فقال: يا إمام؛ ما هي بخمس سنين ولا خمسة أشهر ولا خمسة أيام، إن ملك الموت يقول لك: إن هذا من الأمور الخمسة التي استأثر الله بعلمها، ولا يعلمها أحد غيره سبحانه، فقد قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ

عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ [لقمان: ٣٤].

* * *

حكم من يكذب في الرؤيا

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ؛ كُلَّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَنْ يَفْعَلَ، وَمَنْ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ - أَوْ يَفِرُّونَ مِنْهُ - صُبَّ فِي أُذُنِهِ الْآنُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ صَوَّرَ صُورَةً؛ عَذَّبَ وَكُلَّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ.

وَلِلْبُخَارِيِّ: «إِنَّ مَنْ أَفْرَى الْفَرَى أَنْ يُرَى عَيْنِيهِ مَا لَمْ تَرَهُ».

لقد جاء الوعيد الشديد لمن كذب في منامه، وعقد البخاري في «صحيحه» باباً سماه (باب من كذب في حُلْمِهِ)، وساق فيه حديثين:

الأول: حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ؛ كُلَّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَنْ يَفْعَلَ...».

ومعنى (مَنْ تَحَلَّمَ) أي: مَنْ تَكَلَّفَ الْحُلْمَ، و(الآنُكَ): هو الرصاص المذاب، وإنما يُصَبُّ في أذنه لأن الجزء من جنس العمل، وهنا لاحظ أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال في الحديث: «مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ» وسماه حلمًا، ولم يُسمَّه رؤيًا؛ لأنه ادَّعى أنه رأى ولم ير شيئًا، فكان كاذبًا، والكذب إنما هو من الشيطان، والرسول صلى الله عليه وسلم قال: «الحُلْمُ من الشيطان»، وما كان من الشيطان فهو باطل غير حق.

وهنا لاحظ أيضًا التشابه بين عقوبة المصوّر -وهي: «فليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة...» الحديث- وعقوبة الذي يكذب في الحُلْم؛ وهي: «أن يعقد بين شعيرتين» ومعنى العقد بين الشعيرتين: أن يَفْتَل إحداهما بالأخرى، وهذا عادةً مستحيل، والتشابه هنا بين المصوّر والكاذب في منامه: أن الرؤيا خلقٌ من خلق الله، وهي صورة معنوية، فأدخل بكذبه صورةً لم تقع؛ كما أدخل المصوّر في الوجود صورة ليست بحقيقية؛ لأنَّ الصورة الحقيقية هي التي فيها الروح، فكُلِّفَ الحالم صاحب الصورة اللطيفة أمرًا لطيفًا؛ وهو الاتصال المُعَبَّر عنه بالعقد بين الشعيرتين، وكُلِّفَ المصوّر صاحب الصورة الكثيفة أمرًا شديدًا؛ وهو أن يُتَمَّ ما خَلَقَه بزعمه بنفخ الروح، ووقع الوعيد على كل منهما بأنه يُعَذَّب حتى يفعل ما كُلفَ به، وأخبر الله أنه ليس بفاعل؛ لأنه تكليف بأمر مستحيل، فهو كناية عن تعذيب كل منهما على الدوام إلا أن يرحمهما الله!!

وهذا التشديد على الكاذب في حلمه لأنه كذب على جنس النبوة، والمصوّر نازع الخالق في خلقه، ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في «الفتح».

والحديث الثاني: حديث ابن عمر: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنَّ من أفرى الفرى أن يُرى عينيه ما لم تر»، وفي رواية: «ما لم يريا»، ومعنى «أفرى الفرى»: أي أعظم الكذبات، و(الفرى) جمع (فرية) وهي الكذبة العظيمة.

ونلاحظ من الحديثين شدة عذاب الكاذب في المنام، وسبب ذلك يوضحه لنا الإمام الطبري حيث قال: إنما اشتد فيه الوعيد -مع أنَّ الكذب في اليقظة قد يكون أشدَّ مفسدةً منه؛ إذ قد يكون شهادةً في قتلٍ أو حدٍّ أو أخذ مال- لأن الكذب في

المنام كذبٌ على الله أنه أراه ما لم يره، والكذب على الله أشدُّ من الكذب على المخلوقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨] وإنما كان الكذب في المنام كذبًا على الله لحديث: «الرؤيا جزء من النبوة»، وما كان من أجزاء النبوة فهو من قبَل الله.

* * *

رؤية ورقة بن نوفل

عن عائشة رضي الله عنه قالت: سألت خديجة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ورقة بن نوفل، فقالت: إنه كان صدقك، ولكنه مات قبل أن تظهر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أُريت في المنام وعليه ثياب بيض، ولو كان من أهل النار لكان عليه لباس غير ذلك» رواه الترمذي.

سيدنا ورقة بن نوفل رضي الله عنه كان كبير شيوخ مكة المكرمة، وهو صحابي جليل من أوائل من آمن بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عند البعثة قد عمي وبلغ عتياً.

كان يتعبد على دين الحنيفية الأولى؛ دين سيدنا إبراهيم، على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وهو ابن عم السيدة خديجة رضي الله عنهما، كان يقرأ كتب أهل الكتاب، ويعلم أن نبياً سيعث في الحرم، وأن دين قريش على ضلال، ولما أتته السيدة خديجة رضي الله عنها تخبره عن الوحي الأول الذي نزل على سيدنا رسول الله أول مرة؛ قال لها مباشرة: إنه الناموس الأكبر الذي نزل على موسى، ثم لقي رسول الله في مكة، وطلب منه أن يحدثه بما رأى، فحدثه عن الوحي الذي رأى، فقال له: أشهد أنك أحمد الذي بشر به عيسى، وأنا أشهد أنك رسول الله، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك! ولأقاتلن معك ولأنصرك نصرًا مؤزرًا، فقال النبي الكريم: «أخرجني هم؟! قال: نعم، ما جاء أحد قومه بمثل ما جئت به إلا عودي وأخرج من بلده!! ثم ما لبث سيدنا ورقة أن توفي قبل ظهور الإسلام.

لكن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر أنه رآه في المنام «وعليه ثياب
بياض»، وهناك رواية أخرى يقول فيها: «رأيت القسَّ في الجنة عليه ثياب خضر»،
والمهم أنه رضي الله عنه أسلم وثبت إيمانه برسول الله صلى الله عليه وسلم.

* * *

رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ رَأَى فِي الْمَنَامِ؛ فَسَيَرَانِي فِي الْيَقَظَةِ، وَلَا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي» رَوَاهُ الثَّلَاثَةُ.

هذا الحديث في جواز رؤية النبي الكريم يقظةً رواه البخاري ومسلم وأبو داود، وهو عند الطبراني وغيره بسند صحيح صريح لا يقبل التأويل، وللعلماء في هذه المسألة قولان:

انتصر الصوفية العلماء للقول بجواز رؤية النبي يقظةً؛ لتواردها عن الأولياء، فلا داعي للضجة الكبيرة التي أثارها الوهابية ضد هذه الأحاديث، ولا حاجة لأن ينكروا رؤية النبي يقظة، ولا داعي للطعن في هذه الرواية من أجل تكذيب الأولياء والصلحاء في رؤيتهم النبي يقظةً.

وإذا أخذنا الموضوع من جانب آخر؛ فكلنا يحفظ: (ما كان معجزةً لنبيٍّ جاز أن يكون كرامةً لوليٍّ)، وهؤلاء ينكرون رؤية الأنبياء يقظة، ونسوا -أو تناسوا- أن نبينا الأعظم رأى الأنبياء يقظة في ليلة المعراج، وقابل عددًا منهم، فلماذا لا تكون هذه الكرامة جائزة لولي من الأولياء؟! لماذا يناصر الوهابية المعتزلة في تقديم العقل على النقل؟!!

ولقد رد الإمام السيوطي رحمه الله على المانعين في رسالة ألفها حول هذا البحث، عنوانها: (تنوير الحلك، في إمكان رؤية النبي والمَلَك).

ومرة أراد أحد العلماء أن يحل الإشكال بين أهل السنّة والوهابية، فقال: معنى الحديث: فسيراني يقظةً في القيامة، فرد عليه بعض العلماء قائلاً: لا فائدة من هذا التخصيص؛ لأن كل أمته صلى الله عليه وسلم يرونه يوم القيامة، من رآه منهم منامًا ومن لم يره!!

إذن هذا الحديث على إطلاقه لمن رآه صلى الله عليه وسلم في النوم، فإنه سيراه في اليقظة، سواء كان على سنته أو غير متبع له؛ لأن الله قادر على كل شيء، والله تعالى قادر أن يجعل رؤيته صلى الله عليه وسلم في النوم سبباً لرؤيته في اليقظة.

سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما رأى سيدنا النبي الكريم في النوم، فتذكر هذا الحديث، وبقي يفكر فيه، ثم دخل على خالته ميمونة زوج النبي الكريم، فقص عليها قصته، فقامت وأخرجت له مِرآته صلى الله عليه وسلم، قال: فنظرتُ في المرأة، فرأيتُ صورة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم أر لنفسي صورة!!

وكثير من السلف الصالح رأوا النبي يقظة، وهذا من طريق خرق العادات، صرح بذلك الأئمة الغزالي، والتاج السبكي، وابن أبي جمرة، وابن أبي الحاج المالكي، وابن حجر الهيتمي، وغيرهم.

ترى؛ أو لم يكن سيدنا الرفاعي صادقاً في رؤية يد النبي وهي تمدُّ من الحجرة الشريفة أمام مئة ألف حاج فقبلها؟! فلماذا التكذيب؟!

والله يا سادة؛ كان مولاي الوالد رحمه الله كثير الاجتماع بسيدنا رسول الله يقظةً ومنامًا، كلما أهمّه أمر أكثر من الصلاة والسلام عليه، فيراه، ويسأله فيجيبه، ومرة

قرأ أن النبي الكريم سلّم على بعض أصحابه عن بُعد، فرفع كفه اليمنى إلى رأسه الشريف، فاهتم مولاي الوالد رحمه الله، كيف رفع النبي يده إلى رأسه؟ كيف تكون الهيئة؟ فصلى إمامًا في جامع الخريزاتية في سوق مدحت باشا، وجلس للتشهد، ولما وصل إلى قوله: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته؛ رأى الحجب أمامه قد أزيلت، حتى رأى النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة يرفع كفه فوق حاجبه يرد السلام عن بُعد على مولاي الوالد رحمه الله.

واهتم أيضًا في كيفية لف عمامته على السنة؛ هل يجعل العذبة من فوق العمامة أو من تحتها؟ فجاءه رسول الله يقظة وهو في مجلس الصلاة عليه، فعلمه كيفية لف العمامة، ووضع العذبة من أسفل الجهة اليمنى، وعذبة ثانية من أعلى العمامة خلف ظهره.

ومرة كان في مجلس الشيخ هاشم الخطيب في المسجد الأموي، ولما انتهى درس الشيخ أنشد المنشدون:

صفا وقتنا طاب الزمان بمدحه فقوموا على مدح الحبيب إلى الرقص
يقول مولاي الوالد وسطّره بقلمه رحمه الله: فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم بجوار الشيخ هاشم في الجلسة، فخاطبته وقلت: يا رسول الله؛ ما الرقص المحمّدي؟ فإذا به يقوم ويأخذ بيدي الشيخ هاشم، ويعمل حضرة شاذلية: الله الله، قيامًا وركوعًا، فقام كل من في المجلس على قيام الشيخ هاشم، وعملوا حضرة وذكرًا، ورأى الشيخ رشيد الحبال في طرف الأموي النبي عليه الصلاة والسلام،

فجاءه هو وجماعتهُ الذاكرون، وانضموا إلى الحضرة التي ما صار مثلها في الجامع الأموي.

فهذه مرائي يقظة لمولاي الوالد رحمه الله، وهي عندي أثبتُ من أقوال الوهابية في نكران رؤية النبي الكريم يقظةً!

* * *

الإتيكيت النبوي

يقول أحد المتخصصين بفن الإتيكيت:

اطلعت على المدرسة السويسرية للإتيكيت، وتعرفت على المدرسة الفرنسية للإتيكيت، ولكنني انبهرت وتأثرت بمدرسة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام في الإتيكيت وحسن التعامل مع الآخرين!! فمن ذلك:

١- للأسف يبهزنا مشهد ممثل أجنبي يطعم زوجته في الأفلام الأجنبية، ولا نبهر بالحديث الشريف: «وَلَسْتُ بِنَافِقٍ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَجْرَكَ اللَّهُ بِهَا، حَتَّى اللَّقْمَةَ تَجْعَلَهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ» كما في «صحيح البخاري ومسلم» إنها المحبة والرومانسية الحقيقية من الهدي النبوي! لكن عند أهل الإتيكيت الغربي ومن انبهروا بهم المرأة عندهم تحاسب في المطعم عن نفسها، وزوجها يحاسب عن نفسه!!

٢- كان النبي صلى الله عليه وسلم مع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، عندما يريد أن يشرب يأخذ الكأس نفسها التي شربت فيها ويشرب من المكان نفسه الذي شربت منه، فتقول سيدتنا عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله يضع فاه على الموضع الذي أشرب منه، ويشرب من فضل شرابي، وأنا حائض» رواه النسائي بسند صحيح، فماذا يفعل أولئك الذي انبهروا بإتيكيتهم في مثل هذه الحالة؟

سأكتبها على جبين المجد عنوانا من لم يقتد بالرسول ليس إنسانا

٣- يعتقدون أن تبادل الورود بين الأحبة عادة غريبة، ونسوا الحديث الشريف: «مَنْ عَرَضَ عَلَيْهِ رِيحَانٌ فَلَا يَرُدُّهُ؛ فَإِنَّهُ خَفِيفُ الْمَحْمَلِ، طَيِّبُ الرِّيحِ» أخرجه مسلم.

٤- ينهرون عندما يرون الرجل الغربي يفتح باب السيارة لزوجته، ولم يعلموا أنه في غزوة خيبر - كما في «صحيح البخاري» - جلس رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم على الأرض وهو مجهد، وجعل زوجته صفية تقف على فخذه الشريف لتركب ناقتها، وهذا سلوكه في المعركة فكيف كان في المنزل؟!!

٥- سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها: ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل في بيته؟ قالت: (كان بشراً من البشر، يخط ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه وأهله) وهذا حديث صحيح، وفي الإتيكيت الغربي: (اخدم نفسك بنفسك).

٦- كانت وفاة رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم في حِجْر أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضي الله عنها، وكان بإمكانه أن يتوفى وهو ساجد، لكنه اختار أن تكون آخر أنفاسه بحضن زوجته! وهذا في «صحيح البخاري».

٧- بينما كان الرسول عليه الصلاة والسلام جالساً بين أصحابه؛ إذا برجل من أحبار اليهود - يسمى زيد بن سعنة، وهو من علماء اليهود - يدخل على الرسول عليه الصلاة والسلام، ويخترق صفوف أصحابه حتى أتى النبي عليه الصلاة والسلام، وجذبه من مجامع ثوبه، وشده شداً عنيفاً، وقال له بغلظة: أوف ما عليك من الدين يا محمد!! إنكم يا بني هاشم قوم مُطْل!! أي: تماطلون في أداء الديون، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد استدان من هذا اليهودي بعض الدراهم، ولكن لما يحين موعد أداء الدين، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهز سيفه،

وقال: ائذن لي بضرب عنقه يا رسول الله، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «مُرّه بحسن الطلب، ومُرني بحسن الأداء» فقال اليهودي: والذي بعثك بالحق يا محمد؛ ما جئت لأطلب منك دينًا، إنما جئت لأعلم أخلاقك، فأنا أعلم أن موعد الدين لَمَّا يَحِنُّ، ولكنني قرأت جميع أوصافك في التوراة، فرأيتها كلها متحققة فيك إلا صفةً واحدةً لم أجربها معك: وهي أنك حلیم عند الغضب، وأن شدة الجهالة لا تزيدك إلا حلمًا، ولقد رأيتها اليوم فيك، فأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأما الدِّين الذي عندك فقد جعلته صدقة على فقراء المسلمين! ولقد حُسِّنَ إسلام هذا اليهودي، واستشهد في غزوة تبوك.

((رواه ابن حبان في «صحيحه» (١ / ٥٢١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٥ / ٢٢٢)، والحاكم في «المستدرک» (٣ / ٦٠٤)، وغيرهم بأسانيدهم، وفي سند كلهم ضعف)).

حبيبي سيدي يا رسول الله، صلى عليك الله يا أبا القاسم، ما أحلمك على من آذاك!! فذاك نفسي يا رسول الله، صلى الله عليك وسلم تسليمًا.

* * *

حكم ضرب المرأة

من المرأة؟ أمك وأختك وخالتك وعمتك وزوجتك وابنتك، فكيف تكرم أمك وأختك وخالتك وعمتك وابنتك ولا تكرم زوجتك؟! هذا خلل في الفهم، أتريد أن تفهم الفهم الصحيح؟ افهمه عن نبيك وشفيعك وحبيبك الذي قال لك: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهله» رواه الترمذي.

يكفيك هذا الحديث في أن تمتنع عن ضرب زوجتك وكأنها عبدٌ تحت قدميك، وقد أمرت بإكرامها: «استوصوا بالنساء خيراً».

لماذا لا تسمح لصهرك بضرب أختك لأنها زوجته؟! وتتأثر وتغضب من ذلك، وترضى أن تضرب بنات الناس الذين أكرموك وصاهروك وقدموا لك ابنتهم؟! أتكافئ تكريمهم لك بالإساءة إلى ابنتهم؟! ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾؟! [الرحمن: ٦٠] كيف ترضى لنفسك ما لا ترضاه لغيرك؟!

المرأة أحق بالرحمة؛ لضعفها واحتياجها لمن يقوم بشأنها، ولذلك شبه سيدنا النبي النساء بالزجاج في الرقة واللطافة، فقال: «ويحك يا أنجشة! رويدك بالقوارير» في الحديث المتفق عليه، فهل عرفت الآن لماذا أوصاك حبيبك النبي بالمرأة؟

أريدك اليوم أن تفهم مقالة الفقهاء عندما قالوا: الأنوثة عجز دائم، يستوجب الرعاية أبداً، فهل عرفت لماذا (لم يضرب النبي امرأة قط ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله)؟ رواه مسلم، وهل عرفت لماذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]؟؟ وهل عرفت الآن لماذا قال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:

١٩]؟؟ أتعرف ماذا فعلت؟! تركت مئات التوصيات بالمرأة، ولحقت توجيهًا واحدًا فقط في ضرب المرأة ضرب تأديب عند النشوز، لا ضرب تعذيب، انتبه إلى القيد المهم: عند النشوز؛ والنشوز: مخالفة اجتماعية أو أخلاقية تمتنع بها المرأة عن أداء واجباتها، وأجمع الفقهاء على أنه لا يقصد به إيذاء الزوجة ولا إهانتها.

الضرب يكون بعد عملية إصلاحية طويلة ممتدة، وهو آخر الطب، وآخر ما يلجأ إليه الزوج، بل إذا علم الزوج أن الضرب سيزيد الأمر عنادًا وسوءًا ولا يحل المشكلة؛ لم يجز له أن يضربها، كذا في «مواهب الجليل» (٤ / ١٥).

لذلك لا يمكن أن يقرَّ الإسلام ظلمًا أو عدوانًا على المرأة تحت أي مسمى، لم يسمح الإسلام بالانتقال إلى مرحلة الضرب مباشرة تأديبًا للزوجة، وإنما يلجأ إلى التأديب بعد النصيحة، وبعد الهجر في المضجع، فاشترط الإسلام شروطًا لضرب الزوجة تأديبًا:

١- أن يغلب على ظنه أن ضربها سيصلحها.

٢- أن يكون ضربًا غير مبرَّح، والمقصود منه: الإيلام الأدبي والنفسي، لا الجسدي.

٣- أن يكون الضرب في غير الوجه والمقاتل؛ أي: أن يبتعد عن الأماكن الحساسة والأماكن الشريفة؛ كالوجه والرأس والنحر، وحيبك يقول: «إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه» كما في الحديث المتفق عليه.

٤- ألا يتسامع الجيران ضرب الزوجة، فتكون قد أسأت إليها مرتين.

٥- ألا يكون الزوج مقصّرًا في جهة زوجته، بل موفيًا لها جميع حقوقها المشروعة.

أتعرفون؟ سيدنا النبي نهى أولاً عن ضرب النساء، فقال: «لا تضربوا إماء الله»، فجاء سيدنا عمر يشكو تمرد النساء على أزواجهن، فرخص النبي في الضرب، ففهم بعض الصحابة خطأً أن ذلك ترخيص في مطلق الضرب، فأتت الزوجات يشكين إلى رسول الله ما فعل أزواجهن، فعند ذلك غضب سيدنا النبي وقال: «لقد أطاف بآل بيت محمد نساءً كثيرٌ يشكون أزواجهن، ليس أولئك بخياركم» (رواه أبو داود).

وكلكم يعلم علم اليقين أن آخر وصية أوصانا بها سيدنا النبي في حجة الوداع قوله: «استوصوا بالنساء خيراً» وكل من لا ينفذ وصية رسوله حقاً لا يكون من خيار الناس، «ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد».

* * *

المعاشرة بالمعروف

علماء النفس يقولون: الزوجة تحتاج في كل يوم إلى أربع عشرة لمسة حنان.

- عندما تستقيظ صباحًا يقول لها: صباح النور.

- وعندما تضع الطعام يقول لها: سلم الله اليدين.

- وعندما يدخل فيجد بيته نظيفًا مرتبًا يقول لها: الله لا يجرمنا منك.

الحنان واللفظ مع الزوجة أمر إخباري من القرآن: ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] وفي الحديث: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وألطفهم بأهله».

- وعندما تكون الزوجة غاضبة ثائرة من عملها في البيت؛ يقوم بتهدئتها والعطف عليها، وتلطيف جو الحياة الزوجية.

أريد أن أوجّه رسالة إلى الزوجين: إن الحقوق متبادلة، والواجبات متبادلة، فكل حق يقابله واجب، فعندما تثور الزوجة فعلى الزوج أن يتحمل غضبه ويتعامل معها بحنان، فالزوجة يتقلب مزاجها شهريًا، وعلى الزوج أن يقدر سيكولوجية الزوجة، وهو عندما يثور فعليها أن تعامله بحنان ولطف، فالمرأة أقدر على الحنان من الرجل، والمرأة لديها من العاطفة ما يسع العالم أجمع من حولها؛ لأن الله جهّزها بهذا الجهاز لتعطف على أولادها وتقوم بشؤونهم، فأنت لا تدير في بيتك السجن المركزي!! أنت تدير بيتًا سماه الله سكنًا ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠].

تعالوا لتتعلم من سيدنا عمر الذي يقول: ينبغي للرجل أن يكون في أهله كالصبي، فإذا كان في القوم كان رجلاً.

عملاق الإسلام هذا جاءه أعرابي، وطرق بابه، فسمع امرأة سيدنا عمر تكيل له بالكلام:

أنت خليفة المسلمين؟؟ أنت صاحب رسول الله؟؟ أنت كذا..؟! فعاد أدراجه وهو مطرق الرأس، لكن أمير المؤمنين فتح الباب وناداه: يا أخا الإسلام! فخجل الرجل، وعاد إلى سيدنا عمر، وقال له: جئتكم أشكو زوجتي، فسمعت زوجتك تقول كذا وكذا، فقال رضي الله عنه: أليست مربية لأولادي؟ أليست مهيئةً لطعامي؟ أليست مرتبةً لثيابي؟ أليست... أليست...؟؟ فخجل الأعرابي وعاد أدراجه..

تعالوا نتعلم الحنان من أمهات المؤمنين، لقد كُنَّ حانيات على سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم: سيدتنا خديجة جاءها الحبيب الأعظم بعد حادثة الوحي وهو يقول: «زملوني زملوني» فاستقبلته، وضمته إلى صدرها، وغطته، وهي تسأله الخبر، فيخبرها كيف رأى سيدنا جبريل على هيئته التي خلقه الله عليها بين السماء والأرض، فتقول له: كلا والله؛ لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الدهر... فانظر كيف هدأت من روعه، وأزالت عنه ما اعتراه.

لذلك الحنان مهم في الأسرة، والرحمة أحد أركان الأسرة، والرفق أمر مهم في الأسرة، سيدنا النبي الأعظم يقول: «الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من

شيء إلا شأنه، إذا أراد الله لأهل بيت خيرًا دلَّه على الرفق» ويقول: «مَنْ يُحَرِّمَ الرفق يُحَرِّمَ الخير كله».

وكذلك أمهات المؤمنين تعطينا درسًا آخر في الحنان بين الضرائر: لما مرض الحبيب الأعظم صار وهو يُحْمَلُ يسأل كل ليلة: «أين أنا غدًا؟ أين أنا غدًا؟» فعرفنا أنه يسأل عن يوم السيدة عائشة وليلتها، فقلن له: قد أذنَّا لك يا رسول الله أن تكون في بيت عائشة، فتحول إلى بيت السيدة عائشة.

حب رسول الله للسيدة عائشة بمفردها درسٌ في الحب بين الزوجين، وفي الحنان والعطف والرعاية، فالسيدة عائشة كانت حُبَّ رسول الله؛ أي: أحب أزواج النبي إليه، سئل عليه الصلاة والسلام: من أحب الناس إليك؟ قال: «عائشة» قالوا: ما نسألك عن النساء، بل عن الرجال، فقال: «أبوها»، وكان الرواي إذا روى حديثًا عنها يقول: حدثتنا الصديقة بنت الصديق، حبيبة رسول الله المبرأة، ولنذكر قصَّة حبيبة أبيك! لقد بقي حنانها رمزًا لنساء الأمة الإسلامية إلى آخر لحظة، تقول رضي الله عنها: توفي رسول الله بين سحري ونحري.

هذه دعوة للزوجين: استحيوا من سيدنا رسول الله، أيها الزوج! زوجتك وصية رسول الله، وصالك بها في حجة الوداع ثلاث مرات، فانظر كيف تخلف النبي في وصيته؟! وفقكم الله تعالى وأخرج منكم الكثير الطيب.

* * *

تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم

عن أنس رضي الله عنه قال: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَطُوفُ عَلَى نِسَائِهِ فِي اللَّيْلَةِ الْوَاحِدَةِ وَلَهُ يَوْمَئِذٍ تِسْعُ نِسْوَةٍ. رَوَاهُ الْخُمْسَةُ إِلَّا التِّرْمِذِيَّ.

تعدد الزوجات ليس أمراً مستحدثاً في الشرع، بل هو أمرٌ قديم، فنبى الله داود كان له مئة زوجة، ونبي الله سليمان كان له سبع مئة زوجة من الحرائر؛ لذلك عليكم أن تعرفوا:

أولاً: أن أسباب تعدد الزوجات لبنينا الكريم ليس الشهوة الجنسية، ولو كان كذلك لكان التعدد في مرحلة شبابه، ولكنه طوال خمسين سنة لم يتزوج إلا زوجة واحدة هي السيدة خديجة، وكانت تكبره بخمسة عشر عاماً، فأرجو أن تنتبهوا أن الجمع بين أكثر من واحدة كان لبنينا في سن الكهولة، ومن كان كذلك لا يقال عنه: إِنَّ التَّعَدُّدَ بِسَبَبِ شَهْوَتِهِ الْجَنَسِيَّةِ؛ كَمَا يَدَّعِي أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ، هَذَا أَوَّلًا.

وثانياً: من سن الخمسين إلى الستين جمع رسول الله بقية الزوجات؛ لأسباب إنسانية بحته.

ثالثاً: منذ السنة الثامنة للهجرة لم يتزوج رسول الله أي امرأة أخرى، أتعرفون لماذا؟ لأنه كان يجوز لأي رجل من المسلمين أن يجمع ما شاء من الزوجات مثل نبينا قبل السنة الثامنة، أسلم غيلان الثقفي وكان تحته عشر نساء، وأسلم الحارث بن قيس وكان تحته ثماني نساء، وفي السنة الثامنة نزل قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣] فصار المسلمون يطلقون

الزوجات الزائدة على أربع، وسيدنا النبي صلى الله عليه وسلم لم يعد يتزوج أحدًا بعدها، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

رابعًا: كل زوجات النبي التسع تزوجهنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لأسباب اجتماعية أو سياسية أو إنسانية أو دينية أو لعادة قبلية؛ إذ إن القبائل تتقوى بالمصاهرة بعضها مع بعض، وهكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لدعم الإسلام: فالسيدة حفصة من بني عدي، والسيدة زينب بنت جحش من بني أسد، والسيدة أم سلمة هند بنت أمية من بني مخزوم، والسيدة ميمونة بنت الحارث من بني هلال، والسيدة سودة بنت زمعة من بني عامر بن لؤي.

أمَّا الأسباب: فالسيدة عائشة والسيدة حفصة تزوجهما صلى الله عليه وسلم ليكافئ الصديق والفاروق على صحبتها ودفاعهما عن الإسلام، فنال كل واحد منهما لقب عم رسول الله لزوجته، والسيدة أم سلمة تزوجها وهي أكبر منه سنًا، وكانت ذات أيتام، فكفل أولادها بعد استشهاد زوجها، والسيدة زينب بنت جحش كانت ابنة عمته، وإنما تزوجها لإبطال عادة التبني، والسيدة جويرية بنت الحارث كان زواجه بها بركةً على قومها، فقد وقعت أسيرةً في يد ثابت بن قيس، وجاءت إلى النبي الكريم تستعين على كتابتها، فقالت: أنا جويرية بنت سيد قومها، وقعت أسيرة في سهم ثابت بن قيس، وجئت أستعين بك على كتابتي؛ لأعود حرةً، وكان قومها قد أسرهم رسول الله أيضًا، وكانوا زهاء مئة بيت، فقال لها صلى الله عليه وسلم: «أدلك على خير من ذلك؟ أقضي عنك كتابتك وأتزوجك» ففرحت

وأسلمت، وأعلن رسول الله زواجه منها، ودفع لثابت بن قيس كتابتها، فصار الناس يقولون: أصهار رسول الله تحت أيدينا أرقاء؟! ومن حبهم برسول الله صلى الله عليه وسلم أطلقوهم من الرق، وأعتقوهم؛ فإذا بالقرية بأسرها تدخل في الإسلام وهم راضون، تقول السيدة عائشة: ما رأيت أعظم بركة من جويرية على قومها! دخل بسبب زواج النبي منها قرابة مئة بيت في الإسلام.

* * *

رثاء الشيخ تراب الحق

الحمد لله المتفرد بالبقاء، الذي حكم على جميع خلقه بالانتقال عن دار الفناء،
أحمده سبحانه وتعالى في السراء والضراء، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد المنزل
عليه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] فإننا لله وإنا إليه راجعون.

أما بعد؛ فإن الله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بمقدار، ولا نقول إلا ما
يرضي ربنا عز وجل: إنا لله وإنا إليه راجعون.

بكت المعارف والرسوم فقيدنا أواه لو كان البكاء يفيدنا
رِزءُ أصاب المسلمين فصَدَّعَ الـ أكوَان مَنَّا واستطار قلوبنا
يا شامتين برزتنا أتى لكم منه المفرُّ إذا أتاكم رِزؤنا؟!
رحمك الله تعالى يا سيدي الإمام تراب الحق، وألحقك بالرفيق الأعلى، لقد
دافعت عن الإسلام ومبادئه، وصنت الأعراض والمقدسات، وكنت علماً من
أعلام الأمة المحمدية.

في الحديث: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» وفي الحديث: «يقال
للعابد يوم القيامة: ادخل الجنة، ويقال للعالم: قف حتى تشفع للناس».

ويوم القيامة يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء، فيرجح مداد العلماء.
هذا الشيخ قضى حياته وهو مرفوع الرأس، لم تسجد عمامته لأحد إلا لله، ولم
يдахن ولم يوافق كما فعل غيره، وهذا دأب الصادقين من أمة سيدنا محمد صلى الله
عليه وسلم.

وقف على منبر رسول الله يؤدي الأمانة، وينصح للأمة، فجزاه الله عنا أفضل ما
جزى إمامًا عن أمته.

كان أمةً وحده، ما مأل للباطل يومًا، ولما كان كذلك اتخذ الله تعالى شهيدًا كما
اتخذ من قبل عالمًا؛ ليجمع له بين العلم والشهادة.

سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا أصحابه: «من الشهيد؟» فقالوا: من
يموت في أرض المعركة، قال: «إن شهداء أمتي إذن لقليل، الحريق شهيد، والغريق
شهيد، والهدم شهيد، والمرأة تموت في نفاسها شهيدة...» وعدد أنواعًا لمن يموت
على فراشه مريضًا، فأعطاه وسام الشهادة.

لقد مرض الإمام تراب الحق آخر حياته، فصبر، ومات في مرضه، وهذا وسام
الشهادة الذي قدّمه رسول الله له، فكان شهيد الآخرة الذي يُغسل ويكفن ويصلى
عليه، وأما شهيد المعركة فلا يُغسل، ولا يكفن، ولا يصلى عليه.
رحمك الله يا إمام، وألحقك بالرفيق الأعلى.

* * *

معنى

(قَدَّسَ الله روحه) و(قَدَّسَ الله سرّه)

لا يخلو كتاب من كتب السَّادة الصوفية من استخدام هذه العبارة: (قَدَّسَ الله سرّه أو روحه) في حق الأولياء والصالحين، وحتى السادة المحدثون والمفسرون وردت في كثير من مؤلفاتهم؛ كأمثال الإمام النسفي المفسر، والألوسي صاحب «روح المعاني» وفي كتاب (التحرير والتنوير) للإمام ابن عاشور، واستخدمها الإمام الحافظ مرعي الحنبلي في «أقاويل الثقات» والإمام الغزالي، وابن عساكر في «تبيين كذب المفتري» والإمام الحصني صاحب كتاب «دفع شبه من شبه وتمرد، ونسب ذلك إلى السيد الإمام أحمد».

و(قَدَّسَ الله) بمعنى: طَهَّرَ الله من الدَّنَس والآثام والأغيار والحجب والأوهام، و(السَّر): هو اللطيفة المودعة في الإنسان، وهي الروح.

وقد ورد في الحديث عند ابن ماجه وابن حبان والبيهقي والطبراني في «المعجم الكبير»: «كيف يقدِّس الله أُمَّةً لا يأخذ ضعيفُها الحق من قوَّيِّها غير متعنع؟!» وقد استخدمها الإمام ابن عبد البر الحافظ الشهير في كتابه «الاستيعاب» في حق الصحابة الكرام، غير سيدنا علي رضي الله عنه وأرضاه.

وعلى اشتهار ابن تيمية وتلميذه ابن القيم بالتشدد والمخالفة لعلماء الأمة الإسلامية في كثير من المسائل والأقوال؛ نجد ابن تيمية يستخدمها في «فتاواه» في

حق كثير من أوائل الصوفية؛ أمثال سيدي عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه،
واستخدمها ابن قيّم الجوزية في حق شيخه ابن تيمية في جميع مؤلفاته، فلا تجد ذكر
ابن تيمية في كتبه إلا وجدت بعدها: (قدّس الله روحه).

واستخدمها الإمام الشوكاني في «نيل الأوطار»، وابن خلدون في «مقدمته»،
وابن كثير في «البداية والنهاية»، والذهبي في «تاريخ الإسلام» في تراجم كثير من
العلماء وأهل التصوف، وحتى علماء الأدب واللغة لم تخلُ مؤلفاتهم منها؛ كصاحب
«القاموس المحيط» الفيروزآبادي، وصاحب «صبح الأعشى»، والمقري صاحب
«نفع الطيب»، وابن خلكان صاحب «وفيات الأعيان».



عدالة الإسلام

عن سيدنا علي رضي الله عنه: أَنَّ السيدة فاطمة عليها السلام شكت ما تلقى في يدها من الرحى، فَأَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْأَلُهُ خَادِمًا فَقَالَ: «أَلَا أَدْلُكُمَا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ؟ إِذَا أُوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا فَكَبِّرَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَهَذَا خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ» (أَخْرَجَهُ الْإِسْلَامُ).

أريد أن أفهم شيئاً ما زالت النساء ورائي لا تفهمه، يعني: بنت سيدنا النبيّ تطحن الشعير وتدير الرحى وتكنس البيت وتحمل قربة الماء على صدرها، ونساؤنا اليوم يتأففن من خدمة البيت رغم وجود أفران الغاز للطبخ والغسالة والجلالية والبراد والفریزر والميكرويف ومئة وسيلة ووسيلة من وسائل الترفيه، استحيي يا أمة الله، يا نساء المؤمنين استحيين من الله، أتن في أتم عافية، لا ينبغي لَكُنَّ التكبر على أزواجكن، ارحمن أزواجكن، أليس لَكُنَّ أسوةً ببنت سيدنا النبيّ سيدة نساء العالمين، تأتي إلى حاكم الأرض وهو أبوها ليجد لها خادماً، فبماذا أجابها رسول الله، قال: «يا فاطمة اتق الله».

الله أكبر، لم يكن رسول الله من الدجالين على الناس الذين يقولون: إنَّ (لينين) نادى بالمساواة وعنده كلُّ شيء، و(ماوتي سونغ) كان ينادي بالعدالة الاجتماعية وما نقص بيته شيئاً، ثم تقرأ عن (ماركس) حقير الإلحاد في الأرض ويرفعونه إلى عنان السماء، كلُّهم كانوا يمثلون على شعوبهم، كانوا ينعمون هم، ويجوعون شعوبهم.

إذا أردتم أن تقرؤوا عن العدالة والمساواة فاقروا للنبي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، هو رافع لواء العدالة الاجتماعية، تأتي إليه ابنته تطلب خادماً وتقول له: يا أبتاه إنَّ يدي تعبنا من شدة تدوير الرحى، وملابسي يتسارع إليها الوسخ والغبار، وصدري تأثّر من حمل قربة الماء، فأذن لي بخادم، فيقول لها: «لا أعطيك وأدع فقراء أهل الصُّفَّة يموتون جوعاً»، ثم قال لهما: «أدلكما على ما هو خير لكما من خادم؛ إذا أويتما إلى فراشكما فكبراً ثلاثاً وثلاثين، وسبّحاً ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين، فهذا خير لكما من خادم»؛ لأنَّ بركة الذكر تُذهب عنهما التعب، ويبقى لهما ثوابه.



الالتجاء إلى الله تعالى

عن السيدة حفصة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْقُدَ وَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى تَحْتَ خَدِهِ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ» ثلاث مرات، رواه أبو داود والترمذي بسند حسن.

وعن سيدنا أبي سعيد أنه عليه الصلاة والسلام قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يَأْوِي إِلَى فِرَاشِهِ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؛ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذُنُوبَهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ، وَإِنْ كَانَتْ عِدَدَ وَرَقِ الشَّجَرِ، وَإِنْ كَانَتْ عِدَدَ رَمْلِ عَالِجٍ، وَإِنْ كَانَتْ عِدَدَ أَيَّامِ الدُّنْيَا»، رواه الترمذي بسند حسن.

وأدعية وأذكار أخرى مذكورة في «الصحيحين» وغيرهما.

هذه الأحاديث فيها من الفوائد والدرر ما تدل في مجموعها على أمر واحد يريدنا سيدنا النبي أن نلتفت إليه، وهو حسن الالتجاء والملاذ إلى الله تعالى.

هذه الأحاديث تشير لك إلى أَنَّ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ حَقًّا نَاجَاهُ إِذَا أَمْسَى وَإِذَا أَصْبَحَ، يجدد العهد مع الله، ويختتم مسيرة يومه بالتسليم لمولاه، ويفوض الأمر إليه.

ولدينا نماذج رائعة وأمثلة عظيمة إذا أردنا القدوة الحسنة:

دَبَّ الْأَلَمُ فِي سَيِّدِنَا أَيُّوبَ عَلَى نَبِينَا وَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَزَادَ عَلَيْهِ الْبَلَاءُ فِي مَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَسَدِهِ، وَاسْتَمَرَّ سَنِينَ، فَلَجَأَ إِلَى اللَّهِ ﴿أَنِّي مَسْنِي الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ

الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ
عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿[الأنبياء: ٨٣-٨٤].

وركب سيدنا يونس البحر، ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١]، فألقيَ في لجج البحار، وانقطع عنه النهار، والتقمه الحوت وهو مليم، ﴿ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

وخرج نبينا الأعظم عليه صلوات الله من مكة تطارده قريش وقبائل العرب وقد جعلوا الجوائز لمن يقتله أو يأتي به، ونزل مع صاحبه بالغار وقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وأنزل الله عليه: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠].

ويوم بدر نظر سيدنا رسول الله إلى المشركين وهم ألف وزيادة، وأصحابه (٣١٣) رجلاً، واستقبل القبلة وراح يهتف بربه عز وجل حتى سقط رداؤه عن كتفيه وهو يقول: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً»، فأُنزل عليه ربه عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

ويوم الأحزاب تشتد الوطأة، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً، وجاءت قريش وحاصرت المدينة عشرين

ليلة، وأمر رسول الله الصحابة أن يقولوا: «اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا». وراح يدعو: «اللهم مُنزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم وانصرنا عليهم». فكان جواب ربك عز وجل أن قال: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

إخوتي:

ليس لكم إلا الله، أنتم مطالبون بصدق الالتجاء إلى الله والاعتماد عليه، خذوها مني صادقة:

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِذَا ضِيعَتْهُ عَوْضٌ وَمَا مِنَ اللَّهِ إِنْ ضِيعَتْهُ عَوْضٌ
النَّبِيُّ يُعَلِّمُكَ بِنَفْسِهِ، فَاتَّخِذْهُ مُعَلِّمًا، وَأَعْطَاكَ قَاعِدَةً فَقَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى... مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»، رواه البخاري.

* * *

أهل السُّنَّة والجماعة

قال عليه الصلاة والسلام: (أمركم بخمسٍ الله أمرني بهنَّ: السمعُ والطاعةُ والجهادُ والهجرةُ والجماعةُ) رواه الترمذيُّ بسندٍ صحيح.

أهل السُّنَّة والجماعة: مصطلحٌ لفظيٌّ عن أهل الحديث وعقيدة الأشاعرة والماتريديَّة؛ وتعني: أتباع المذاهب الأربعة الفقهية.

عدد المعتنقين لهم ٧٨ ٪ من المسلمين؛ مليار وأربع مئة مليون نسمة، أكبرُ مجموعةٍ دينيةٍ من المسلمين.

يُعرف علماءُهم أنَّهم أتباع منهج السُّنَّة النبوية وسُنَّة الخلفاء الراشدين وأئمة الدين من الصحابة والتابعين والمذاهب الفقهية المعتمدة ومن سار على نهجهم.

ظهرت هذه التسمية تدريجياً لسبب ظهور الفرق المنشقة عن جماعة المسلمين، وظهر هذا المصطلح بعهد سيدنا عثمان، مقابل مصطلح أهل البدع والأهواء.

انقسم أهل السُّنَّة إلى طريقتين:

*طريقة فقهاء أهل الرأي: وهي مدرسة أهل العراق وإمامها الإمام أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه.

*وطريقة فقهاء أهل الحديث: وهي مدرسة أهل الحجاز وإمامهم الإمام مالك والإمام الشافعي رضي الله عنهما.

ثمَّ ظهر الخوارجُ زمنَ سيِّدنا عليٍّ.

ثمَّ ظهرت المعتزلةُ زمنَ الخليفة المأمون العباسيِّ والمعتصم والواثق، ووقَّفَ في وجهِهِم الإمامُ أحمدُ والإمامُ الأشعريُّ والإمامُ الماتريديُّ، فأَيَّدوا عقائدَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة، وبذلك تمايزتِ الفِرَق.

وكان من أوائل مَنْ أَلَّفَ بالفِرَق في القرن الرابع الهجري الإمامُ عبد القاهر البغدادِيُّ الشافعيُّ في كتابه «الفَرْق بين الفِرَق»، وذكر أنَّ أهلِ السُّنَّة والجماعة هي الفِرقةُ الثالثة والسبعون في حديث: «وتفترق أُمَّتي على ثلاثٍ وسبعين فِرقة...» الحديث.

وأنَّهم جماعةٌ واحدةٌ من أهلِ الرأي والحديث، وأطلق عليهم أهلُ السُّنَّة تمييزاً لهم عن الخوارج والمعتزلة والمجسِّمة والشيعة، وأقول زيادة عليهم: والوهابية.

وأوَّلُ فِتْنَةٍ وبِدْعَةٍ ظهرت في الإسلام فتنةُ الخوارج الذين انشقُّوا عن جماعة المسلمين، وأعلنوا خروجَهُم عن سيِّدنا عليٍّ، وكفَّروا المسلمين، واستباحوا دماءَهُم وأعراضَهُم وأموالَهُم بغير حقٍّ، تماماً كما فعل الوهابيةُ اليوم.

وأما أهلُ السُّنَّة؛ فلا يكفُّرونَ أحداً بذنبٍ ارتكبه، وأنفقوا على وجوب السمع والطاعة لولاةِ الأمور، وعدم جواز الخروج عليهم وإن كانوا عُصاةً، يقولُ الإمام

النووي في «شرح صحيح مسلم» حديث (١٨٣٤): (وأما الخروج على الولاية وقتالهم؛ فحرامٌ باجماع المسلمين وإن كانوا فسقةً ظالمين).

* * *

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	تمهيد
٧	الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
١٠	أنواع الخلاف
١١	لا شفاعة للكافرين
١٢	رؤية الله تعالى
١٦	خروج الدابة
١٨	جَنَّةُ الخُلْد
٢٢	رؤية الله تعالى
٢٤	التفضيل بين الأنبياء
٢٥	فطرة التوحيد
٢٩	التوحيد

٣١	الغنائم والأسرى
٣٣	عذاب الأُمَّة
٣٥	أسارى بدر
٣٨	ترتيب القرآن
٤٠	القرارات الأخيرة
٤٣	سورة براءة
٤٥	مانع الزكاة
٤٨	نصر الإسلام وأركان الهزيمة
٥٢	ظاهرة النفاق
٥٥	مسجد الضرار
٥٧	لا شفاعة للكافرين
٦٠	الصدق في التوبة
٦٩	الجنة ونعيمها

٧١	تنزيه الله عن المكائنة
٧٣	التوبة
٧٦	براءة سيدنا يوسف
٧٩	الفرج بعد الكرب
٨١	سورة الرعد
٨٣	سؤال القبر
٨٦	حرمة دخول أماكن المعصية
٨٩	سورة الفاتحة
٩٢	استشهاد سيدنا حمزة
٩٥	الإسراء والمعراج
٩٨	أهل الفترة
١٠٠	فضل صلاة الجماعة
١٠٢	التوسل

١٠٤	أحوال الآخرة
١٠٦	دلائل النبوة
١٠٩	الشرك بالله تعالى
١١٢	ثمرات الحب في الله تعالى
١١٦	وجوب قضاء الصلوات
١١٩	الحساب والميزان
١٢١	أهل الجنة
١٢٤	خصائص البيت الحرام
١٢٦	أكل الحلال وآداب الدعاء
١٢٨	الحدود في الإسلام
١٣١	حديث الإفك
١٣٩	فرض الحجاب
١٤٢	أقسام الذنوب

١٤٤	لا شفاعة للكافرين
١٤٧	فضل (لا إله إلا الله)
١٤٩	بِرُّ الوالدين
١٥٤	تربية الأولاد
١٥٧	حرمة الآلات الموسيقية
١٥٩	حرمة التبني
١٦١	أثر العقيدة
١٦٣	آل البيت
١٦٥	مشروعية تعدد زوجات النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم
١٦٧	مكانة سيدنا عمر في الإسلام
١٧٠	فضل الصلاة على النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم
١٧٢	واصل بن عطاء

١٧٤	حكم الكهانة في الإسلام
١٧٧	فضل سورة يس
١٧٩	التفضيل بين الأنبياء
١٨٢	هل يعلم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الغيب
١٨٥	تكفير الكبائر
١٨٨	المجسّمة
١٩١	أشراط الساعة
١٩٣	الأدعية هي الأدوية
١٩٥	صفة السمع لله تعالى
١٩٨	أنواع الوحي
٢٠٠	مغبة ترك الشريعة
٢٠٢	أسعد أسرة في الإسلام
٢٠٥	صفات الجن

٢٠٨	صلة الرحم
٢٠٩	قيام الليل
٢١٢	شرط النصر
٢١٤	الأدب مع الشريعة
٢١٧	طاعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
٢١٩	الأدب مع الخلق
٢٢٢	فضل التسبيح
٢٢٦	عذاب قوم عاد
٢٢٩	أدلة الإسراء
٢٣٢	فرض الصلوات الخمس
٢٣٥	سورة الرحمن
٢٣٧	سورة الواقعة

٢٤٠	الصلح مع الله تعالى
٢٤٣	صفة السمع لله تعالى
٢٤٦	حكم الوشم
٢٤٩	طاعة الله ورسوله
٢٥١	الولاء والبراء
٢٥٤	أحب الأعمال إلى الله تعالى
٢٥٨	أسماءه صَلَّى الله عليه وسلّم
٢٥٩	نشر الإسلام عن طريق الأعاجم
٢٦٢	النفاق والمنافق
٢٧٩	الحج إلى بيت الله الحرام
٢٨٢	سورة تبارك
٢٨٣	الملائكة
٢٨٥	سياسة سيدنا رسول الله

٢٨٧	عبادة الأصنام
٢٩٠	أنواع الجنِّ
٢٩٣	سورة المزمل
٢٩٦	أوّل وآخر آية نزلت من القرآن الكريم
٢٩٨	أنواع النفس
٣٠١	مسير أم مخير؟
٣٠٤	سورة المرسلات
٣٠٧	سورة ﴿عمّ يتساءلون﴾
٣٠٩	لا يجوز أن نقول: أخطأ النبي
٣١٢	أنواع المطففين
٣١٥	سورة ﴿والسّماء والطّارق﴾
٣١٨	سورة الأعلى
٣٢٢	سورة الغاشية

٣٢٥	سورة الفجر
٣٢٨	سورة البلد
٣٣٠	سورة الشرح
٣٣٢	سورة التين
٣٣٥	سورة العلق
٣٣٧	سورة القدر
٣٤٠	سورة البينة
٣٤٣	سورة الزلزلة
٣٤٦	سورة الكوثر
٣٤٩	سورة الكافرون
٣٥٢	سورة النصر
٣٥٤	سورة المسد
٣٥٦	فضل سورة الإخلاص

المعوذتان	٣٦٣
تعبير الرؤيا	٣٦٧
حكم من يكذب في الرؤيا	٣٧٠
رؤية ورقة بن نوفل	٣٧٣
رؤية النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اليقظة	٣٧٥
الإتيكيت النبوي	٣٧٩
حكم ضرب المرأة	٣٨٢
المعاشرة بالمعروف	٣٨٥
تعدد زوجات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ	٣٨٨
رثاء الشيخ تراب الحق	٣٩١
معنى (قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ) و(قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ)	٣٩٣
عدالة الإسلام	٣٩٥

٣٩٧	الالتجاء إلى الله تعالى
٤٠٠	أهل السُّنة والجماعة
٤٠٣	فهرس الموضوعات

لحة عن المؤلف ،

هو الدكتور عبد العزيز بن محمد سهيل الخطيب

الحسني الدمشقي

♦ من أسرة علمية في بلاد الشام ورجالها علماء محدثون فقهاء.

♦ والده نسابه الشام وسيد علماء أسرته من آل الخطيب.

♦ ترعرع على أيدي شيوخ الشام الأثبات وأجازوه في علوم الشريعة ومنها علم الحديث الشريف.

♦ يعد إسناده في الحديث في العالم الإسلامي من أعلى الأسانيد.

♦ خلف والده في علم الحديث والفقه والعقيدة ويرع والف ودرس فيها.

♦ خطيب جامع الدرويشية بدمشق وسيد علمائه.

♦ جمع مع العلم التصوف وهو شيخ الطرائق الصوفية ونائب المشيخة الصوفية في العالم الإسلامي.

♦ يعد أحد رؤوس أسرة آل الخطيب الحسنية في العالم الإسلامي.

♦ كان له شرف افتتاح معهد التهذيب والتعليم مع ثلة من أبناء عمومته وتسلم إدارته.

♦ له سبع موسوعات في الحديث والفقه والعقيدة والتصوف والخطب النبوية والتاريخ الإسلامي والدروس البدرية .

♦ بلغت مؤلفاته المطبوعة ٩٠ مؤلفاً .



الشيخ الدكتور

عبد العزيز الخطيب الحسني

نائب مشيخة الطرق الصوفية في بلاد الشام